

إيفان كليما

لا قدّيسون ولا ملائكة

ترجمة : إيمان حرزالله

رواية

إيفان كليما

لا قدّيسون ولا ملائكة

رواية

ترجمة: إيمان حرزالله



إيفان كليما

لا قدّيسون ولا ملائكة

الكتاب: لا قديسون ولا ملائكة/ رواية
المؤلف: إيفان كليما
المترجم: إيمان حرزالله
عدد الصفحات: 296 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-07-8

الطبعة الأولى: 2013

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الفصل الأول

1

قتلـت زوجـي الليلة الماضية. اسـتخدمت مِثقَب أسـنان لثقْب جمجمته. انتظرت لأرى حمامة تخرج من رأسه، لكن خرج بدلاً منها غراب أسود كبير.

استيقظت مرهقة، أو على نحو أكثر دقة بلا شهية للحياة. بتقدمي في السن تضعف شهيتي للحياة. هل شعرت للحظة بشهيّة مفعمة للحياة؟ لا أظن، لكن قطعاً كان لدىً المزيد من القوة. والتوقّعات كذلك. وتعيش طويلاً جداً كأنك تتّوقع شيئاً ما.

اليوم السبت. لديّ متّسع من الوقت لكي أحلم وأحزن.

أزحف خارج سـريري المفرد. نقلت أنا وجانـا نصفه الآخر إلى القبو منذ وقت طويل. مازال القبو مكتظاً ببقايا أشـياء كارل، زوجي السـابق: مزلاجان حمـراوان لامعان، حقيبـة مليئة بكُـرات التنس البالية، وحزمة كتب مدرسـية قديمـة. كان علـيّ أن ألقي بكل هذا منذ وقت طويل، لكنني لم أسـتطع حمل نفسـي على هذا. وضعت نبات مطاط مكان نصف الفراش الآخر. لا يسـعك عناق نبات مطاط، ولا يسعه ملاطفتك. لكنه لن يصاحب أحداً غيرك.

السـاعة السـابعة والنصف. عليّ أن أقضي بعض الوقت مع ابنتي اليافعة. إنهـا بحاجة إلـيّ. ثم عليّ أن أذهـب لزيارة والدتي. وعدتها أن أسـاعدها في

فرز أشياء أبي. الأشياء لا تهمّني، ما يهمّني هو أنها وحدها وتقضي وقتها في البكاء. إنها بحاجة للتحدّث عنه، وليس لديها أحد يمكنها التحدث معه عنه. من طريقة كلامها عنه يظن المرء أنه كان قديساً. لكنه، بحسب ما أذكر، كان إما يملي عليها أوامره طوال الوقت وإما يتجاهلها.

تقول صديقتي لوسي إن المرء يشتاق حتى للطاغية إن تعوّد عليه. وهذا لا ينطبق على الحياة الخاصة فقط.

أنا لا أفتقد الطاغية. لقد قتلت زوجي السابق الليلة الماضية بمثقب أسنان مع أنني لا أكرهه. بل أرثي له. فهو أكثر وحدة منّي، وبداخل جسده مرضٌ مميت يقرضه. لكن ألسنا جميعاً بداخلنا شيء ما يقرضنا؟ الحياة حزينة ما خلا لحظات غريبة يظهر فيها الحب.

كنت دائماً أسأل لماذا أحيا. لم يعطني والديَّ إجابة واضحة أبداً. خمّنت أنهما أيضاً لا يعرفان. لكن من الذي يعرف؟

ما إن تولد، عليك أن تعيش. لا، هذا ليس حقيقياً. بإمكانك الانتحار في أي وقت، مثل جدّي أنطونين، أو عمتي فيندا، أو فيرجينيا وولف، أو مارلين مونرو. الأخيرة لم تنتحر مع ذلك؛ قالوا إنها فعلت ذلك فقط لتطمس آثار قاتلها. تناولت خمسين حبة منوِّم رغم أن ربع هذه الكمية كان كافياً. قتَلَتها بارعون. أنا أحمل حبوباً مسكّنة؛ لكن ليس لأنتحر بها، بل تحسباً لنوبات الصداع النصفي. كنت لأود الانتحار لولا كرهي للجثث. لطالما كان الذهاب إلى المشرحة أمراً شاقاً بالنسبة لي، وكنت أفضّل أن لا أتناول شيئاً طيلة اليوم السابق.

لماذا يجب على من يحبونني أن يتعاملوا مع جثتي؟

سيضطرون لذلك يوماً ما على أية حال. مَن سيكونون؟ «جانينكا»[1] على الأرجح، المسكينة.

---

(1) اسم تدليل لجانا.

عليّ أن لا أدعوها جانينكا لإنها لا تحب هذا الاسم. يبدو طفولياً جداً لأذنيها. حين زرت زوجي السابق في قسم الأورام منذ وقت قريب، دعوته كاجينك، ظننت أن سماعه الاسم الذي اعتدت أن أناديه به منذ سنوات قد يخفّف من آلامه قليلاً، لكنه اعترض قائلاً إنه اسم قاتل مأجور حُكم عليه مؤخراً بالسجن المؤبَّد.

لم أقل له إننا جميعاً حُكِم علينا بالسجن المؤبَّد.

أشعر باكتئاب الصباح يُحكِم قبضته عليّ. احتسيت، كثيراً جداً، كأس نبيذ واحدة الليلة الماضية. لن أحاول عدّ السجائر. تصرّ لوسي على أنني لا أعاني من الاكتئاب- أنا فقط «مزاجية».

تعارفنا أنا ولوسي في كلية الطب، لكنها لم تبرع قط في مادة التشريح بينما اجتزت الاختبار في المحاولة الثانية. تركتُ دراسة الطب وعملت مصوّرة فوتوغرافية وسرعان ما صارت أفضل حالا منّا نحن الذين أكملنا دراستنا. نتفق معاً دائماً. في الغالب لأننا نختلف في كل ما يمكن تخيّله تقريباً. هي مخلوق ضئيل وصغير، وساقاها نحيلتان إلى حد تتوقع أنهما قد تتهشمان في أي لحظة من نسمة هواء. لم أعرفها حزينة أبداً.

ماذا يعرف المصوّرون الفوتوغرافيون عن الاكتئاب؟ معذرة، إنها تنصحني، وهي على حق تماماً في هذا، بالإقلاع عن التدخين والاكتفاء بثلاث كؤوس نبيذ فقط في اليوم، في حين تشرب هي كما يعنّ لها. سأقلع عن كل شيء يوم أن أتم الخمسين. التفكير في إنه لم يتبقّ سوى خمس سنوات فقط على هذا اليوم المصيري أمر مريع، هذه السنّ البغيضة. هذا إن بقيت على قيد الحياة لأربع سنوات وأحد عشر شهراً أخرى. أو للغد حتّى بنفس المنطق.

الحركة أفضل علاج للاكتئاب. في العيادة ليس لديّ وقت للاكتئاب. ليس لديّ وقت للتفكير في نفسي. لكن اليوم السبت: يوم مفتوح للأحلام والأسى.

ألقي نظرةً خاطفة على حجرةِ جانا وأراها نائمةً بوداعة. كان شعرها

لا يـزال طويلاً حتـى العام الماضي، أطول من شـعري، وشـعري يغطي ثلثي ظهري. لكنها قَصَّته وتبدو الآن كصبيٍّ تقريباً. قرطاها يلمعان في أذنيها، على الوسـادة، بجـوار رأسـها، دمية قماش تدعـى بيمبا ظلت لديها منـذ كانت في السـابعة من عمرها، وكانت تحملها معها أينما ذهبت. تركت سروالها الجينز على الأرض بعد أن خلعته الليلة الماضية، وسـترتها القطنية ملقاة أعلى كومة ملابس على المقعد ذي الذراعين، أحد كمّيها مقلوبٌ خارجه داخله. تتجول مع البونكس[1] من الجنسـين لأنهم، بحسـب ما تقول، لا يعنيهم الملكية ولا المسـتقبل المهني. أصرّت ونحن ذاهبتان للمسـرح آخر مرة على أن نسـتقل التـرام. تريد أن تعيـش بطريقتها، لكن ماذا يعني أن تعيـش بطريقتك في عالـم فيه مليارات من البشـر؟ ينتهي بك الأمر دائماً مرتبطاً بشـيء ما أو بشخص ما. علـى المقعد المجاور لفراشـها كتـاب مفتوح. لم يمض وقـت طويل منذ أن كانت تقرأ فيه حكايات الجنيات وتحب سـماع كل شـيء عن البلاد الأجنبية والحيوانات والنجوم. الكلام معها ممتعاً، كانت حبّوبة. بدت لي دائماً أعقل من سـنّها، ولديهـا فهم خاص للآخرين. كانت تسـتطيع أن تحسَّ برهافة متى ولمـاذا أشـعر بالحـزن، فتقوم بكل ما يسـعها للتسـرية عني. الآن أشـعر بأنها بالكاد تلاحظني، أو تعتبرني مجرد شـخص يُطعمها ويرعاها. أقول لنفسي إن هذا بسـبب سنّها، لكنني مع ذلك خائفة، بل مرعوبة، عليها. شاهدنا ذات مرة برنامجاً تليفزيونياً عن المخدرات فسـألتها إن كان سـبق لهـا وأن اقترب منها أحد تجار المخدرات في الشارع، فأجابتني بدهشة تقريباً:

---

(1) Punk ثقافة البونك، ظهرت في أواخر السبعينات وما زالت حتى الآن في أوروبا والولايات المتحدة واستراليا، خاصة بين الشباب، تتضمن التعبير عن احتجاجهم على السلطة بسلوكات صادمة، وملابس وشعر صادمين، وموسيقى صاخبة وسريعة تسمى بونك روك، واستخدمت الكلمة لأول مرة في أوائل السبعينيات لوصف فرق الروك التي تعزف في مواقف السيارات. (المترجمة).

- «بالطبع ماما».

أخبرَتهم بالطبع أن يغوروا من وجهها. قلت لها إنني سأقتلها إن اكتشفْت يوماً أنها تتعاطى شيئاً من هذا القبيل.

- «بالطبع ماما، وستلقين بي للنسور!». ضحكنا معاً، لكن ضحكي تحشرج في حنجرتي.

أغلق باب حجرتها وأتجه إلى الحمام.

أنظر لنفسي للحظة في المرآة العدائية. لا. المرآة ليست عدائية، بل موضوعية بلا مبالاة؛ الزمن هو العدائي.

ذات مرة، حاول زوجي السابق، والوحيد حتى الآن، أن يشرح لي كيف أن الزمن عجوز كالكون. قلت له إنني لا أفهم هذا. لا يمكن أن يكون الزمن عجوزاً، أليس كذلك؟ إنه محايد.

قال لي إن الزمن مؤنث في الألمانية واللاتينية، ومحايد في الإنجليزية. حاول أن يشرح ببساطة أن الزمن بدأ مع الكون. لم يكن موجوداً قبله. حين لم يكن هناك شيء البتة، ولا حتى الزمن.

قلت له كم هو ذكي ومثقف بدلاً من أن أقول له أن يذهب ويتعلّم حِسّ الفكاهة.

ما حدث قبل ملايين السنين، وهل بدأ الزمن حينذاك أم لا، لا يعنيني في شيء، يعنيني فقط زمن حياتي، وقد سلبني الزمن حتى الآن الحب، ومنحني التجعّدات. تتربّص بي عند كل منعطف. تندفع نحوي غير عابئة بتوسّلاتي.

لا تعبأ بتوسّلات أحد. الزمن وحده منصف وعادل.

العدالة غالباً قاسية.

مع ذلك، ظل الزمن طيباً معي على نحو لا بأس به حتى الآن. لم يعد شعري كثيفاً مثلما كان في عشريناتي، وأضطر لاستخدام كيماويات لأمنع العالم من رؤيتي وأنا أتحوّل للرمادي. ولم يعد لي الخصلات الذهبية التي جدلتها ذات مرة في ضفيرة وصلت إلى أسفل خصري. لكنني ما زلت أحمل

رأسي كما كنت أحمله حينذاك. تهدّل نهداي قليلاً لكنهما ما زالا كبيرين. ليس معنى هذا أنه ما زال ثمة فائدة من حملهما معي هنا وهناك - ما عدا إمتاع الرجال. الأوغاد الأنانيون. لكن لا شيء سينقذني من الزمن. يقولون إن حُقن الدهون تحت الجلد تُخلِّصك من التجعدات خلال شهر. لكنني لا أحبذ الفكرة. ليس لديّ تجعدات كثيرة بعد. فقط حول العينين. كان زوجي السابق يدعو عينيّ سماء زرقاء. لكن السماء متحوّلة ويتغير لونها بحسب المكان والرياح وساعات اليوم، في حين عيناي زرقاوان دوماً، ليلاً ونهاراً، سعيدة كنت أم حزينة.

حين أخرج من تحت الدش يرتجف جسدي كله، ليس برداً، فما زلت أشغل التدفئة في الشقة رغم أننا في أبريل. بل أرتجف من الوحدة - يهزّني النواح الذي أكتمه، الأسى على يوم آخر سينفد فيه الزمن بكل بساطة. نهر بلا مياه. مجرى جاف مليء بحجارة حادة - وأنا حافية القدمين وعارية، ثوبي ملقىً على الأرض ولا أحد يلحظ نهديَّ. مهجوران ومُهملان، لن يتدفق منهما الحليب مرة أخرى أبداً.

تأتي من غرفة النوم خلفي ضجة يعتبرونها الآن موسيقى وتعتبرها ابنتي الصغيرة مُثلاً عُليا: نيرفانا أو آليس إن تشاينس أو سكريمنج تريز[1]، هافي ميتال، هارد روك، جرانج، لم يعد بوسعي تذكرها كلها. مضى الوقت الذي كانت فيه موسيقى كهذه تثيرني. حين تخلو العيادة تبدّد «إيفا» الصمت بتشغيل محطة إذاعية ما، لكنني لا أنتبه لها حقاً. مُساعِدتي تخاف الصمت، كالآخرين جميعاً تقريباً هذه الأيام. لكنني أحب السلام والهدوء، أتوق للحظة صمت بداخلي، صمت يمكنني فيه سماع صوت تدفق دمي، صوت ذرف الدموع على وجنتيّ، وصوت النيران عندما تقترب فجأة.

---

(1) فرق موسيقية أمريكية Nirvana 1987، Alice in Chains 1987 ما زالت موجودة. Screaming trees 1985- 2000 من واشنطن، جرانج ونيو سيكاديليك وروك بديل.

لكـن مثـل هذا الصمـت لا يوجد سـوى في عمـق القبر مثلمـا عند جدار المقبـرة القابعة على حدود قرية «روزميتال» حيث دُفن جان جاكوب روبا[1]. نحر نفسـه حين عجز عن إعالة أطفاله السبعة. مسكينة زوجته! لكنك في مثل ذاك الصمت لا تسمع شيئاً البتة لأن الدم والدموع قد توقفا، ولن يسمع السيد روبـا كلمات قداس عيد الميلاد الريفي، التي نظمها، آتية من الكنيسـة القريبة مرة أخرى أبداً: «هاي ماسـتر!إنهض أقول لك! انظر إلى السماء - المجد في الأعالي..».

الدم بالنسـبة لي، بخلاف الدموع، يعني الحياة، وحين أنزف من جرح في لثتي أحاول وقف النزيف بأسرع ما يمكنني.

2

حضّـرت لابنتـي إفطارها وأخبرتهـا أن تنجز فرضها المدرسـي فأنا ذاهبة لزيارة والدتي. تريد أن تعرف متى سـأعود للبيت. وتبدو راضية حين أخبرها أني سأعود عند الظهيرة.

تختنق الشـوارع بالسـيارات خلال أيام الأسـبوع لكن المـرور ليس صعباً صباح السبت. والهواء لا يحمل ذاك السخام. أظن أن بوسعي حتى شم أريج زهرة البيلسان آتياً من الحديقة المقابلة للمبنى.

البنايـات في شـارعنا بـلا جنس، شُـيّدت في نهايـة الثلاثينـات. بلا طراز خـاص. حـدث حينها أن بـدأوا في بنـاء جحور الأرانـب تلك، لكنهـم كانوا يبنونهـا بالطـوب وليـس بالأسـمنت المصبـوب، وكان أغلبها خمسـة أدوار

---

(1) Jan Jakub Ryba 1765-1815 مدرس ومؤلف موسيقى كلاسيكية تشيكي، عمله الأشهر قداس عيد الميلاد التشيكي «هاي ماستر!» http: //www.youtube. com /watch?v=ej8uRnoCzVQ (م)

أو ستة وليس ثلاثة عشر. أخبرتني أمي كيف كان الناس قبل الحرب حين يأتي الصيف يُخرجون مقاعدهم أمام بيوتهم ليجلسوا ويثرثروا معاً. كانت المنطقة في تلك الأيام هي حدود المدينة، وكان لدى الناس متسع من الوقت للحديث. لم يشكّوا للحظة أن حواراتهم الآدمية تلك ستستبدل بثرثرة البرامج التليفزيونية.

لم أقل لها إنهم لم يكونوا خائفين من بعضهم البعض بعد. فقد كانوا أثناء الحرب يخافون من البوح بما يفكرون فيه لئلا يكلّفهم هذا حياتهم. لكنها تعرف هذا جيداً بخبرتها الخاصة. كانوا يخافون أيضاً خلال سنوات حكم الشيوعيين، مع أنها لم تتأثر بها كثيراً، الفضل في ذلك لأبي. ماذا يحدث لمن يقضون حياتهم خائفين من التعبير عن آرائهم؟ الأرجح أنهم يتوقفون عن التفكير. أو يعتادون على الكلام الفارغ.

كانت حياة أمي في خطر أثناء الحرب، مع أنها كانت طفلة صغيرة. قتل الألمان أمها - جدتي إيرينا التي لم تتحدث عنها كثيراً - في إحدى غرف الغاز، بصحبة والديها وأشقاؤها وشقيقاتها وبنات شقيقاتها. لم تخبرني أمي بهذا حتى صرت بالغة تقريباً. قبل ذلك، كان كل ما أعرفه أن جدتي ماتت في الحرب. وبعد ذلك بفترة طويلة، أخبرتني أمي أن جدتي كانت يهودية. لم تُرسَل أمي إلى المعسكر لأنها قضت طفولتها مع أبي. مع ذلك، كان لديها طوال وقت الحرب حقيبة صغيرة جاهزة تحوي الأشياء الأساسية، تحسّباً. لأنه لا أحد يعلم أبداً.

تقول أمي: «لقد تركوا لأمي ساعة واحدة فقط لتجمع أشياءها».

كان لوالد أمي، جدي أنطون، متجر قطع أثاث. ليتحاشى تصفية متجره من قبل النازيين، تظاهر جدي ما إن دخل الألمان أنه طلّق جدتي، وبذلك أنقذ تجارته، ليس لوقت طويل مع ذلك، إذ استولى عليها الشيوعيون في ما بعد، لكن لم يكن بمقدوره إنقاذ زوجته.

لم تغفر له أمي قط تلك المقايضة الخاسرة وغادرت المنزل ما إن أتمت

الثامنة عشرة. تزوجت بعد ذلك بعامين. تزوجت شيوعياً عمداً، ليس يهودياً ولا مسيحياً بل رجل يؤمن أن الدين أفيون الشعوب.

جدي أنطون أيضاً لم يغفر لنفسه هذا الطلاق أبداً. حين أمره الشيوعيون بترك متجره الذي صادروه، لم يجد سبباً للبقاء على قيد الحياة. ذهب إلى المخزن، جلس في مقعد بذراعين من ماركة ثونيت جديد تماماً وأطلق النار على نفسه. لكن ذلك كله كان قبل أن أولد أنا بوقت طويل.

تعيش أمي على مقربة مني وبوسعي أن أذهب إليها سيراً في شوارع تصطف على جانبيها الفيلات. أمرّ في طريقي بالفيلا التي عاش فيها كاتبي المفضل كارل تشابيك[1]. كان رجلاً صالحاً وساحراً في الكلمات. أتوقف عند بابها كأنني أتوقع، بطريقة ما، أن روحه ما زالت تحلّق هنا بعد موته بسنوات طوال. لا توجد إشارة على أرواح تحلّق، لكن الأشجار نمت بإفراط. لا بد أنها ظلت تنمو منذ موته لأنها كانت صغيرة حين رأيتها أول مرة. كتب لحبه الحقيقي والأوحد في حياته يقول: حبيبتي. أرجوكِ تعّلمي أن تكوني سعيدة. من أجل الرب. هذا كل ما أتمناه لكِ، ليس بوسعك منحي شيئاً أجمل من حبك سوى سعادتك.

هذا شيء لم يكن كارل ليكتبه لي أبداً، رغم زعمه بأنه يحبني. في الأيام التي كان ربما ما زال يحبني فيها حقاً.

لماذا يموت الطيبون صغاراً جداً في حين يتدبر الأوغاد أمرهم للعيش طويلاً جداً؟

الطيبون يعانون أكثر لأنهم يأخذون معاناة الآخرين في قلوبهم. لا أعلم إن كنت من الطيبين أم لا، لكنني حظيت بأكثر من نصيبي من المعاناة.

---

(1) Karel Capek (1890– 1938)، كاتب مسرحي وروائي تشيكي، أول من قدم كلمة روبوت بمعنى الإنسان الآلي في مسرحيته الشهيرة آر يو آر. من أعماله: المرض الأبيض، المطلق بوجه عام، والأم.

أسير في الشوارع الضيقة حتى أصل إلى الشارع الذي ظل معروفاً باسم روسكا منذ أن وعيت على الحياة. ظل اسمه كما هو لم يتغير تحت جميع الأنظمة، خلافاً لما حدث لأسماء شوارع أخرى كثيرة. هنا جِئتُ إلى العالم، في شقة بغرفتَي نوم، ببناية سكنية أمامها حديقة صغيرة وخلفها أخرى أكبر منها قليلاً. على الجانب الآخر من الشارع فيلّات يفصلها عن الشارع شريط من العشب بصفين من أشجار الليمون. في تلك الأيام كانت قمم الأشجار تتدفق بصداح طيور الذعرة، ولاقطي الذباب، والنغرة، والبرقش. كان الصداح يغيب من حين لآخر وراء الزعيق الملحّ لسيارات الإسعاف وهي تمر مسرعة بين الأشجار في طريقها إلى المستشفى القريب. أثاث الشقة رخيص، مصنوع منذ الحرب، لكنه من خشب حقيقي على الأقل. ليس على الجدران صور. كان لدى أبي بورتريه بالألوان للينين يضعه أعلى المائدة، ولدى أمي صورة فوتوغرافية بالألوان في إطار لجدتي إيرينا حين كانت تلميذة. يبدو الشبه بينها وبين ماري بيكفورد، معاصرتها الشهيرة، واضحاً، بذقنها وأنفها الحادتين. شعرها في الصورة أشقر بلون الفراولة. لم أسأل أمي أبداً ما إذا كان شعر جدتي بنياً أحمر فعلاً، لكنني آمل ذلك، لأنني أحب الصُّهب.

فقد شعر أمي لونه بالفعل. كان بلون الفراولة مثل شعري، لكنه صار الآن أبيض. ما زالت ترتدي السواد رغم مرور ستة أسابيع على موت أبي. يجب أن يستمر الحداد لعام على الأقل - هذا ما أتذكره من محاضرات علم النفس. هل أشعر بالحداد؟ لا، ليس بأكثر من المعتاد. كأن أبي لم يكن من أهلي قط، كأنه كان جزءًا من عالم آخر. لا. كان من العالم نفسه، لكنه من زمن مختلف. يميل الآباء للعيش في زمن مختلف - بعضهم على الأقل. لكن ما من سبب يدعوهم لهذا، إذ ما معنى عشرين أو ثلاثين عاماً رغم كل شيء؟ هذا ما كان سيقوله زوجي الأوحد والوحيد. مجرد لحظة ليست ذات شأن مقارنة بالزمن الكونيّ.

تقول أمي باكية: «ماذا سأفعل بكل تلك الأشياء؟». تفتح خزانة مكتظة

بملابس قديمة تنبعث منها الرائحة الكريهة لكرات النفتالين، وأكتشف مذعورة أن الزي الرمادي للميليشيا الشعبية ما زال معلّقاً فيها. لم يتخلّ عنه حتى. كأنه أراد لعاره أن يبقى من بعده[1]. هكذا كتب كاتب لم يقرأه أبي أبداً[2]. كنت أقرأه لأنه كان ممنوعاً، ولأنه يميل للحزن والوحدة أيضاً. وكان يخاف من أبيه ومن المستقبل. ربما كان يخاف أيضاً لأنه كان يهودياً مثل جدتي إيرينا التي ماتت على نحو فظيع في غرفة غاز قبل ميلادي بعشر سنوات. ربما انتهى به الأمر هناك هو الآخر لو لم يمت صغيراً. أسأل نفسي هل كانت جدتي تخاف من المستقبل أيضاً. هل كان بوسعها تخيله؟ هل بوسع أحد ذلك حقاً؟

- «أتظنين أن بإمكانك استخدام أي منها؟».

- «لكن يا ماما، ما من رجل يعيش معنا».

- «أعلم، لكن ربما بوسعك تعديلها».

أجيبها وأنا أشير لزي الميليشيا: «نعم، هذا على وجه الخصوص».

- «هذا كل ما ترينه دائماً. أبوك كان هكذا من البداية، لم يكيف أحواله بين ليلة وضحاها كما فعل كثيرون غيره». ثم تضيف وهي تشير إلى بذلة سوداء سمعتُ قِصّتها مئات المرات من قبل: «لقد طلب صنع هذه خصيصاً لزفافنا».

- «أعرف».

- «إنها من الصوف الخالص. كان الصوف صعب المنال في تلك الأيام».

تفرز الملابس ثم تضيق ذرعاً، ليس بوسعها رميها بالإلقاء بها، أليس كذلك؟ لكنها لا تعرف أحداً قد يستخدمها. أشعر من وراء ضيقها هذا بتأنيب لي لأنني وحدي، لو كنت تمسكت برجُلي كما فعلت هي، حتّى النهاية، حتى وإن كان معنى هذا العبودية، كنت سأحمل له الآن صرّة من أسمال قديمة بالية لا نفع منها.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

(2) المقصود فرانز كافكا في روايته (المحاكمة).

أخبرها أنني سأساعدها في فرزها، وسآخذ ما يمكن استخدامه منها لمتجر مؤسسة خيرية أو ملجأ متشردين. فتسألني: «وماذا عن الزيّ؟ أتظنين أن متحفاً قد يأخذه؟».

- «لا بد أن لديهم حمولة شاحنة من هذا الزيّ. وواحد فقط يكفي لعرضه للأجيال القادمة».

أتخيل بطاقة العرض: «الزي الموحّد للميليشيا الشعبية. القوات المسلحة للطبقة العاملة. إهداء من ورثة المرحوم ألوا نوراك». تسأل أمي: «ماذا سنفعل به إذاً؟».

- «مزّقيه واستخدمي مُزقه. كان عليك فعل هذا منذ زمن طويل».

صادف وولدت في اللحظة التي كان فيها ألوا نوراك وآخرون من شاكلته يتوجّسون شراً - بطبيعة الحال - إذ كان الرسول الصغير يخلّص العالم أخيراً من الطاغية السوفيتي. أخبرتني أمي كيف نظرت من نافذة عنبر الولادة، وهم يحملونني إلى الخارج وأنا أصرخ، فأذهلها منظر علم أسود يرتفع ببطء على صارية العلم. بعد ذلك بثلاثة أيام جاء أبي لزيارتها لأول مرة. كان يرتدي زِيّه، وكان من حين لآخر يروح يبكي. سأل أمي وهي تريه الطفل، أو بمعنى آخر أنا: «ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنعيش؟». لم يكن يقصد بسؤاله اليائس كيف سيعيش الآن وقد صار أباً، بل كيف سيعيش بعد أن مات الطاغية وتركه يتيماً. كان ذلك إهانة لي في يومي الثالث في هذا العالم الذي لم يخامرني الشك فيه قط. لقد كان بارعاً في إهانة الآخرين أو جعلهم يشعرون بالذنب.

- «كريستيانا! لم يكن بوسعه نسيان هذا أبداً».

أجبتها: «أوه، نعم، كان بوسعه»، من دون أن أضيف إنه مات الآن، وذهب إلى الأبد، وأن عليها أن تكف عن الدفاع عنه على هذا النحو الاستعبادي. لكنها تستخدمه فقط كذريعة، لأنها لم تمزّق شيئاً ما زال بالإمكان استخدامه في حياتها أبداً. تركت الحرب آثارها عليها. كانت دائماً تشعر بالذنب تجاه أقاربها الميتين حين تضطر لشراء ملابس جديدة لنفسها. لمرات لا تحصى

سمعتها تقول: «لم أبق على قيد الحياة لأدلّل نفسي». لذلك كنت دائماً أشعر بالذنب كلما استمتعت بشيء جديد.

تقول أمي فجأة كأنها تذكرت لتوها: «لقد كتبوا في الجرائد أن الحليقين قاموا بمظاهرة وكانوا يهتفون يحيا النصر، والأمن الوطني تركهم». لم تعتد أمي بعد على واقع أن لدينا الآن، ومنذ تسع سنوات، قوات شرطة عادية - أو على الأقل نحن ندعوها هكذا.

- «لا تقلقي، لا أحد سيبعث هتلر إلى الحياة مجدداً».

- «لست قلقة على نفسي بل عليكما. الرب وحده يعلم ما ينوون».

أمسّد شعرها قائلة: «لا تقلقي علينا. لقد تغير العالم».

تحدثت مؤخراً فقط عن قلقها الذي ظل بداخلها منذ صغرها. لم أكن أعرف شيئاً عنه لأنها لم تفصح عنه أبداً. بل كانت على النقيض تماماً، مفعمة بالحياة ولا يكّدرها القلق أبداً. عملت لسنوات في مكتب الإسكان بالبلدية كمسئولة صيانة، ما يعني أنها كانت تتعامل مع العمّال على نحو دائم وكانت من حين لآخر تأخذني معها. ومع أنني أميل للانطواء حين أكون وسط غرباء فقد كنت أحب طريقتها في محاورتهم وفي الضحك معهم قليلاً. وفي البيت أيضاً، خصوصاً حين يكون أبي في الخارج في اجتماع ما، وكان هكذا دائماً، كانت تُضحكها أشياء كانت في الأغلب لتزعج والدي.

تقودني إلى خزانة مليئة بالكتب وتقول: «وماذا عن تلك؟».

- «لا داعي للتخلص من الكتب، فلن تأكلها العث أليس كذلك؟».

- «كتبه؟ لن أقرأها أبداً أليس كذلك؟».

نعم، بالطبع، كتب رموز السوفيات بأغلفتها الرمادية المملّة كاللغة التي كُتبت بها؛ نجمة حمراء فوق كل عنوان ترمز للدم المسفوك من أجلها.

تتذكر أمي: «أوه نعم، وثمة خطابات وأشياء شتى، وخطابات منكِ».

لا أتذكر أني كتبت لوالدي خطاباً أبداً. لكن يبدو أني قد فعلت. ربما كتبت له من معسكر الطلائع.

- «بالإمكان تركها هنا، أليس كذلك؟».
- «أكوام من الخطابات والمذكرات».

كان أبـي صانـع أقفـال، لكنـه لـم يصنـع الكثيـر منها فـي حياته لأنـه كان مسـؤول تربية سياسـية وكان يتلقى راتبـاً عن منصبه هذا، لذلـك كان عليه أن يُلقي خطابات. لم أسمع أو أقرأ واحداً منها من قبل لكن بوسعي تخيّلها جيداً بعد أن سـمعت الكثير غيرها. كانت كلها الشيء نفسه. ملل رمادي بليد ومثير للرعب مع ذلك، لأن شبح تلك النجمة الدموية يحلّق فوقه.

- «حزمت لك هذه الأشـياء. ظننت أنكِ قد تودين اكتشـاف شـيء ما عن والدك، فهو لم يكن فظيعاً كما ظننته».
- «ماما، ماذا عسـاي سأكتشـف؟ لقد عرفته لخمسـة وأربعين عاماً، وكان كل عـام يـوم عيد ميلادي يُشـعل شـمعة لذكـرى قاتل لـم يره أبداً. ويشـتري القرنفـل الأبيض ليضعـه أمام تمثاله النصفـي القابع على مكتبه. لم يشـتر لي زهوراً سـوى ثلاث مرات تقريباً في حياتي كلهـا. وبالطبع كانت قرنفلاً لأنها زهور الرفاق على نحو ما».
- «لقد مرت أزمنة منذ أن فعل شيئاً كهذا».
- «حقاً؟»، لا أقول لها إن هذا ربما لأنه بات يضن بثمن الشمعة والزهور. في السنوات الأخيرة لم يرسل لي ولو زهرة واحدة حتى. في الحقيقة لم يكن يزورنـا. حتـى في أيام عيـد ميلادي؛ كان فقـط يتصل ويتمنى لـي النجاح. لا أعـرف مـاذا كان يقصـد بهذا، أكان يعني مسـتقبلاً باهراً في طب الأسـنان، أم زواجـاً رائعـاً، أم تـاج ملكة جمال العجائـز؟ الأرجح أنه لم يكن يعني شـيئاً. لـم يكـن ثمة حب ضائع بيننا. كانت لنا أوقات جدالنا، مع أننا توقفنا حتى عن هذا. لكننا لم نبدأ في قبول أحدنا الآخر. واضح أن الفتور العاطفي تجاه الأب شيء يسري في العائلة. حاول أن يثنيني عن الزواج من زوجي الأول والأخير الذي كان مطلّقاً مرتين. حذّرني قائلاً: «إنه رجل بلا مُثل».

قلت في نفسي: بلا مُثل! هذا أفضل من مُثلك.

اكتشفت الآن أن الذين بلا مُثل مثلهم مثل الآلات، آلات تردد كلمات وتمارس الحب وتجمع المال، يحطّون من شأن الآخرين ويمجّدون أنفسهم، آلات لدعم ذاتهم الخاصة. كان لأبي مُثل، أقرُّ له بهذا. لعله كان يؤمن حقاً أن وصول حزبه للسلطة سيقضي على الجوع ويعم العدل في العالم. كان مجرد إيمان أعمى إلى حد أعجزه عن رؤية شتى المظالم التي تُرتكب من حوله. هو نفسه حاول العيش بطريقة شريفة ونزيهة حتى. كان لديه بدلة واحدة فقط لأيام الأسبوع، وبدلة الزفاف الشهيرة. وكان، حين يصير الجو بارداً، يرتدي قلنسوته القديمة ذاتها التي ظلّت معه منذ أن كنت طفلة. كان مقتضِباً مع أمي، لكنه لم يهجرها أبداً ولا أظن أنه خانها أبداً. لا أتذكر أنه عانقني من قبل أبداً، لكنه كان من حين لآخر يحكي لي قصصا عن لينين الحكيم أو الطلائع الصغار الذين يحبون آباءهم ووطنهم. نعم، تلك كلماته، لكنني حينها كنت سعيدة لمجرد جلوسه وقضائه وقتاً معي. بعد ذلك فقط، حين غزانا السوفيات ورحّب بهم كمنقذين وليس كمحتلين، صرت على خصومة مع كل ما أشاد به أو صدّق فيه.

رحت بعد أن التحقت بكلية الطب - ما يعود جزئياً لميول طبقية بلا شك - أترك شعري مسدلاً، وأجلس في البارات، وأشرب، وأدخن، وأعقد سلسلة متوالية من العلاقات مع الشباب. فعلت ذلك نكاية بأبي، مع أنه لم يعرف الحقيقة الكاملة أبداً، وشعرت بنوع من الرضا في العيش على طريقتي.

تؤنّبني أمي: «لا يليق بكِ أن تتحدثي عنه هكذا كريستيانا، لم يكن سيئ النية في أي شيء، إن ستالين، أو الروس بالأصح، أنقذوا حياته. لو كانوا قد تأخروا يوماً واحداً لكان لقي حتفه».

- « هذا ما جعلكِ تعتقدينه».

- «لا، هذا هو الأمر. لقد أراني صوراً أخذت له بعد عودته من المعسكر. بدا كهيكل عظمي. هيكل عظميّ مكسو بالجلد».

- «لم يمنعه هذا من المساعدة في معسكرات الاعتقال هنا».

- «لم يساعد أبوك في أي معسكرات اعتقال قط».
- «ربما هو لم يفعل، لكن حزبه فعل».
- «أبـوك قاتَـل الألمان، عليـك احترامه من أجل هذا علـى الأقل، بعد أن علمتِ ما فعلوه بأمي».

لا يجـوز لي تعذيبها بهذا الحديث. حتى فـي الأيام التي كنت أحاول فيها إغاظة أبي بسـلوكي كانت هي الوحيـدة التي أؤذيها. ما كان أبي ليلاحظ ما لا يؤثر على شخصه هو، أو على مستقبله.

أجلـس بجانـب أمـي وآخذ يدها: «يجب أن تتوقفي عـن التفكير فيه طوال الوقت».

- «وفيمن أفكر إذاً؟».
- «لديك نحن، أليس كذلك؟».

أعني بنحن: ليدا، شـقيقتي المُغنية التي تعيش فـي «طابور» بالجنوب ولا تزورها سـوى أربـعِ مرات في العام. وجانا بالطبـع، حفيدتها الصغيرة الحلوة التي تحوّلت مؤخراً إلى مخلوقة وحشـية. غنّت في جنازة جدّها - ليس نشيد الأمميـة الذي كان سـيطلبه منهـا بالطبع بل الأغنية الروحية «اثنتا عشـرة بوابة للمدينة»- وأنا، المرهقة وخائرة القوى والخاوية: إناء بلا زهور.

أحمل صندوق أوراق أبي وأحضن أمي وأقبّلها.

الصنـدوق مغلّف بـورق عيد الميلاد ومربوط بشـريط ذهبي. يزن عشـرة أرطال على الأقل.

3

لـم يمـضِ نصف النهـار بعد وقـد عُدت إلـى البيت مجدداً. أسـرعت في العـودة لأعـدّ لابنتي الغداء، رغم أنها في سـنها هذه تسـتطيع، بل وحريٌ بها، أن تُعِدَّ لأمها الغداء.

مـن غرفتهـا الصغيرة يصدر صـوت قرع الطبـول. لديها جهـاز طبول من طبلتيـن تتـدرب عليه لتعاسـة حـظ الجيـران. تداعب أوتـار الجيتـار بطريقة معقولة أيضاً، وتشـغّل جهاز التسـجيل، ولها صوت لطيف في الغناء. منذ أن صارت في المرحلة الإعدادية توقفت عن الذهاب للكشـافة، وبدأت بدلاً من ذلك تغني وتعزف في فرقة موسـيقية تسـمَّى أبناء الشيطان. دعتني منذ وقت قريب لأسمع عزفهم. كانوا يؤدون في مرقص بار خارج براغ. كان باراً بشعاً. أكأبني عزفهم ثم قزّزني. حين سـألتني بعد ذلك عن رأيي، لم أخبرها أن تلك موسيقى مريضة لأرواح ضائعة، بل أشدت فقط بخلوّ عزفها من الأخطاء.

أيـن تلك الأيـام، حين كانت تتجوّل ببراءة على لـوح تزحلقها في ممرات المتنـزَّه المحلي الصغير بصحبـة ثلة من أطفال آخرين يثيـرون ذعر أصحاب المعاشات بوداعة؟ يقولون عنها ما لا يسرّ في المدرسة. رسبت في امتحانات منتصـف العـام فـي الرياضيات وكادت أن ترسـب فـي الكيميـاء، بالرغم من موهبتهـا التـي ورثتها في هاتيـن المادتين إلى حد أنها منـذ وقت قريب كانت تساعد زميلاتها في الفصل فيهما. لكنها الآن فقدت اهتمامها. تقول إنها تريد أن تركّز في الموسـيقى. وحسب تفكيرها، كل ما يحتاج الموسيقيون لمعرفته هو الموسيقى.

علـيّ أن أتخذ موقفاً ضد ضجيج الطبل والجيتار، وضد تكاسـلها. لكنني رغم كل شـيء كنت أحب العزف على الكمان، قالـت معلمتي إنني موهوبة، ولـو لا فقـدي الكمـان أو بالأحرى عِنـاد أبي الأحمـق لربما كانـت مهنتي قد اختلفت. بدلاً من الوقوف بجوار كرسي المرضى لثماني ساعات يومياً.

أجـول بنظري في غرفتها. تجلس على فراشـها غيـر المرتَّب بقميص نوم فقـط. ما زال سـروالها الجينز أعلـى كومة ملابس على الأرض وسـط أوراق مبعثرة - نوتات موسـيقية في الغالب. الكتاب - الذي كان على الكرسـي هذا الصبـاح - سـقط على الأرض، وعليه شـريحة خبز مأكولٌ نصفهـا؛ لا بد أنها تكبدت عناء رحلة الذهاب إلى المطبخ.

- «أهذا كل ما فعلتِه وأنا في الخارج؟».

- «وماذا في ذلك؟ اليوم السبت ماما». تبدو في حالة مزاجية جيدة. تضع عصاتَيْ الطبل وتعلن أن لديها موعداً مع كاتيا ومارتا بعد الظهر.

- «مع هؤلاء البونكس؟».

تومئ برأسها.

- «جانا، أنا لا أحب الزمرة التي تتجوّلين معها».

- «إنهم أصدقاء جيدون جداً».

- «كيف ذلك؟».

ترفع كتفيها وتقول بتردد: «بكل الطرق».

لا تقول كيف يقضون وقتهم في إقناع أحدهم الآخر أن عليه أن يحتقر المدرسة والعمل، ومن يضيّعون وقتهم في العمل وخاصة أبويهم. والداهم ينفقون عليهم بالطبع، لكنهم في ما عدا هذا ليسوا سوى عقبة تعوقهم عن العيش كما يحلو لهم.

تُفضّل أن نغيّر الموضوع. «هل تظنين أن الغداء سيكون جاهزا في الوقت المناسب؟».

- «هل أنتِ في عجلة من أمرك؟»

- «بودي أن أغادر في الثانية. أو بالأصح، عليّ أن أغادر في الثانية».

- «وفرضك المدرسي؟».

- «اليوم السبت ماما».

- «نعم لقد أخبرتني بهذا من قبل. متى تنوين العودة؟».

- «لكنني لم أخرج بعد». تقولها بتبرّم.

لا أخبرها أنني سأكون أسعد حالاً إن لم تخرج على الإطلاق. لأنني حينها سأراها متى شئت.

- «يجب أن تزوري والدك».

- «بالطبع. سأذهب لأراه في وقت ما».

- «لا تؤجلي هذا. لماذا تمتعضين هكذا؟».
- «أنا مذهولة أنك أنتِ من دون الجميع تعنين بالأمر».
- «أبوكِ في حالة سيئة».
- «لم يكن في حالة جيدة أبداً، أليس كذلك؟»
- «أنا أتحدث عن صحّته، هل تدركين أنه خضع لعملية جراحية صعبة؟».
- «أوكيه، ربما سأمرّ عليه غداً. وسأسرق له وردة من المتنزَّه».
أطلب منها مغتاظة أن توفر ظُرْفها لشيء آخر.
- «نعم. معكِ حق. هذا لا يجوز. سأشتري له وردة أو ربما لن أشتري له شيئاً بالمرة. لكنني بالتأكيد سأمر لزيارته غداً». وتنهي الحديث بأن تبدأ العزف على الجيتار.

هذا ما هي عليه هذه الأيام، تجلس هناك كأنها ملكة سبأ، لم تفعل شيئاً منذ الصباح، فقط تفقد الجيران صوابهم بقرع طبولها. وتسخر من حماقة أبيها المريض والآن تستعجلني لإعداد الغداء. أنا أُنهك نفسي منذ طلوع النهار وحتى الليل من أجل هذه المخلوقة الأنانية.
- «ارتدي ملابسك فوراً! وبعد أن ترتّبي غرفتك من فضلك قشّري البطاطس».

تتصنع وجهاً مطيعاً أو مذنباً حتّى، وتقول: «من أجلك أنتِ سأفعل أي شيء مامي».

أعرف أنه مجرد تمثيل. هذا الإذعان والود. إنها تلهو بتجسيد دور الحب البنوي فقط لأحلّ عن سمائها وأكف عن إزعاجها وقت استرخائها. لكن يجب أن تحظى بتأنيب مزعج بين الفينة والأخرى على الأقل. إنها بحاجة لأب لتقويمها. لن أصفعها. لم أستطع صفعها أبداً حتى وهي صغيرة. فات أوان ذلك الآن: بالنسبة لأبيها، لا يعنى بشيء الآن سوى مرضه، وبالنسبة لها: ستُتم السادسة عشرة قريباً ولن يُجدي الضرب في إعادتها للصواب.

تصيح بعد أن أغادر غاضبة:
- «سآتي لتقشير البطاطس حالاً».

4

غادرت فتاتي الصغيرة في الثانية بالضبط. كان عليّ أن أبقيها في البيت وأصرّ على أن تنجز فرضها المدرسي قبل الخروج. بالطبع، المدرسة ليست مهمة. لترسب، لكن على الأقل لتعرف السبب، تعرف لماذا رسبت، أو على نحو أكثر دقة لماذا تعيش. لكن من منا يعرف لماذا يعيش؟ لو كنت أنا نفسي أعرف على وجه اليقين لحاولت إرشادها، رغم شكّي في قدرتي على هذا.

لم يمضِ وقت طويل منذ أن كانت فتاة صغيرة حسنة الخُلُق بضفيرة. نحيفة وجميلة ومطيعة: حتى أبي كان يحبها. أصرّت ذات مرة، حين كانت لتوها قد تعلّمت المشي، أن تذهب لتمشي معه، فسار بجانبها في المتنزه ككلب مطيع. كان المطر قد سقط قبل قليل وكانت تقوده بين برك المياه وهي تحرص أن لا يلوّث الطين نعليه.

كانت قد قشّرَت البطاطس على نحو فظيع. تركت نصف القشر والبقع الفاسدة. قدمتها لها كما هي. لكنها لا تلتفت لتلك التفاصيل التافهة.

وعدت أن تعود عند منتصف الليل. سأنتظرها، وسأصرّ على أن تقدم لي تقريراً عن كيف قضت وقتها لبقية اليوم.

إنها تهرب من بيت لم يبقَ منه سوى نصفه. النصف قد يكون أسوأ من لا شيء على الإطلاق.

عملتُ بكدٍ خلال السنوات الست الماضية لدعمها ومحاولة تعويضها عن النصف الآخر، لأكفِّر بطريقة ما عن عجزي عن التمسك بأبيها. مع ذلك كانت من حين لآخر تشكو وتسألني أين ذهب؟ ولماذا لم يعد يأتي إلى البيت؟ كانت تُغرق حزنها بالدموع إلى أن تصل تلك الدموع لمجرى دمي، وحين تصل لقلبي كانت تحرقه كملح على جرح. كنت حينذاك أواسيها وأضعها في الفراش في حين ينمو بكاؤها بداخلي فأظل أبكي طوال ما تبقى

من الليل. لم يكن هناك أحد ليواسيني، لا أحد ليربت عليّ حين يدعني النوم لآلامي.

كانت لي محاولة واحدة فقط في البدء من جديد مع رجل آخر. ولم لا؟ لم أكن حينها قد أتممت الأربعين بعد، وكنت على ثقة من أن بوسعي الهروب من الخبرة التعسة للزواج الأول والنأي بنفسي عن الرجل الذي قضيت معه اثني عشر عاماً. كان اسمه كاسم زوجي الأول وكنت أدعوه تشارلز الثاني، كان لهذه التسمية رنين عدائي ضده تقريباً، وكان هو من جانبه له مظهر عدائي أيضاً، قصير وسمين وله لحية بنّية. إمبراطور بارباروسا. ذهلني كمحب وكحبيب، وظننته قادراً على حب جانا أيضاً. عرّفتني به مساعدتي إيفا. لم يكن سليماً ذهنياً تماماً، كان إمبراطوري يعاني من الصرع، لكن بوسعه تحاشي النوبات ما دام ينتبه لنظامه الغذائي ويتناول الدواء بانتظام، وكنت مستعدة لتولي رعايته. تحدثنا عن إمكانية الزواج بالفعل. رتبنا لعطلة على الشاطئ - شيءٌ ما مثل بروفة لشهر العسل - لم تكن الرحلة سوى إلى شاطئ بحر البلطيق البارد، لكنني كنت أتطلع لرؤية البحر ولأن أكون وحدي معه - رتّبت لجعل أمي تهتم بجانا. وحين كنا على وشك المغادرة أخبرتني إيفا مغمومة أنه ربما كان يخونني. انطلقنا في رحلتنا معاً، لكنني عدت وحدي.

أجلب زجاجة نبيذ مورافيان أحمر وكأس، أجلس على المقعد ذي الذراعين وأشعل سيجارة. ألمح السقف عَرَضاً. ثمة بقعة داكنة ضخمة ظلت عند طرفه، أعلى الحائط الفاصل بين المطبخ وغرفة المعيشة، مرّ عليها أكثر من سنة الآن، منذ انفجار الأنابيب في الشقة التي تعلونا. عليّ أن أُحضر عامل طلاء لكنني أظل أؤجل هذا. عليّ أن أقوم بكل شيء بنفسي وبالكاد يمكنني الوفاء بما على عاتقي من مسؤوليات يومية بالفعل.

عليّ أن أنظر في كتابات أبي تلك.

أمزّق الشريط وغلاف عيد الميلاد وأفتح الغطاء. الصندوق مليء بحزم من الدفاتر المدرسية القديمة، بعضُها أزرق، وبعضها أسود، وواحد وردي،

يوجد دستة منها؛ وعدّة صور فوتوغرافية وقصاصات جرائد قديمة مصفرّة. ينبعث من الأوراق عَبَق. لم أر هذه الدفاتر من قبل قط؛ يستحيل أن يكون قد احتفظ بها في البيت. ربما احتفظ بها في أحد أدراج مكتبه. لكن ماذا عساه دوّن فيها إن كان قد احتفظ بها في مكتبه؟ لم يكن بالسذاجة التي تجعله يظن أنها هناك بمأمن من المتلصصين. اتفحّص قصاصات الجرائد «براغ ترحّب بالجيش الأحمر المنتصر». 10 مايو 1945. كم كان عمره؟ تسعة عشر. «تحياتنا للمارشال ستالين»، كان حينها معتقلاً في معسكر الألمان. لم يكن قد قابل أمي بعد ولم تكن لديه أدنى فكرة عن أنها بعد ثماني سنوات من هذا ستنجب له ابنة وستصرّ على منحها الاسم غير الثوروي بامتياز «كريستيانا». ثمة شيء واحد أكيد الآن، إنك لن تعثر على تشيكي واحد ليس مستعداً لمقابلة الشر بالشر، أو لمعاقبة المذنب والبريء على حدٍ سواء. في تلك الأيام لم تكن أمي قد عرفت بعد كيف ماتت أمها. يبدو أنهم كانوا يتوقّعون عودتها في أي يوم.

حين أخبرتني بما حدث بعد سنوات عجزت عن التخلص من صورة في ذهني لغرفة بأرضية من بلاط وفيها أنابيب ينبعث منها هسيس غاز. استطعت أن اسمع شهيقهم، لو كانت أمي ذهبت مع أمها، كما حدث لأطفال كثيرين، لم أكن لأولد. فكرت أيضاً أنه في عالم بُنيت فيه حمامات ضخمة خصيصاً لخنق الناس لن تعود الحياة لما كانت عليه قبل هذا أبداً.

أفتح أحد الدفاتر: 1958. كُتب التاريخ على صفيحة نحاسية، لكنني لا أشعر برغبة في تصفّحها الآن. أعيدها للصندوق.

الوقت أمامي منتفخ كسمكة ميتة تطفو على سطح بركة. فقط لو كان لديّ شخص ما أتطلع لرؤيته، شخص ما يدق جرس الباب أو يتصل ليقول لي: «كيف حالك يا حمامتي الصغيرة؟».

– «الحمامة الصغيرة» هكذا اعتاد سايكو، صاحبي الأول، أن يدعوني. كم مضى على هذا؟ أكثر من طرفتين لعين الرب.

قال زوجي الأول والوحيد، إن طرفة واحدة لعين الرب قد تستغرق اثني عشر عاماً. كان ذلك في جدالنا حول طلاقي الأول وطلاقه الثالث. كنت قد انفجرت في البكاء لفكرة أنه يريد تركي بعد اثني عشر عاماً - أو أربعة عشر حقاً بحساب السنتين اللتين قضيناهما معاً قبل الزفاف- بعد كل الوقت الذي قضيته في خدمته، أرعاه، وأرقد بجانبه ليلة بعد أخرى. سألته مذهولة: «هل بدأت تؤمن بالرب؟».

- «لا، إنه تعبير دارج. ما أعنيه هو قياس زمننا مقارنة بالزمن الكوني. غير أن الزمن الكوني ليس له عينان».

لم أخبره أن الرب أيضاً، إن كان موجوداً، فلن تكون له عينان.

لم تتجاوز الساعة الثانية والنصف بعد. أملأ دلواً بالماء وأمسح أرضية المطبخ، حاملة معي كأسي.

حين أعود لغرفة المعيشة أُشغّل المسجل. سيمفونية تشايكوفسكي السادسة، لكنها حزينة للغاية عند الثانية والنصف بعد الظهر، فأستبدلها بكونشيرتو كمان من تأليفه.

دعوته سايكو لأنه كان طبيباً نفسياً تحت التمرين. كان وسيماً جداً - أسمر كأنّ الشمس لوّحته للأبد. كان يجمع شعره الأسود للوراء في ذيل أرنب، وهذا كان مغايراً للغاية تلك الأيام. كان يحمل المخدرات في جيوبه ويرحّب بمشاركتها مع الآخرين. عرض عليّ حشيشاً وفِطراً سحرياً وميسكالين[1]، لكنني رفضتها كلها. كنت أخاف المخدرات. لم يكن لديّ مانع من إيذاء نفسي، لكنني لم أحبذ فكرة أن أفقد نفسي الوعي أو أن لا أكون نفسي.

كانت نظرة عينيه تقلقني وتثيرني كذلك. نظرة غريبة، ثاقبة وفاجرة، كنت أشعر بأنني عارية أمامها حتى وإن كنت أرتدي معطف فرو.

ثم حدث ما كان مقدراً أن يحدث لي لاحقاً عدة مرات أخرى. في المرة

(1) عقار مخدر يُري الخيالات والأحلام كأنها حقيقة.

الأولى ترددت، لم يكن بودي قتل طفلي، لكن الطبيب النفسي الواعد لم يرغب في أن يصبح أباً. كان يعتبر ذلك عقبة في سبيل مستقبله المهني، كأن المستقبل المهني قد يضحى أهم من الحياة. كان على استعداد للزواج بي شريطة أن لا أرغب في الأمومة. كان ذلك شرطه. أقنعني بأن أجهض الحمل. بعد ذلك لم أرغب في رؤيته مرة أخرى.

الغريب أنني لم أدرك من سيكون زوجي المستقبلي رغم وقوع الحادث نفسه معه. كنت أريده بشدة إلى حد أن تحمّلت هذا الأمر من أجله، لكنه ظل جرحاً مفتوحاً لمدة طويلة بعدها (ليس جرحاً نفسياً، بل فكري)، ولم يندمل حقاً منذ ذلك الوقت.

يودي[1] كبير في السن قليلاً بالنسبة لي، لا بد أنه كان في الثمانين من عمره حين سجّل هذا العزف، لكنني بوسعي حب كبار السن أيضاً؛ جاء زوجي الأول والوحيد إلى العالم قبلي بحوالي طرفتي عين للرب، لكنه لم يتعلم العزف على أية آلة ولا حتى الهارمونيكا. في حين كان هذا الفارس الإنجليزي يعزف كونشيرتو ميندلسون في سان فرانسيسكو وهو في السابعة من عمره.

في البداية كرهت الكمان لإنها كانت تستنفذ الوقت الذي أقضيه في اللعب مع دميتي، كانت دمية عادية للغاية (بعينيْن زرقاوين مثل عينيّ) وبدت لي ممتلئة بشكل معقول، إذ كان ذلك قبل مجيء باربي ذات الساقين النحيلتين إلى العالم. كانت الدمية شقيقتي الحقيقية - وليس تلك الشقيقة التي يثير الجميع ضجة بشأنها ويشعرون بالحزن عليها لأنها دائماً مريضة وضعيفة ونظرها قصير. لطالما وددت أن يكون لي شقيق وليس شقيقة على كل حال.

---

(1) المقصود يودي مينيوهين (Yehudi Menuhin 1916-1999) عازف كمان ومؤلف موسيقي أمريكي المولد، قضى معظم حياته في المملكة المتحدة وحصل على جنسيتها 1985، ويعتبر أحد أعظم عازفي الكمان في العالم في القرن العشرين.

حين كنت في الثالثة من عمري كان عليّ أن أحضر دروس الكمان ثلاث مرات أسبوعياً، بالإضافة للتمرّن في البيت. كانت معلمتي تشيد بي، وأخبرتني ذات مرة أنني أفضل تلميذة لديها. لذلك بدأت أضع في اعتباري إمكانية أن أصير عازفة كمان. سحرتني الفكرة لوقت وكنت أتخيلني في قاعة موسيقية كبيرة كتلك التي شاهدتها في التلفزيون. سأرتدي ثوب سهرة جميل من المخمل الأزرق الداكن وسأعزف موسيقى بيتهوفن. سيكون عزفي رائعاً حتى أن المايسترو سينحني لي ويقبل يدي ويأتونني بسلال الزهور من وراء الستار.

رحت أتمرن بعزم، وبالرغم من تواضع إمكانيات كماني ظل أبي يشكو من ثمنه الباهظ مقارنة «بتشحيطي».

انتهى عزفي نهاية مؤسفة. نسيت كماني في مكتب البريد حيث أرسلتني ماما ذات مرة لأرسل لها خطاباً. كان هناك طابور أمام المكتب، فوضعت الكمان على رف منخفض ملتصق بالحائط، لابد أنه كان لدى السيدة التي تقف أمامي في الطابور، مازلت أذكرها، في حوالى الأربعين من عمرها، المئات من الخطابات التي تريد إرسالها. وكنت مرعوبة من فكرة التأخّر على المدرسة. لذلك ما إن سلمت خطابي أخيراً حتى حملت حقيبة المدرسة وانطلقت من دون أن أنتبه للكمان. بعد حوالى ربع الساعة عدت إليه مسرعة لكنه كان قد اختفى ووصلت متأخّرة عن موعد المدرسة.

في المدرسة عذرتني المُدرّسة حين أخبرتها بما حدث لي، لكن أبي لم يغفر لي قط، وكان دفاع أمي عني بلا جدوى. لم يضربني، ولم يؤنّبني، لكن لم يؤثّر فيه حزني لفقدان الكمان. لقد ارتكبت جرماً لا يُغتفر: من يطمح لأن يصبح عازف كمان لا يترك آلته في مكتب البريد ولا في القطار، ويطلبها وهو على فراش موته ليربّت عليها ولو بعينيه على الأقل. هكذا شرح لي أبي الذي لم يسبق له أن ربَّت عليّ مرة واحدة في حياتي. لم أحصل على كمانٍ آخر. ولم أحضر دروساً أخرى.

كان بوسعي أن أشتري لنفسي كماناً آخر منذ وقت طويل، لكن ما الجدوى وقد نسيت كل ما تعلمته؟ صرت الآن أستخدم في عملي مثقاب أسنان بدلاً من القوس، ولعلني أستمد به نفس القدر من الرضا أو أكثر حين أقوم بإنقاذ ضرس أحدهم أو أخلّصه من الألم - حتى وإن لم يتبع ذلك تصفيق جمهور. يميل مرضاي لإهدائي بدلاً من سلال الزهور زجاجات خمر، أو أقراصاً محشوّة مخبوزة في البيت، أو ورقات نقدية في مغلّف. تُحضر لي إحدى الممرضات في المستشفى علبة محقنات تحت الجلد، وأحياناً تحضر لي فعلاً مَجْلة مورفين أو دولسين إن كانت بحاجة إلى خدماتي. أنا على ثقة من أنها تسرق هذه الأشياء من المستشفى. أرفض قبولها دوماً لكنها تترك الصرّة على المنضدة فقط وتذهب.

فرغ يودي من التربيت عليّ. لطالما تقت إلى العيش مع رجل عطوف وحساس يعرف كيف يربّت عليّ، يصغي لي، يحميني، ولا يخونني. الأحلام الرخيصة لبطلات المسلسلات التليفزيونية.

أعتقد أن هذا النوع من الرجال غير موجود.

وإن وُجد، فما فُرَصي في لقائه، وإن التقيت رجلاً من هذا النوع فما فرصي في أن يحبني؟

ما زال بوسعي سماع الموسيقى تتردد في داخلي: النغمة الرئيسية في الافتتاحية سريعة، قرأت ذات مرة في كتاب عن تشايكوفسكي أنه حاول هزيمة الحزن بقوة الإرادة. كأنّ بالإمكان دفع الحزن عن روح المرء. أشعر بأنه كان يعبّر أكثر عن التعاسة التي لم يجدِ كبتها. كانت الشغف[1] آخر صرخاته. أمُتُّ لتشايكوفسكي بصلةٍ ما. كان يحب أمه مع أنه فقدها في سن مبكرة، ولم يكن يحترم أباه كثيراً. كان بالقطع رجلاً حساساً، وعطوفاً أيضاً، لكنني، كامرأة، لم أكن لأحظى بفرصة معه. لم أقتنع سوى بواحدة فقط من بين القصص التي تتردد عن موته، تلك التي تقول إنه تناول سماً.

---

(1) اسم سيفونية تشايكوفسكي السادسة.

أنا ومساعدتي إيفا نسمي الانتحار خلع الذات، مع أنها لم تكن لتفكر في شيء من هذا القبيل أبداً. خَلعُ المرء نفسه من حياته أو نفيَّه لذاته.

تزوجتُ رجلاً لم يكن حسّاساً ولا عطوفاً. كان في البدء يربّت عليّ، لكنه لم يصغِ لي ولم يحمني أبداً. وفي النهاية خانني.

ربما كنت أتوقع هذا، أو كان عليّ أن أتوقّعه. خانني مثلما خان زوجتيه السابقتين بالضبط. لا أعرف كم عدد النساء اللواتي خانهنّ، ولم أعد أكترث. لكن كان عليّ أن أفكر ملياً في هذا الأمر حين عرفته لأول مرة.

حين يتعوّد المرء على الكذب يصعب عليه قول الصدق. ومن يهجر مرة يسهل عليه الهجر المرة التالية. إنه لمحض غرور أن يتخيل المرء أن بمقدوره تغيير شريك حياته وطرد كل الشياطين من روحه. اعتدت أن أسأل نفسي لماذا تركني رغم أنه عجوز شائب وأنا شابة وجميلة؟

لأن هذا طبع الرجال. كتبت فيرجينا وولف: يبدو أنه حكَم كل شيء ما عدا الضباب، لذلك ثار غضباً.

فكرت فيرجينيا التعسة أن المرأة إن أرادت أن تغدو نداً للرجال فهي حتماً ستجنّ أو ستنتحر. وقد حدث لها الأمران. يبدو أنها كانت في نوبات جنونها تسمع تغريدات طائر الزرزور باليونانية. حاولت الانتحار بالقفز من النافذة، ابتلعت أيضاً مئات الحبوب المنومة، لكنهم كانوا ينقذونها دائماً. اضطرّت في النهاية أن تطلب العون من المياه. رغم أن حياتها كانت سهلة على نحو لا بأس به، كذلك كان زوجها، بحسب ما تفيد جميع الشهادات، عطوف ومحبّ. من لم يختبروا حزناً يمزّق الروح ولو مرة واحدة فقط لن يمكنهم فهمه قط.

أرشفُ النبيذ وأنفث السيجارة. ربما ما زلت جميلة. أخبرني السيد هولي، أحد مرضاي، أن يديّ جميلتان وأنه لعار أن تمسكا بمثقب أسنان.

سألته ماذا يريدهما أن يمسكا، فأجابني: «الأفضل دائماً أن تمسكاني أنا». إنه عجوز في سن زوجي السابق حين قابلته أول مرة. غير أن زوجي

الأول والوحيد لم يكن له كرشاً؛ كان رياضياً. كانت قامته تشبه تمثال رودين، والفضل في ذلك للتزلج والتنس. شعرت حين أخذني بين ذراعيه لأول مرة بإثارة لم أشعر بها من مجرد عناق من قبل أبداً.

قضى معي اثني عشر عاماً، لعامين من هذه الفترة لم يكن مخلصاً لي، بحسب ما اكتشفت. ربما خانني لمدة أطول، لكنني لم أحاول التقصّي. كنت بارعة دوماً في إلقاء شباكي حول الرجال، لكن ليس في الإبقاء عليهم؛ بدا لي دائماً أنني لا أستحق حبهم. لم أخنه قط. أردت أن أعيش بصدق. واردت لابنتنا أن تعيش في جوّ من الحب.

أعرف أنّ الرجال هكذا، يحبون الغزو، وحين ينجحون في غزوتهم يفقدون اهتمامهم. لكن ربما كان عليّ أن أخضع أكثر. أردت أن أعيش حرة رغم كوني متزوجة. كنت من حين لآخر أنكص على عقبيّ وأرفض أن أخدم على النحو المتوقع منّي. كنت أرفض الانصياع للأوامر والأخذ بالنصيحة الجيدة. أتوقف عن التسوق والطبخ وأغرق زوجي بالشطائر. لم أكن أسوأ منه. كيف يحق له أن يطلب مني وضع رعايته على قائمة أولوياتي قبل أنشطتي الأخرى؟ لماذا لم يكن بوسعي قضاء أمسية بعيداً عن رقابته؟ لم يكن بوسعه فهم هذا أو قبوله.

كان من المتوقع من المرأة التي هجرني من أجلها أن ترعاه كأم، لكنها هربت منه رغم كل شيء. بعد خروجه من المستشفى ظل جالساً في حجرة المعيشة يرقب كيف سيعمل جسده الآن بعد أن نزعوا معدته كلها تقريباً، وليس لديه أحد ليسأل عنه أو يعد له كوب شاي.

أغمض عينيّ فأرى أشجاراً مكسوّة بالجليد، تقف كملائكة متشابكي الأيدي أعلى الدرب. دأبنا على السفر إلى الجبال كل عام. كنت أشعر هناك أنني أفضل. أتنفس بحرية وأستمتع بكوني على قيد الحياة.

كنت فقط أُحجم قليلاً عن التزلج. كان هو أفضل منّي فيه.

- «انتظرني، لا تتركني وتذهب».

أجابني حين هبطنا للقاع: «الحياة أيضاً لا تنتظر أحداً».

كان رشيقاً وله ذراعان وساقان جميلتان، لكنه كان أحياناً يبدو عادياً على نحو مرعب: مدرِّس ثانوي ومدرِّب تنس قد يبهر تلاميذه بكلماته المنتقاة[1] وحركاته الرشيقة.

لم يكن باخ عاديا، ولا تشايكوفسكي: كان فقط حزيناً حين جعل البجعات يرقصن حول بحيرة من دموع البشر.

أخيراً يرنّ جرس الهاتف. أقفز ناهضة من المقعد وأكاد أُسقطه. صوت أنثوي مألوف يقدم نفسه ويشكو من وجع ضرس.

- «لكنني في إجازة اليوم، هل جرّبت مسكّناً ما للألم؟».

- «تناولت حبّتين بالفعل وظل ذهني كله غائماً ومع ذلك لم أنم لدقيقة واحدة ليلة أمس».

زوجي هو من أرسل لي هذه المرأة أول مرة. اعتاد أن يوصي بي لأقاربه وزملائه في العمل ومعارفه. ربما لعشيقاته أيضاً. غادر هو لكنهم بقوا. يهجرون شركاءهم لكنهم يبقون مخلصين لطبيب الأسنان. «كان عليكِ أن تأتي أمس».

- «كنت آمل أن يزول الألم وحده».

- « الألم لا يزول وحده أبداً، سيكون عليك الذهاب إلى قسم الطوارئ».

- «لكنني لا أعرف أحداً هناك».

- «ليس بوسعي مساعدتك. فكل ما لديّ هنا كماشة ومثقاب يدوي».

- «وهل يمكنك مساعدتي في العيادة».

أشرح لها أنني أقيم في الجانب الآخر من براغ، بعيداً عن العيادة، لكنها تتوسل إليّ أن أشفق بها لأنهم في الطوارئ سيخلعون الضرس.

الساعة الرابعة عصراً. الجو حار في الخارج. انظر إلى الزجاجة، لقد

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

احتسيت أكثر من نصفها. لا ينبغي أن أقود ولا أشعر بالرغبة في جر نفسي إلى هناك بالمترو أو الترام. لكن إن بقيت هنا سأجلس وأشعر بالأسى على نفسي فقط.

بعد ذلك بساعة كنت قد عالجت مريضة يوم السبت. عرضت أن تقلّني إلى بيتي بسيارتها ودعتني لشراب، لكنني لا أشعر بالرغبة في قضاء وقت أطول معها. أخبرها أن أحد أصدقائي يقيم على مقربة وأنني أفضِّل السير قليلاً. في الحقيقة ليس لي أصدقاء يقيمون بالقرب من هنا، لكنني إن سرت حوالى نصف ساعة تجاه زليخوف سأصل إلى حيث يقطن زوجي الأول والوحيد حتى الآن، حتى يتعافى ربما.

تجنبت رؤيته لسنوات بعد الطلاق. كان حين يرغب في رؤية جانا ويأتي ليأخذها، نحيي أحدنا الآخر وأخبره متى عليه أن يعيدها للبيت. لم يكن ثمة شيء آخر أرغب في قوله له أو سماعه منه.

لكنني الآن نسيت آلامي تقريباً، وما تبقى منها يبدو منسحقاً أمام آلامه التي تقرضه بداخله.

قررت أن آخذ طريق ضفة النهر. السور على الجهة المقابلة مُغرق بوابل من جرافيتي بألوان صارخة. أرى سرب بط يخرج من أجمة أشجار متشابكة. عدة قوارب تجديف تمر مسرعة مع التيار، وعدد قليل من الزوارق المطاطية.

اعتدنا حين كنا متزوجَين حديثاً أن نمارس التجديف، في نهر لوزنيس أغلب الأحيان، لكن أيضاً في سلوفاكيا. كنا نلعب تنس وكنت من حين لآخر أفوز بجولة لكن ليس بمباراة كاملة أبداً؛ لكنني كنت أقاتل بشجاعة، كأنني كنت أريد الفوز حقاً. كنت أعرف أنه يهتم بهذا. بالفوز على الجميع، وعلى كل شيء. يشبه أبي في أشياء عديدة، وليس في شعره الرمادي فقط.

كان زوجي الأول والوحيد - والأخير - يبجّل الفوز. كان يمثل الخشونة، لكنه لم يكن خشناً، رغم كل عضلاته. كان ملعوناً بالخوف. كان يخاف من تلاميذه لأنهم قد يهزأون به؛ ويخاف من ناظر المدرسة لأنه قد يحطم مستقبله

المهني؛ لكنه قبل هذا وذاك يخاف الموت. كان أول ما يرد لذهنه حين يشعر باضطراب معوي أو احتقان في الحلق أو يرى بثرة على ذراعه أنه بداية ورم سرطاني. كان حين يسألني عن تلك الأعراض يشوب صوته قلق ليس بوسعه إخفائه. كان يتوقّع مني أن أنفض عنه مخاوفه وأطمئنه - وهو ما كنت أفعله بالضبط أصف له حبوباً وأجلب له الطعام والشاي في فراشه، وأساعده في ارتداء منامته....وما إن يسترد عافيته مرة أخرى حتى يخرج ليخونني، يخونني ويخون ابنته الصغيرة. لا أعرف أيّنا تأذّت منه أكثر. بالنسبة لي أنا، فقدت كل ذرة ثقة في النفس كانت لديّ، هذا إن كنت أتمتع بأي قدر منها في المقام الأول.

عليّ حقاً أن لا أفكر فيه. لقد ضيعت وقتاً كثيراً جداً في خدمته بكل كياني. والآن، وقد صرت حرة منه، أضيّع وقتي في تذكّره والتفكير فيه.

شُيدت البناية التي يقيم فيها في الوقت الذي وُلدت فيه تقريباً. من خمسة طوابق؛ يسكن كارل في شقة على السطح. كنت أصعد الدرج حين كنت أجيء لآخذ جانا لم أدخل الشقة أبداً، لكنني كنت أرى الجدار المواجه لفتحة الباب مغطى بالشهادات وميداليات الدرجة الثانية المثيرة للشفقة التي حاز عليها في دورات تنس عديدة. كانت معلّقة على حائط صالتنا حين كنا نعيش معاً. استغنى عنّي لكنه تشبث بالميداليات.

توقفت عند ناصية الشارع. لست واثقة من رغبتي في زيارته. ثمة كابينة هاتف عند المنعطف. سيكفي أن أهاتفه وأسأله عن حالته وإن كان بحاجة لشيء.

حين زرته آخر مرة في المستشفى كان لديه زائر آخر. شاب نحيل وشاحب له عُرف فرس من شعر ضارب للحمرة، لكن عينيه داكنتين خلف نظارتين. أسنانه بيض للغاية وفكه السفلي بارز قليلاً. يداه جميلتان بأصابع نحيلة - لاحظتها فوراً. قدّمه زوجي السابق لي على أنه أحد تلاميذه السابقين. أذكر اسمه لأنه يشبه اسم ابنتي.. خاطبني بـ«دكتوره» وعرض أن ينصرف على

الفور لئلا يزعجنا، لكنني طمأنته أن ليس هناك ما يُزعج. ثم انصرفنا معاً في النهاية، وما إن خرجنا من العنبر حتى سألني إن كنت أظن أن حالة أستاذه السابق سيئة. فأخبرته بصدق أن الورم كان ضخماً وأُهمل طويلاً، ما يُعد دائماً أمراً سيئاً.

قال بانزعاج:

- «هذا رهيب. أنا آسف حقاً». ثم واصل يخبرني أنه يتذكرني من المناسبات القليلة التي رآني فيها انتظر زوجي مع ابنتنا الصغيرة. قال: «كنا كلنا نحسده،» وانتبهت لاندفاعة دم طفيفة على وجنتيه الشاحبتين.

لم أسأله مَن «كلنا» هؤلاء، أو لماذا حسدوا زوجي الذي كان في الوقت نفسه يلعب دور العاشق المتزوّج مع عاهرة ما؛ بل أسرعت منصرفة بدلاً من ذلك.

الغريب أن ما قاله علق بذاكرتي، وتذكرته تلك الليلة قبل النوم بدلال. لكنني ما زلت أتذكر كلماته حتى الآن، بعد مرور ثلاثة أسابيع. ويخطر لي أنه ربما يصدف ويكون في زيارته الآن.

احتمال غير وارد مع هذا.

أسير نحو كابينة الهاتف. لكنني ما زلت متردّدة. يخيفني الغراب الشبحي الذي حلق خارجاً من رأسه ليلة أمس. في تلك اللحظة ألمحه: الغراب. يسير، أو بالأحرى يخبّ، على الرصيف المقابل. محدودب قليلاً ونحيل، يرتدي معطفه حتى في هذا اليوم الدافئ. يتوكّأ الرجل الرياضي على عكاز. لكنه ما زال يمشي. كان يتمشى وحده في مكان ما. كم بكيت حين هجرني. الآن ليس بوسعي سوى البكاء لحاله، هذه الروح المُهمَلة.

لا أصيح عليه ولا أركض نحوه. أراه يسير متثاقلاً نحو منزله الذي يقيم فيه. ما هو واجبي نحو رجل كان يعيش معي وفي الغالب لن يعيش لوقت أطول؟

إنه يحتل الكثير من تفكيري. في مكان ما من أعماق روحي ثمة شعور

صارخ بالذنب لأنني لم أكن زوجة صالحة له بما يكفي، ولهذا تركني، وربما لهذا أيضاً أهمل مرضه - لم يكن لديه أحد يرعاه. أستدير وأسير نحو محطة الترام.

5

سأتم الثلاثين بنهاية نوفمبر القادم. كنت من شباب ربيع براغ[1]. بمعنى آخر أُنعم عليّ بالأمل، أو بالآمال الزائفة، غالباً.

كانت أمي مدرِّسة ابتدائي. أنجبتني وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها. تأخّرت في الزواج رغم أنها كانت تعرف أبي منذ صغرها. لكنه اعتُقل قبل أن يتزوجا. كان أبي قائد كشافة وأراد أن يظل هكذا حتى بعد أن أُلغيت الكشافة. انتظرته أمي لتسع سنوات، لهذا أحبها. حين عاد أبي، أخبرها بالطبع أنها أفضل امرأة في العالم لكنه لا يرغب في أطفال. قال إنه لا داعي لجلب عبيد آخرين للعالم. ثم جاءت فترة الأمل الموجزة تلك وبشّرت بتحقيق العدالة. لكنني اكتشفت أن تلك الآمال بسقوط العدالة من السماء بغتة، في الغالب زائفة. مع ذلك كنت سعيدة لأن أبي عاش ليشهد بعد مرور عشرين سنة نهاية النظام الذي دمّر شبابه. توفي أبي منذ سبع سنوات حين كانت الحماسة ما زالت فائرة بعد نهاية البلشفية التي طال انتظارها والمفاجِئة مع ذلك.

في الحقيقة لم تكن النهاية مفاجئة تماماً. أتذكر النصف الثاني من الثمانينات؛ كانت أوقاتاً ممتعة. كان النظام الذي نحتقره يحتضر. لم يعد بإمكانه تخويفنا بما يكفي، خاصة نحن الشباب. لم يكن بإمكانه حبس كل معارضيه أو طردهم من البلاد، كما لم يعد بإمكانه منع تظاهراتنا، مع ذلك كانوا يُرسلون حاملي الهراوات ويفتحون خراطيم المياه على الناس. يبدو

(1) ربيع براغ: فترة تحرّر سياسي مرّت بها تشيكوسلوفاكيا بدأت عام 1968.

أنهم كانوا يعتبرون إطلاق الماء أسوأ من إطلاق النار. من جانبي، تدبّرت دائماً سحب نفسي من مثل تلك المواقف، وقُبض عليّ مرةً واحدة فقط. لكن حتى هذا كان خبرة جديدة لي. حين تقف هناك أعزل، وجهك لحائط قسم الشرطة ويداك أعلى رأسك وهم يصيحون فيك وأنت تعلم أنك تحت قبضتهم، تبدأ في التفكير في الأسوأ. يجب أن أقرّ بأنني، مثل كل من وجدوا أنفسهم في هذا الموقف، كنت خائفاً. كنت خائفاً بالرغم من علمي أنهم - على خلاف العهد الذي اعتُقل فيه أبي - توقفوا عن قتل المقبوض عليهم وفي معظم الحالات لا يرسلونهم للسجن حتى. كنت أعلم أنني أخاطر بالطرد من الجامعة، وقد ألمحوا لهذا بوقاحة خلال التحقيق، لكنهم لم يرهبوني بذلك. كنت مع مرور الوقت أفقد الاهتمام بدراسة التاريخ - أو بالأحرى النسخة «الماركسية» منه التي كانوا يدرّسونها لنا، والتي حاولت إيجاد قوانين كمية صارمة ومثيرة للشفقة بسذاجتها لتغطية كل الظواهر.

بالفعل استدعاني عميد الكلية بعد ذلك بعدة أيام وأعرب عن خيبة أمله العميقة لتلطيخي اسم الكلية بتصرفاتي الهوجاء.. كنت أخشى أن يسألني ما إذا كنت نادماً على سلوكي المتهور، كنت حينها إما سألزم الصمت أو سأخبره أنني غير نادم ولا أعتبر ذلك تصرّفاً متهوراً، لكنه فضّل تجنب تلك المواجهة وصرفني معلناً أن مجلس الكلية سينظر في أمري.

انتظرت استدعاء آخر أو إخطاراً بالحكم حتى، لكن لم يحدث شيء. لم يستطع آباء الأمة الأجلّاء[1]، الذين فُرضوا علينا كأساتذة، الاتفاق على طردي، وحتى الأكثر تشدداً منهم في تأييد النظام كانوا يعلمون أنه ليس أمامهم متسع من الوقت. تركت الجامعة على أية حال، لكنني فعلت هذا بإرادتي الحرة.

لم تكن التظاهرات ما يشغلني كثيراً حينذاك. لم أستطع التخلص من الشعور بأنني جزء من مسرحية وأن كل شيء قد كتبه شخص آخر بالفعل.

---

(1) باللاتينية في الأصل.

ربمـا كان التاريخ هكذا دائماً. يتحرك الجنود بأوامر من الجنرالات، ويتحرّك الجنـرالات بأوامر الملوك أو غيرهم من الزعماء. ويتحرك هؤلاء بأوامر قوى غير مرئية، ذهن عالمي[1] ما.

ما راقني أكثر من أى شـيء في تلك الأيـام حفلات أغاني المعارضة. كان بعـض المطربين المعارضين قد أجبروا على مغادرة البلاد على نحو لا يمكن قبولـه؛ لكـن كان يظهـر مقابل كل مطرب مطربـان آخران غيـره. كانت العادة أن يأتـوا من جميع أنحاء الجمهورية لإقامة حفلاتهم، وكنا نحن أيضاً نسـافر لحضـور حفلاتهـم، التي بدا لـي أن كل واحدة منها بمثابة طقـس، كأنّها وعد بالحرية في المستقبل.

كان أيضـاً زمـن الجـدل. كنا أحيانـاً نبقى سـاهرين طوال الليـل في صالة السـكن الجامعي، نناقش كل ما كنا نظنه مهماً: السياسـة أولاً، يتبعها مباشـرة الجنـس، والدين أيضاً وآفـاق حضارتنا.. لم يبد ذلك ذكياً جـداً، رغم أننا في زاويتنا تلك من العالـم لم تكن تصلنا سوى النسخة المشوَّهة من الأخبار.

كنـا جميعـاً نتفق علـى أن الشـيوعية انحـراف، لكـن اتفاقنـا كان يقل في الشـؤون الأخرى. في الحقيقة كان يقلقني أننا بلا مُثُل عليا. كنا ضد الشيوعية ليس لإجرامها بقدر ما كان ذلك لرغبتنا في حياة أسهل. طعام مختلف، سيارة وفيـلّا بحمّـام سـباحة - أو على الأقل كوخ فـي الريف بقطعـة أرض صغيرة لزراعـة الخضروات. غير أنهم حين سـألوني ماذا أقتـرح في المقابل، لم يكن لديّ فكرة أنا الآخر. قلت فقط شيئا ما عن الحرية وعن قضاء مستقل تماماً، أو عن كيف قد نفقد المغزى الحقيقي من الحياة إذا ركزنا على الأهداف المادية فقط.

ثم ثورة - أو شيء ما أُعلن عنه بوصفه ثورة - هبطت من العلى، ولـم يكن ثمة متسـع من الوقـت للتحدث عن المثاليات. كنا نتحـرك في تلك الأيام من

---

(1) بالألمانية في الأصل.

مصنع لآخر كممثلين للطلبة المذهلين، حتى إنني رحلت بعيداً إلى ستر افا لحشد عمال المناجم. كنت مذعوراً إذ لم يسبق أن ذهبت إلى هذا الجزء من العالم من قبل، وتوقعت مما سمعته أن يُلقى القبض علينا قبل أن نغادر المحطة حتى. والرب وحده يعلم أين وكيف سينتهي بنا الأمر.

لم يُقبض علينا. كانت المدينة قذرة والهواء غير قابل للتنفس تقريباً، لكن الناس بدوا ودودين واستمعوا لنا باهتمام. حتى إنهم كانوا يصفقون لخطاباتنا ووعودنا التي، كما اكتشفت في ما بعد، لم تكن قريبة من الواقع البتة.

لا أعرف كيف حال عمال المناجم هؤلاء هذه الأيام. ربما ساءت أحوالهم. ربما كانوا نادمين لأنهم لم يعيدونا إلى براغ في ثلاجة اللحوم، بل بدلاً من هذا تظاهروا من أجل براغ الثائرة.

كان هذا شيء آخر فهمته في ما بعد: إن الناس يتوقون للتغيير على الدوام تقريباً. ما إن تسود الحالة المزاجية للتغيير، حتى تتملكهم الحماسة واليقين المنتشي بأن التغيير سيمنح حياتهم فجأة معنًى ما غير متوقّع. ومع ذلك، ولأنهم يتوقّعون التغيير من الخارج، ينتهي بهم الأمر بصفة عامة مُخَيّبي الآمال.

ثمة لحظات في التاريخ أيضاً يتوق فيها الناس لتغيير ما بداخلهم، لكن ربما انقضت آخر تلك اللحظات في عهد الإصلاح.

حين وصلت فترة الإضرابات والتظاهرات والخطابات لنهايتها، كنت منجذباً إلى السياسة إلى حد أن قررت ترك دراستي. كنت منجذباً لفكرة أن أغدو جزءًا من التاريخ، لاعباً في الأحداث الرئيسية التي اعتدت القراءة عنها بانبهار ودهشة. بدأت أكتب مقالات نقدية سياسية للصحافة لأنني أدركت على الفور أن الصحافة، والتلفزيون قبل أي شيء، أفضل الأدوات للفت انتباه الشعب، وأنهما مدخلان جيدان في السياسة. لم ترتح فياستا، صاحبتي حينذاك، لطموحي السياسي هذا، كانت تصرّ على أنني لم أخلق للسياسة، وأنني ما زلت طفلاً يستمتع باللعب، ولست خشناً أو مثابراً بما يكفي لأكون

رجل سياسـة. تقصد لست ناضجاً كفاية. لكنها، في الغالب، كانت تخشى أن لا يتسع وقتي لها.

لم يتسع وقتي لها على كل حال. ما إن لاح في الأفق أنه حان وقت الزواج، صعقتنـي فجـأة فكـرة أن الصِّلات بيننا ليسـت قوية حقاً، بل يتمـدد بدلاً منها خـواء، فراغ صامت. أخافني هذا، فانفصلنا. أنا قوس، لذلك من غير المتوقع أن أكـون مخلصـاً جداً في الحـب، لكنني فـي الحقيقة أميل دائمـاً لتخيل من أحبهـم مثاليين، وحين أواجه الحقيقة التي أكتشـفها بعد ذلـك، أجد مذعوراً أنني أنا من شيّدت مثلي الأعلى على رمال متحركة.

حيـن تخلّيـت عن فكـرة العمل فـي الصحافة أو السياسـة، لهـوت بفكرة تأسـيس وكالـة دعايـة لمطربـيّ المفضّلين. كنت أعـرف عدداً مـن المطربين وبدأت بالاستفسـار عن كيفيـة الحصول على التراخيـص اللازمة، لكنني في النهاية تركت المشـروع قبل حتى أن أبـدأه. لم أكن صلباً بما يكفي لهذا النوع مـن العمل أيضـاً، أو بالأحـرى افتقرت إلـى روح تخطيط المشـاريع. لكنني فـي الغالـب افتقرت لرأس المـال اللازم للبـدء. حاولت أمي أيضـاً ثنيي عن العمـل في التجارة. كنت على أعتـاب الندم على ترك الجامعة. ربما لم أُخلق فعـلاً لعمل شـيء أفضـل من الجلوس في مكتبة أو أرشـيف مـا والتنقيب في مخطوطـات قديمـة. ماذا تفعل مع شـخص لـم ينجح في شـيء؟ لكن حينها عُـرض عليّ عمل في تلك اللجنة الشـهيرة، والمشـينة بقدر أكبـر، المناط بها كشـف الغطاء عن جرائم النظام السـابق.. وضعوا أيضاً في اعتبارهم الفصول الدراسية السبعة التي قضيتها في دراسة التاريخ في الجامعة؛ على الأقل كانت بمثابـة تمهيـد للعمل الذي كان مقدَّراً لي أن أقوم به. هكذا لم أسـتطع الهرب مـن قَـدَري رغم كل شـيء. عملي أن أبحث في وثائق أرشـيفية للكشـف عن طـرق وقواعد اعتمدها رجال مخابرات النظام السـابق والبوليس السـري في أنشطتهم في الداخل والخارج.

كان عملاً شيّقاً ومعقداً إلى حد ما، ولم يكن بحثي يتمخّض عن شيء معظم الأحيان. استغرقني الأمر سنة على أقل تقدير لأستوعب كيف تسير الأمور في أخويّة المخابرات السرية وأتعلم العثور على أشياء، كان من المفترض أن تبقى مخبوءة، لأحدد مكان «مايكروفيشات» لم تكن موجودة أبداً في سجلات كافة المؤسسات.

ساعدني الحدس كثيراً في هذا. كنت من آن لآخر أحدس بوجود صلات ما لا يدلّ عليها شيء، وقادني هذا لاكتشافات مهمة ومدهشة. أنا أتحدث عن عملي، لكن من المستحيل تقسيم المرء نفسه إلى إنسان العمل وإنسان الحياة الخاصة[1]. يمكنك أن تلاحظ حين يكتم الآخرون مشاعرهم أو أفكارهم، وكذلك حين يتصنّعونها.. لكن من ذا الذي لم يتصنّع، أحياناً، بعض المشاعر كمحاولة لملء الفراغ الذي ينسج خيوطه بينهم وبين من يظنون أنهم في علاقة حميمة معهم؟ يبدو أنه من المستحيل أن تكون حقيقياً إلا في لعبة يكون لديك فيها أكثر من حياة واحدة. أو على نحو أدق، يسهل تحقيق العدالة والصدق في لعبة، عن تحقيقهما في الحياة الحقيقية.

تنقيبي في الماضي الحديث للأشخاص علّمني اللاثقة. أمرّ أحياناً، على سبيل المثال، بمعلومات مؤسفة عن أحد المطربين كان يحثّنا على المقاومة وفي الوقت نفسه يُبلِّغ عنّا. اكتشفت أشياء شبيهة عن أشخاص لهم مكانتهم أو مواقعهم في السلطة. أقدّم المعلومات لرؤسائي وأنتظر ماذا سيحدث. في الغالب لا يحدث شيء. أعتقد بأن اللعبة في تلك الحالات على مستوى أعلى وأكثر تعقيداً مما يمكنني أنا، الذي أعتبر نفسي أحد اللاعبين، أن أتخيّله. إنها على ذلك المستوى الذي سيكون فيه من الحماقة أن أرمي بحجر في المياه الراكدة. يوماً ما سيخنقني أحدهم من الخلف أو يرميني بقنبلة وأنا في طريقي إلى البيت. لكن مع أن هذا الخاطر يجعلني أرتعش أحياناً، ما زلت أظن أنني

---

(1) باللاتينية في الأصل

حينها سأجد مخرجاً ما، كذلك أقوم بكل ما في وسعي لتجنّب حدوث هذا.

اكتشف مذهولاً وأنا أقرأ تقارير رجال البوليس السري القديمة، كيف كانوا جميعاً غارقين في الغشّ والخداع. كأنهم كانوا جميعاً يغشّون ويخدعون بعضهم البعض.

هنا فقط أدركت منطق النظام الذي وُلدت تحت حكمه. حتى وقت قريب جداً ظل عددٌ قليل من الناس يتعرّضون لعنف حقيقي، عددٌ قليل فقط يكفي لضمان أن يعيش الآخرون جميعاً في الخوف ويخضعوا للذل والسيطرة بحسب النمط الوحيد المتاح للوجود.

اعترض أبي وآل به الأمر في السجن حيث ضُرب وعُذِّب بالعطش والجوع والبرد. كانوا يحتجزونه في قبو تحت الأرض من دون أن يعطوه ولو بطانية ليتغطّى بها، فقط خرقة بالية ملطخة بالطين. ماما انتظرته بصبر حقاً، كانت تكتب له وترفع معنوياته بحبّها، لكنها في الوقت نفسه حاولت أن لا تخرج عن النهج، كانت تدرِّس ما كان عليها تدريسه وتدلي بصوتها في الانتخابات الصّوَرية. أحنقني هذا حين بدأت أفهمه. كانت تقول: «أنت لا تعرف كيف هي الأمور في الواقع». لم أكن أعرف. لم يكن لدى فكرة. هنا فقط اكتشفت كيف هى الأمور في الواقع. مع أن أمي كانت مدرِّسة ابتدائي عادية لكنها كانت عادةً تحت مراقبة اثنين من زملائها في العمل وأحد الجيران كان يبلّغ عنها وعن أبي. اكتشفت هذا من الملفات، من تقارير مخزية ومثيرة للشفقة ذكر فيها المخبر وزميلاها المدرِّسان بوقاحة ما قاله تلاميذ أمي عنها على نحو عفوي.

هكذا كانت الأمور. لذلك بإمكاني الآن أن أتفهّم حِرص أمي.

لكن حتى مع تفهّمي، ما زلت غير قادر على قبولها بوصفها الخيار الوحيد المتاح. أنا على ثقة أنني، مثل أبي، سأجد في نفسي القدرة على المقاومة حين تصير الأمور للأسوأ.

كانت فياستا على حق حين قالت إنني لم أخلق للسياسة، لم أخلق حتى لهذا العمل الذي أقوم به الآن، لأنني لا أستطيع التصالح مع فكرة أن الناس كما هم. أريد أن أعيش في عالم مختلف - عالم يُكتسب فيه الاحترام على أساس أعمال وأفعال مختلفة تماماً عن تلك المُتعارَف عليها في عالمنا اليوم. لهذا من حين إلى آخر أتخيّل نفسي في مواقف مستحيلة. أظنني فجأة قادرا على سماع طوطمات من على بعد؛ أركض نحوهم فأجدني تحت وابل من السهام وطلقات الرصاص، لكنني أواصل زحفاً. أتخيلني أيضاً أمد حبلاً بين قمتيّ جبلين وأتعلق به عابراً وادياً عميقاً كالجراند كانيون، لم أره في حياتي إلا في الصُّوَر طبعاً. في الواقع أشعر بالغثيان لمجرد النظر من أعلى كوبري.

النجوم أيضاً تغريني. ليس توقاً للطيران إليها، إنما أحاول فهم ما ترسله إلينا حول ما يخص احتمالاتنا ومصائرنا. تقول ماما إنني مجنون وإن نهايتي ستكون حتماً مؤسفة إن غاب نظرها عني.

حين كنت أستريح قليلاً من العمل الأسبوع الماضي، ألقيت نظرة على الأبراج على الانترنت ووجدت أنني على أعتاب تجربة جديدة ستغيّر حياتي. فبدأت أتلقى الأشياء من حولي بتركيز أشد.

بعد أيام قليلة ذهبت إلى المستشفى لأعود مدّرسي العجوز الذي كان يدرِّس لنا التاريخ. أظنّ أنه من أثّر في حياتي أكثر من أي شخص آخر، باستثناء أبي. كان حين يشرح لنا التاريخ، يذهب إلى أقصى حدود المسموح به وقتذاك. أنا واثق من هذا. كان يصف الثورات التي يُشيدون بها في الكتب بحماسة ضارية كصراعات دامية يليها إرهاب. وكان الإرهاب إما انتقام من نجحوا في قمع الثورة أو ثأر من انتصروا بها. نجح هذا المدرس المتميّز في لفت انتباهي ليس للتاريخ فحسب بل للنجوم أيضاً، لكن ليس على النحو الذي كان يقصده مع ذلك. لا أعرف ماذا فعلت لألفت نظره لكنه كان يُظهر وده لي ويدعوني من حين لآخر إلى مكتبه ويناقشني في أمور لم يكن أحد غيره يتحدث معي فيها. ترك لديّ الانطباع بأن أفكاره تسكن في فضاء لا

نهائي وزمن سرمدي، بمعنى آخر زمن نجمي، زمن يختلف عن الزمن الذي يصفه التاريخ. بهذه الطريقة كان يحط من شأن نفسه والبشر على حد سواء من منظور واقعي، بكلمات أخرى، من منظور ضئيل إلى حد لا نهائي. أذهلتني هذه الحكمة. كان يقول إن هذه المعرفة الجديدة لسرمدية الزمن العصيّ على الفهم والمدى اللانهائي للأكوان تعتبر أهم اكتشاف في عصرنا هذا. ظننته كشف لي شيئاً ما أصيلاً عن الحياة. يبدو أن أحدهم وبّخه بسبب آرائه تلك، ذلك أنه كفّ عن تدريس التاريخ وانتقل بدلاً من ذلك لتدريس الفيزياء والألعاب الرياضية. لكنني لا أريد التحدث عنه. جاءت زوجته السابقة لزيارته في المستشفى أيضاً. لاحظت على الفور أنها تشعّ بحزن، وألم مرير ما، ومسّني هذا. أردت أن أواسيها بطريقة ما فأخبرتها كيف أنني حين رأيتها مع طفلة في انتظار زوجها منذ سنوات، حسدته عليها. أحمرّ وجهها. أعتقد أن الطفلة كانت ابنتهما الصغيرة. لابد أنها الآن في الخامسة عشرة من عمرها على الأقل. اسم المرأة كريستيانا، على ما أذكر. لديّ ذاكرة جيدة للوجوه والمقولات والتواريخ. لم يكن بمقدوري تخمين عمرها، لكنها بدت لي جميلة بشكل لافت للنظر، كما كانت قد بدت لي من قبل.

6

الساعة العاشرة بالفعل. يبدو الشارع في الخارج من النافذة كأنه سقط في الصمت وبدأ نسيم بارد تقريباً يتسلّل منها. شغّلت موسيقى باخ، لكن لا يسعني الانتباه لها. أنتظر جانا، رغم علمي أنها لن تأتي قبل منتصف الليل. أنتظر رنين جرس الباب لكنه لا يرن. انتظر رنين جرس الهاتف لكنه لا يرن، انتظر رسولاً بأخبار سارة لكنه لا يأتي لأنه لم ينطلق بعد حتى.

أفتح صندوق خطابات أبي وأغلقه مرة أخرى. عليّ أن أفرز أوراقي أولاً. دائماً ألقي بخطاباتي، بما في ذلك تلك المرسلة من المعتوه المجهول - التي

زادت مؤخراً -، في الكارتونة الكبيرة التي جاءت فيها المكنسة الكهربائية. إن قلبت هذه الكرتونة رأساً على عقب سأجد على السطح خطابات من عشاقي القدامى. كان لديّ الكثير منها. أنظر دائماً إلى سطر التحية أولاً ثم للجملة الأخيرة. حبيبتي.... أنا أحبك، المخلص لكِ.... بالنسبة لي ما بين هذا وذاك أهميته ثانوية.

ثمة خطابات كثيرة جداً ولا أطيق فرزها كلها. اعتدت أن أرمي بأحدثّها فقط في الكرتونة: دعوات، بطاقات معايدة، إشعارات وفاة، خطابات من الصديقات، تهديدات، بطاقات الأجازات، وبطاقات الكريسماس. ثمة خطابات غرامية أقل. عددها يساوي تقريباً مكونات معادلة رياضية ناتجها صفر، كما كان زوجي الأول والوحيد سيعبِّر عن الأمر. حين أموت يمكن لجانا أو لمن سيرافقني في رحلتي الأخيرة أيّاً كان، أن يلقي بتلك الكرتونة في النعش لتحترق معي.

أنهض وأذهب إلى حجرة المخزن حيث تقبع الكرتونة تحت الأرفف. التقط أعلى خطاب. أحد الخطابات المسمومة، بالطبع، مكتوب بحروف كبيرة منفصلة، تميل لليسار بشكل مَرَضي وأسفلها يستدير بزخرف. التحية ليست إطراءً تماماً، ما يعدّ مناسباً، على ما أظن، لهذا النوع من المراسلات:

يا ابنة الخنزير الأحمر

أيتها التوتة الحمراء الدامية. أيتها الدمسيسة[1] السامة. سآتي لأقتلعك قريباً. ستأتي ساعة حسابك أخيراً. ستبكين كما أبكي. ستصرخين كما صرخت كل يوم من أيام حياتي. لن تجدي دلوا كبيراً بما يكفي ليستوعب دموعك.

وسطور أخرى قليلة من الإساءات. ألقي بها في الكرتونة مرة أخرى بدلاً من الإلقاء بها في المرحاض ودفعها بالماء. ليس لديّ أدنى فكرة عمّن قد

---

(1) نبات عصا الراعي،

يكون مُرسل تلك الخطابات الوقحة التي ظل يرسلها بانتظام إلى حد ما خلال الأشهر الستّة الماضية. لعله عالم طبيعة مجنون؛ إذ يتلذذ بإغراقي باسماء النباتات والحيوانات. قد يكون خطاباً من الغيب، من تشارلز الثاني. قد لا يكون من الغيب، ربما ما زال حياً. لعله ذهب إلى مكان ما آخر حيث لا يعرفه أحد. ألتقطُ خطابا آخر بسرعة. رسالة قصيرة من الأب كوستكا يشكرني لمعالجة أسنانه.

سيدتي الشابة الجميلة،

الأسنان الجديدة أفضل من تلك التي ظللت أمضغ بها طوال حياتي والتي بقي منها القليل. لن أقول شيئاً عن جمالها، إذ سيكون ذلك من غير اللائق (خاصة في سنّي هذه)...

أظن أنني سمعت جرس الهاتف. ألقي الخطاب وأركض لتلقي الأخبار السعيدة قبل أن يمل الهاتف ويتوقف عن الرنين.

- «هاي يا حبيبتي». أميّز صوت شقيقتي. «ظللت أتصل بك طوال الظهيرة هناك في العيادة ثم في البيت، لكنك لم تكوني في أي منهما».

- «أخبرتك حوالى مائة مرة أنني لا أعمل أيام السبت».

- «حقاً؟»، لا بد أنني نسيت. أو ربما لم ألاحظ أن اليوم هو السبت. الأمور هنا في فوضى تامة».

الأمور كذلك دائماً، أو على الأقل كلما ظنّت أنني أريد منها شيئاً. لكنني لا أريد منها شيئاً. تقول: «ماما كتبت لي، يبدو عليها أنها.... ألا تدهشك بكونها غريبة قليلاً؟»

- «كلنا غريبون قليلاً».

- «حسناً، لكن بعضنا أكثر غرابة من الآخرين. قالت إن ظهرها يؤلمها ولا تستطيع جزّ الحشائش. ولكن ليس لديها أي حشائش لجزّها، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «أترين ما أعنيه؟».

- «لعلها أرادت أن تجزّ الحشائش التي أمام البناية. إنها بحاجة لفعل شيء لتبعد ذهنها عن التفكير أن زوجها مات».
- «هل تقصدين بابا؟».
- «هل تعرفين زوجاً آخر لها؟».
- «ألا تظنين أن علينا أن نعرضها على طبيب ليراها؟».
- «لن يخبرنا الطبيب بشيء أكثر مما أعرفه بالفعل. كما أنني أعرفها جيداً أيضاً. إنها أمي. وأمك أنتِ أيضاً، غير أنك لا تعرفين شيئاً حتى نستمع إليك».
- «حبيبتي، إنك تفتعلين مشاجرة مرة أخرى».
- «كان بوسعك قضاء يومين معها حين توفي بابا».
- «لكنني شرحت لكِ أنه لم يكن بوسعي ذلك. كان لديّ جولة في النمسا قد تحدّد موعدها بالفعل. بعد أن استغرق الترتيب لها لمدّة عام. وكانت ناجحة».
- «وماذا لو كانت وفاتك أنتِ؟».
- «أنا؟»
- «ألا تعتقدين أن هذا سيحدث؟».
- «لا أرى صلة لهذا بالأمر».
- «إنني أسألك هل كنت ستذهبين في الجولة أيضاً لو كنتِ أنتِ من توفّي؟»
- «ليس لديّ سوى إجابة واحدة على سؤالك السفيه هذا يا حبي: روحي العبي».
- «هل كنت تريدين شيئاً آخر ليدا يا حبيبتي».
- «كنت أريد أن أعرف كيف حال ماما».
- «ماما بخير - إن وضعت في اعتبارك ما مرّت به مؤخراً. وإن أردت معرفة المزيد، تعالي لتريها، ما لم يكن لديك جولة كبيرة ناجحة عليك أن تشاركي فيها».

الوقت منتصف الليل تقريباً؛ أنا مرهقة. حين كنت شابة كان بإمكاني مواصلة السهر في البارات وممارسة الحب كذلك، حتى الساعات الأولى من الصباح، وكنت أحياناً أظل مستيقظة لأسبوع على التوالي قبل أن انهار وأنام لست عشرة ساعة متواصلة؛ من دون أن يستطيع أحد إيقاظي. مع ذلك اكتشفت زوجي السابق والمستقبلي حينذاك، في إحدى تلك الدورات. هكذا رآني لأول مرة: ثملة، شعثاء، ومتعبة ككلبة. كان عائداً من مباراة تنس وعطشاناً. جلس إلى طاولتي وكنت أنهي مشروبي. مع من كنت حقاً؟ لا يهم. كان البار مزدحماً ولم يكن ثمة كرسي شاغر إلا على طاولتنا.

كان ملاحظاً جيداً، زوجي المستقبلي هذا. هذا شيء استطعت ملاحظته إلى جانب أنه بدا معجباً بي أيضاً. نظر إلي وسألني: «هل أنتِ بخير؟».

كان هذا أول ما قاله لي: «هل أنتِ بخير؟»

أخبرته أنني على ما يرام، لكن لم يكن الأمر كذلك حقاً. كانت رأسي ثقيلة وعيناي منتفختين ومعدتي مضطربة.

- «سأقلك إلى بيتك». كان هذا ثاني ما قاله لي. لم يكن سؤالاً ولا طلباً، كانت جملة خبرية، فنهضت بخنوع وغادرت. وللاثني عشر عاماً اللاحقة ظللت أنهض بخنوع وأذهب إلى حيث يشير إلي. لم يكن اتجاهاً سيئاً دائماً. كان يخضع للقواعد التي يتطلّبها الاعتناء بنفسه، يؤدي جميع واجباته، يمارس التمارين صباحاً، يتناول إفطاراً جيداً ويأوي للنوم مبكراً. كانت القواعد تتضمن القراءة، حتى قراءة كتب تجعله مسايراً للزمن على نحو ما. لم يكن لديّ قواعد، مع أنني أقرأ وأستمع للموسيقى، لكنه أجبرني على اتباع قواعده. أجبرني على استبدال حياتي الحرة بما يدعوه حياةً محترمة. أدين له بهذا. أدين له بأنني لم أشعل النار بنفسي. أحبّ أحدنا الآخر. لماذا أتحدث نيابة عنه؟ أنا أحببته. لأول مرة منذ أزمنة طويلة كنت مجنونة بحب أحد. كنت أتوق لأن أكون معه وكنت أغار من زوجته، تلك الروح المسكينة التي خانها

معـي؛ غير أنه كان يعود إليها وفي الغالب يرقد بجوارها، مع أنه أخبرني أنهما لم يناما معاً منذ وقت طويل.

كم تبدو حكاياتنا مثيرة للشـفقة حين نعـاود النظر إليها بعد حوالى نصف طرفة عين للرب. لا، إنها مليئة بالانهيارات الثلجية أيضاً، أُسُـودٌ ولبوءات في مطاردات شرسـة، نحن نترنّح في السـير على قضبان معلقة، نتسـلق صخوراً ونقفز من أعلى جسـرٍ ونحن مربوطين بحبل، كل ذلك مصحوباً بأنغام أرغن الكنيسة الصغيرة لتمجيد الصليب المقدس.

- «هـذه روزميتـال، محل ميـلادي. إنها محـل ميلاد جان جاكـوب روبا كذلـك. هـل يمكنك سـماع هـذه الجوقـة؟ اعتدت أن أغنـي فيها: هيـه! أيها السيد! انهض أقول لك، انظر إلى السماء.. المجد في الأعالي...»

- «أنظري جانا هذا هو البيت الذي ولدت فيه! وهناك ذهبت إلى المدرسة. لماذا تبتسمين بخبث هكذا؟»

- «لأنـك ذهبـت إلى المدرسـة أنـت أيضـاً بابا! لا بـد أنك كنـت عفريتاً صغيراً!»

السـماء خاليـة. ثمة نجوم أعلـى منطقة أشـجار البلوط وموسـيقى غزيرة كما لو أنها تتدفق من كل شـيء ولوهلة لا يمكنني سـماع جريان دمي أو ذرف دموعي.

الهاتف مرة أخرى.

الثانية عشرة والربع.

- «هذه أنا ماما».

- «جانا، كان يجب أن تكوني في البيت منذ وقت طويل. من أين تتصلين؟»

- «مامـا، لا يوجـد عربـات تـرام الآن، أو بالأصـح ليس سـوى العربات الليلية».

- «هذا ما أتوقعه. لهذا كان عليك أن تكوني في البيت عند منتصف الليل».

- «لكنني لم أحس بالوقت..».

- «هذه غلطتك. ولم تخبريني من أين تتصلين؟»

- «من بيت كاتيا بالطبع».

- «استقلي أول ترام ليلي وعودي للبيت».

- «ماما ثمة حشود من السكارى المرعبين في الخارج، والمدمنين أيضاً. كاتيا تقول إن عليّ أن أقضي الليلة هنا. ستكون العودة للبيت أسهل في الصباح».

- «جانا، ستعودين إلى البيت الآن».

- «لا فائدة من هذا، مامي، حقاً. سيستغرق الطريق ساعتين إن تحرّكت الآن. في الصباح سأكون في البيت في لمح البصر».

أسمع أصواتاً في الخلفية. صوت رجال أو أشخاص آخرين يدخل في خط الهاتف.

- «حسناً، سآتي لإحضارك».

- «لن أسمح لكِ بهذا، ماما، وعلى كل حال أراهن أن لديك شيئاً ما لترشفينه».

- «لا تقلقي بشأني. أخبريني بعنوان كاتيا بالضبط».

- «لا. حقاً، ماما. سيستوقفك رجال الشرطة ويختبرونك لأنك تقودين مخمورة».

- «أخبريني بعنوان كاتيا حالاً! أم أبحث عنه في الدليل؟»

- «حسناً سآتي إلى البيت إذاً، إن كنتِ تقومين بكل هذه الجلبة». هذا كل ما تقوله. تقطع الاتصال. ستتكرّم وتعود للبيت. ما زالت في طريقها، والرب وحده يعلم من أين.

7

لم يمر ترام منذ نصف ساعة. كانت أمي ستهبّ صارخة فيّ مرة أخرى، لكنني أنا ورودا ليس معنا نقود للتاكسي، مفلسَيْن تماماً. عموماً حتى لو كان

معنا نقود لم نكن لنستقل تاكسي. كنا سنحاول الحصول على سيجارة[1]. لكنني لا أريد المزيد اليوم. أنا في الفضاء الخارجي أنا عالية بما يكفي. حين ستفهم ماما أخيراً، سيكون الحساب كالجحيم. لكن هذه غلطتها. لم تدرك بعد أنني لم أعد فتاتها الصغيرة التي تقفز هنا وهناك كالقرد المدرَّب.

جعلني رودا أصعد إلى المتنزه لأنه أراد المزيد من الأحضان والقبلات، لكنني لم أرغب في المزيد وظللت أكشّر وجهي حتى فقد الرغبة. لدى مرورنا بسيارة فورد متوقفة، انحنى ونزع الصمام من إطارها. ظل هسيس الهواء ينبعث من الإطار حتى استوى على الأرض. ضحكنا. أعرف أنه فعل هذا من أجلي. لأنني أحتقر السيارات، مع أنني أركب سيارة ماما القديمة. مضطرة.

رودا ليس ثرثاراً، يفضل الأفعال. هذا هو الرائع فيه. ذات مرة منذ عام كنا مفلسين تماماً كما نحن الآن فقال لي: «إن أردنا أن نُحرز يجب أن نسرق». ثم أخذنا إلى شقق قديمة في سوفيس بالجنوب، قال إنه يعرف شققاً لا يقيم فيها ساكنوها دائماً. كنت مرعوبة حقاً وأخبرته أنني سأبقى في الخارج. لكنه قال: «لا تكوني سخيفة. أنتِ لم تتمي الخامسة عشرة بعد حتى، لن يستطيعوا فعل شيء لك». فصعدنا إلى سطح البناية لنجد هذا الباب الواسع الكبير. كان مع رودا قطعة حديد قديمة صدئة تحت معطفه استخدمها لخلع الباب. وقفت كاتيا في الممر تراقب في حال إذا جاء أحد. دخلنا وأغلق رودا الباب بالعصا الحديد. ظللت مرعوبة حقاً من فكرة وجودي في شقة شخص آخر وخائفة من أن يُقبض عليّ ويتم إرسالي إلى الإصلاحية. يصيح فيّ رودا أنني مجنونة بالشك لكنني لم أسمعه حقاً، ولم أر شيئاً من حولي كذلك، فيما عدا ملاكين أحمقين معلّقين على الحائط لهما أجنحة ذهبية تنمو من أسفل رأسيهما مباشرة. نزعهما رودا من على الحائط ودسّ أحدهما في حقيبة ظهره. لف

---

(1) بمعنى سيجارة حشيش.

الثانـي في خرقة بالية وجدها ودسّـه تحت ذراعي لأحمله. لكنني لم أسـتطع لأن ذراعايّ، وسـاقايَّ أيضاً كانت ترتعش مثل حلوى الجيلي ورحت أبكي. فحمـل رودا الملاك الآخر أيضـاً ودفعني نحو الباب لنخرج. لم يرد الباب أن ينغلق مرة أخرى، فأسـرعنا نهبط الدرج وسـمعت صريـر الباب وخبطه. كان عالياً جداً ولا بد أنه وصل الشارع. كان ذلك رهيباً.

لم يتحدث رودا معي لثمانين عاماً بعدها.

كان شرطيان قد خرجا من سيارتهما.

رآهمـا رودا قبلي واختفى. لا ألومـه. قضى عاماً في الإصلاحية وعاماً في السـجن؛ الـرب وحده يعلم مـاذا يفعلون حين يمسـكون بمن قضـى وقتاً في السجن من قبل. بدا أنهما لا يتجاوزان العشرين من العمر. يقول لي أحدهما: «عذراء أخرى في الكلبشات،» ويطلب مني هويتي.

أتظاهـر أنني لـم أجدها وأطلب منه أن يخبرني بمـا فعلته. أخبرتهما أنهما يضيعان وقتهما معي في حين يسـرق أحد ما عند المنعطف سـيارة أو يسـطو بالقوة على سيدة عجوز.

قال الذي وقف صامتاً يراقب حتى هذه اللحظة: «اسكتي وإلا ستندمين!»

أخرجـت هويتـي أخيـراً. قلّبها الـذي يبدو أنه يسـتطيع القـراءة منهما بين يديه ثم نظر في قائمة معه. «لم تتجاوزي الخامسـة عشـرة حتى». لم يسـتطع الحساب بدقّة.

- «كيف تظلّين خارج البيت حتى الآن؟»

- «أنا أكبر بعام. وأنا في الخارج لأن لدينا فيضان في البيت».

- «ماذا لديكم؟».

- «حقاً، فاض الماء في غرف النوم. إنها تجف فقط».

لم يسـعه سوى أن يأمرني بأن أسـكت مرة أخرى. أعطياني هويتي لكنهما لم يشكراني. بل طلبا أن أختفي عن نظرهما.

- «أنا في انتظار الترام. هذا مسموح به أليس كذلك؟».

لم يأبها بمدمن خمر كان يستفرغ أمعاءه خلفي مباشرة وانطلقا بالمشية المشذّبة لفرسين أصيلين. يا للضحك! أيها الأحمقان. أمر مذهل. على الأقل ساعدا في قتل الوقت وكنت ما زلت في الفضاء الخارجي حقاً، عالية كطيارة ورقية. لكنني كنت أعلم أنني على وشك الهبوط، وحينها يسوء مزاجي عادةً. ستلاحظ ماما الأمر يوماً ما. أراهن أنها في انتظاري. لم تستطع أن تخدمني وتوفر عليّ انتقاداتها. سيكون عليّ أن أتظاهر أنني خرجت مع كاتيا. فقط لو عرفت الحقيقة! لو شكّت لمرة واحدة أنني أكذب حين أقول إنني أنام عند كاتيا. لو اكتشفت أمر رودا ستشلّها الصدمة عن الحركة لحوالى عام.

- «سينتهي بي الأمر بقتلك في أحد الأيام». أخبرتني آلاف المرات على الأقل. لكنها لن تقتلني. مما أعرفه عنها فهي في الغالب ستؤذي نفسها. إنها تعاني من نوبات اكتئاب وهي دائماً حانقة أو مرهقة لأنها تقضي وقتها كله في ثقب أسنان الناس وليس لديها متعة حقيقية في العالم. أحياناً تضيق روحها وتصرخ فيّ، وحين تتجاوز الحد تقول لي إنني كل ما لديها. لكنه ليس خطأي أن تركها أبي، وأنا الآن كل ما لديها. وعموماً لا يوجد سبب يدعوها للبقاء وحدها. كلما خرجنا معاً، حين نذهب للمسرح مثلاً، يظل الرجال يتفرسونها بعيونهم طوال الوقت. إنها جميلة جداً، حقاً، خاصة حين تبتسم أو تغنّي.

ترام 57 أخيراً. يتقيأ مدمن الخمر خلفي للمرة الأخيرة بسرعة ونستقل الترام. يقع بصري في العربة على فوكسي وصاحبها فوكس. مغيَّبان تماماً. تجلس فوكسي على حجره ورأسها المصبوغ بالأخضر يتهادى كأم أعيدت للحياة. كان بيني وبين فوكس شيء ما العام الماضي أيضاً، لكن لثلاث مرات فقط، فقد وجدته مملاً. الآن يومئ لي فقط، ثم يدعوني لحفل شرب صاخب هما في طريقهما إليه.

- «الآن؟».

- «نعم. لا قلق. ثمة هذا الرجل هناك، إنه كبير حقاً، ويشارك الجميع».

- «هذا رائع، رائع حقاً».
- «هل ستأتين معنا إذاً؟».
- «لست متأكدة.. كم يبعد؟».
- «ليست مشكلة، سنأخذك معنا إلى هناك».
- «لست متأكدة. لقد وعدت ماما..».
- «لا تكوني حمقاء. لابد أنها نامت منذ زمن طويل».
- «لا. لم تنم. أعرف. إنها تنتظرني».
- «وماذا إذاً؟ ستتجاوز الأمر».
- «نعم، أعلم». لا أطيق أن يتحدث أحد هكذا عن أمي. كنت أهبط وبدأت أحس بالصداع. كنت على أعتاب نوبة اكتئاب وبحاجة حقاً لشيء يرفعني لأعلى. «في الحقيقة. هي لا تستغني عني أبداً».

لكن لا أظن أنهما لاحظاني حتى. كانا مغيبين تماماً الآن. ظل رأس فوكسي يتمايل كأنه مربوط بأسلاك.

أغمضت عينيّ لوهلة أنا الأخرى وشعرت كأنني أطير. كان رائعاً حقاً لأنني لم أحتج لأجنحة. فقط أُطلق نفسي، أمدُّ ذراعيّ وارتفع مثل البالونة. السحب أسفلي مثل القشدة المخفوقة. مذهل جداً حقاً أن أطفو وأطير متى أشاء.

ثم كان عليّ أن أفتح عينيّ مرة أخرى وأستقل تراما آخر. قلت تشاو لكليهما لكنهما لم يكونا ليسمحا لأحد بمقاطعة رحلتهما.

حين ترجّلت من الترام الأخير كانت الساعة حوالى الواحدة والنصف. بدأت أشعر بالبرد حقاً والخوف قليلاً. في الحقيقة كنت خائفة من مقابلة عفريت أو مستذئب ما أو مصاص دماء يتدلى من عمود النور.

أراهم معلقين هناك كثيراً، رغم علمي أن هذا من صنع خيالي.

الفصل الثاني

1

أُعلنَ اليوم أن طبقة الأوزون قد تآكل 25 في المائة منها. استدعوني للحضور في مدرسة جانا. تبعد المدرسة عن البيت أقل من ربع الساعة سيراً على الأقدام. بعض المدرِّسين، والناظرة نفسها، من مرضاي. مدرّسة صف جانا ليست منهم، لكنها لحسن الحظ لا تدرِّس الرياضيات أو الكيمياء. تدرِّس اللغة التشيكية. بحسب كلام جانا، يدعونها «الراهبة». لا بد أن هذه السيدة في ملابسها السود، القديمة نوعاً ما، أكبر سناً مني أنا. لها شعر طويل، أبيض بكامله، وبشرة لطيفة، لم يدمّرها التدخين، وربما لم تمسّها القبلات، لديها فعلاً مظهر راهبة عانس. تحدِّق فيّ بتأنيب بعينين حزينتين قائلة:

- «أنا قلقة بشأن جانا».

- «أعرف، وأنا أيضاً».

- «زملائي المدرِّسون يشكون منها. لقد توقفت عن المذاكرة وهبطت درجاتها في جميع المواد. في الحقيقة هبطت درجتين في الإنجليزية والرياضيات. وتجربتي معها بالمثل».

أومئ لها برأسي. عليّ أن أقول شيئاً ما دفاعاً عن نفسي وعن جانا. أو أوضح لها على الأقل كيف أن ليس لدي متسع من الوقت ولا من الطاقة،

ليس مع مرضاي ووالدتي العجوز. إن ابنتي في سن البلوغ وتستمتع باللهو ليلاً وبترديد أغانٍ مريضة. بوسعي أن أمنعها من هذا لكن ليس بوسعي إجبارها على الرغبة في المذاكرة.

- «هل تعتقدين أن ثمة فرصة لتعديل الوضع في اللحظات الأخيرة؟»

تجيب بالتجهّم الذي يتحدثون به عن عملية جراحية لحالة ميئوس منها:

- «حسناً، لقد اقتربت الامتحانات النهائية جداً، لذلك سيكون عليها أن تتحرك سريعاً». ثم تواصل اتهامها: «بالإضافة لغيابها المتكرر.. هل تمرض كثيراً جداً هذه الأيام حقاً؟».

أجفل سائلة: «ماذا تقصدين؟»

تأخذ سجل الفصل وتقرأ لي منه. في الشهرين الماضيين، تغيبت مرة لمدة ثلاثة أيام، ثم يومين، وثلاث مرات ليوم واحد، وتغيبت عن الحصص مرتين، إما الرياضيات أو الكيمياء. «كل إخطارات الأعذار منكِ. السيدة بلينا. وبما أنك طبيبة لم أطلب أعذاراً أخرى. بل فضّلت أن أطمئن نفسي بأن جانا سقيمة جداً حقاً».

كلمة رائعة «سقيمة». ممتازة بالنسبة لمدرسة لغة لها مظهر راهبة. لن أخبرها أن جانا معافاة كحصان. أحار ما إن كان عليّ أن أدعم جانا وإخطارات أعذارها المزوَّرة ثم أُهيئ لها تأديباً حامياً حين تعود إلى البيت، جلدة على ظهرها العاري عن كل توقيع زوّرته. أجيب بتردد: «إنها تعاني من نوبات الصداع النصفي، ورثته مني. والأنفلونزا أيضاً».

- «لكن هذه الأمراض لا تبرز تأخّرها في جميع موادها الدراسية».

أوافقها.

ألم تلاحظي شيئاً مثيراً للشك في سلوكها؟».

أسألها ماذا تعني بذلك.

تخبرني أن ثمة اثني عشر تلميذاً في المدرسة معروف عنهم أنهم يتعاطون المخدرات. أحد تلاميذ الصف الثالث يتلقّى علاجاً في المستشفى النفسي

في بوهنيك. تقول إنه يصعب الجزم كم عدد الآخرين الذين لم يُكتشفوا بعد. أجيبها:

- «هذا فظيع، لكنني لم ألحظ شيئاً».

تقول بعدم اقتناع واضح:

- «إنهم يتفوّقون على أنفسهم في إخفاء الأمر. هذا شيء يتعلمونه بسهولة، وكلما زاد ما يخفونه كلما زادت براعتهم في إخفائه».

تواصل كلامها معلنة عن إحصاءات أعرفها على كل حال. «أترين سيدة بلينا؟ إن تجار المخدرات هذه الأيام ينتظرون خارج بوابة المدرسة مباشرة». تشير تجاه النافذة التي لا يُرى أحد خلفها. «غير أنه ليس بيدنا حيلة، فنحن نعيش في بلد حر، والرصيف ملكية عامة. ويبدو أن بيع المخدرات تجارة عادية. وفي العادة لا يبيعونها حتى، بل يعطونها للأطفال عيّنة مجانية. الأطفال فضوليون ويحبون أن يبدوا كالكبار. أو بالأحرى سيئين كالكبار».

- «أنا واثقة أن جانا..». أهز رأسي محاولة أن أقنع نفسي. «تلهو هنا وهناك، أعرف، لكنها تخاف من المخدرات».

- «هذا ما أتمناه،» لا أستطيع أن أحدد هل كانت نبرة صوتها قاسية أم متصالحة. «إن والدها مدرِّس ومدرِّب رياضة».

- «أبوها مريض الآن. مريض جداً. ليس لديه لا الوقت ولا الطاقة للانتباه لها. بالإضافة لذلك، أنتِ تعرفين أننا..».

بالطبع نعرف. تقريباً نصف طالبات فصلها في القارب نفسه. لكن بوسع الآباء ممارسة بعض السلطة حتى وإن كانوا يقيمون في مكان آخر. تتحدث المعلمة لوقت عن عدم كفاية انتباه الآباء لأطفالهم: في السن التي يكونون فيها على حافة الخطر يقضون أوقاتهم إما في عصابة ما، أو أمام التلفزيون يحملقون ببلاهة في أبطال مسلسلات لا يروقون إلا لمَنْ هم في غفلة أو تحت تأثير المخدرات.

كان أبي يتحدث هكذا. لم تصل بعد للشكوى من افتقار الشباب للمُثُل

العليا ولهدف مشترك يسعون نحوه جميعاً. غير أن كلمات أبي متخمة بمرارة وبضرورة قيادة القطيع البشري في درب واحد وإلى وِجهة واحدة، يختارهما له هـؤلاء الذين يعرفون مكان الفردوس. تتحدث المعلمة عن مشـكلة عليها بالفعل أن تتعامل معها، وكلماتها تشحذ إحساسي بالخطر.

أخبرهـا بسـذاجة، رغم أن هـذا ليس دفاعـاً، أن جانا لا تشـاهد التلفزيون وأنهـا تحتقـر من يضيّعون وقتهم عليـه. ثم أقطع الوعد الأبـوي المعتاد بأنني سأتحدث معها. أقول ذلك كأنني لم أتحدث إليها بالفعل في الموضوع نفسه.

- «أرجو منك ذلك. معاً سـنجد حلاّ ما، سـترين، فهي رغم كل شيء فتاة ذكيـة وموهوبة،» هكذا ختمت كلامها رغم ظنهـا بأن جانا مزعجة حقاً. وهي على حق.

أخرج من مبنى المدرسة، وأشعر فجأة بإجهاد شديد في السير إلى البيت. ربما بسـبب ثقب الأوزون ذاك، أو لأن كل هذا كثير عليّ. أقضي يومياً ثماني سـاعات في العيادة، نصف سـاعة فـي الطريق إلى العمل ومثلها فـي العودة منه، والطريق فـي المتـرو الموحش والباص المزدحم كافية لهدم كل قـوى المرء وتثبيط عزمه الفكـري. ناهيـك عن مهماتي في البيت لأبقي عجلة الحياة دائرة. وإن طلبت من جانا تأدية مهمة ما، تقوم بها بطريقة تجعلني أقوم بها مرة أخرى بعدها.

كانت ثمة أوقات اعتدت فيها أن أقرأ أو أسـتمع للموسيقى. هذه الأيام لم أعـد أفعل هذا للمتعـة، بل خوفاً مـن العيش بطريقة حيوانيـة. منذ وقت ليس بالطويل غططت في النوم أثناء حفلة موسـيقية، وفي المرات القليلة التي أقرأ فيها رواية، حين أقترب لنهايتها، لا أتذكر كيف بدأت.

لماذا بحق الرب ينهار كل شيء على رأسي الآن؟

أجرّ نفسـي إلى السـاحة الصغيرة أمام فيللا تشـابيك. لا أسـتطيع مقاومة الجلـوس علـى الجـدار الخارجي الواطـئ. لا أحـد يراني، ما عـدا كلب في المنـزل المواجه يبدأ في النباح. كتـب كاتبي لعزيزته أولجا: «هكذا أنا، بخير، لكن متعب قليلاً».

لم يعد الكثيرون يقرأون تشايبك هذه الأيام. فهو ليس كاتباً أمريكياً.

ألمح وأنا أقترب من منزلنا القامة المألوفة للشاب النحيل ذي الشعر الأحمر: جان، لا أتذكر بقية اسمه، الطالب السابق لزوجي الوحيد. لكن اسمه المسيحي يشبه اسم ابنتنا. ماذا يفعل هنا؟ يستحيل أن يكون في انتظاري، بالطبع.

رآني الآن وسار نحوي.

لكن ليس لديّ وقت له. يجب أن أتحدث مع ابنتي الجانحة لأعرف فيمَ تقضي وقتها حين تهرب من المدرسة.

ينحني الشاب برقّة ويعتذر عن قطع طريقي: يريد فقط أن يعرف كيف حال مدرّسه القديم. دقّ جرس شقتنا لكنه لم يجد أحداً بالبيت، فقرّر أن ينتظر.

- «لم يكن أحد بالبيت؟»، أسأل بحماقة.

يكرر: «لا أحد».

أخبره أنني لا أعرف كيف حال زوجي السابق إذ لم أتحدث معه منذ كنت عنده في المستشفى آخر مرة. أعرض عليه رقم هاتف كارل، لكنه يعرفه بالفعل. لا يريد أن يسأله مباشرة، يريد أن يعرف حالته الصحية الحقيقية فقط.

يدهشني اهتمامه. لكن الحقيقة أن زوجي السابق كان ماهراً في إثارة إعجاب الناس - وحبهم حتى - كما اكتشفت أنا بخبرتي الخاصة.

أقف معه على الرصيف هنا، رغم عدم وجود أسباب. ثم يقول:

- «الأمر أنني أردت رؤيتك مرة أخرى».

لا أقول «حسناً، ها أنت رأيتني»، لا أعرف كيف أجيبه. لكنني لا أنوي البقاء معه هنا على الرصيف، وليس من اللائق دعوته للبيت حالياً. ألاحظ كلمة «حالياً» وهي تنبت في ذهني.

- «إن كان وقتك يسمح بدقائق قليلة، لقد لمحت باراً صغيراً عند المنعطف، اسمحي لي أن أدعوكِ لمشروب....». ثم يضيف: «ظللت أفكر فيكِ منذئذ».

2

ظهرت ابنتي الحبيبة وقت العشاء. سلسلة جديدة حول خصرها - جديدة بالنسبة لها؛ لكنها مغطاة بالصدأ. الرب وحده يعلم من أي حيوان سرقتها. ثقب جديد في سروالها الجينز عند مستوى الركبة، حذاء أسود بنعل سميك وعال، أعلى كعب استطاعت شراءه. وقفت ضد هذه الأحذية البشعة الخرقاء لمدة طويلة، أرفض الضغط الغوغائي الذي يقبض على البنات جميعاً الآن، لكنني في النهاية استسلمت وأعطيتها الألفين كرونة، غالب الظن لأنني حين كنت في مثل عمرها لم يسمح لي أبي بارتداء سروال جينز حتى، كما لم يكن مسموحاً لي باستخدام أحمر الشفاه أيضاً. كانت الأحذية المسموح لي بها تليق بفلاح اشتراكي عجوز. وحال جانا أسوأ حتى من حالي حينذاك، إذ فقدت نصف بيتها لأنني عجزت عن التمسّك به من أجلها. أقول لنفسي دعيها تحظى ببعض المتعة على الأقل، مع علمي جيداً أن لا الملابس المهترئة ولا الأحذية الفظة ولا السلاسل ستعوّضها عن خسارتها. وسيكون من الخطأ أن يحدث ذلك.

- «جانا أين كنتِ طوال هذا الوقت؟».
- «عند بابا، ألم نتفق؟».
- «ذهبتِ لرؤية أبيك؟ لماذا لم تخبريني؟».
- «ألم تكن فكرتك أنتِ؟».
- «ذهبتِ لرؤيته مزينة هكذا؟».
- «بالطبع».
- «ماذا قال عن حذائك؟».
- «جعلني أخلعه».
- «وقضيت النهار كله عنده؟».

- «قمت له ببعض التسوق».

- «أحسنت. كيف حاله؟».

- «لكنكِ تعلمين ماما. لقد نحف على نحو بشع ويداه ترتعشان. عرضت عليه أن أعدّ له فطائر محلاة، فقال لي افعلي ما تريدين. ثم أكل واحدة منها فقط، وبدلاً من المحاضرات اللانهائية التي كان يلقيها، ظل جالساً هناك ينظر إليّ فقط من دون أن يقول شيئاً».

تجلس ابنتي وتحكي لي وهي تمضغ الخبز والجبن اللذين وضعتهما لها. واضح أن معاناة أبيها لا تفسد شهيتها.

ولأغيّر الموضوع أعلن:

- «كنت في المدرسة اليوم».

- «يا يسوع المسيح».

- «أنتِ لست فقط على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية، بل تهربين من المدرسة وتزوِّرين توقيعي أيضاً».

- «هل بعتِني؟».

لا أقول شيئاً.

- «ماما، أنتِ جوهرة. لكنني كنت أستخدم المصطلحات المناسبة وأنا أكتب إخطارات الأعذار تلك. وجدت الأسماء اللاتينية في دليلك».

بحق الرب، إنها تفتخر بمهارتها في التزوير.

- «هذا يكفي. سأتصل بالمدرسة مرة في الأسبوع على الأقل لأتأكد من وجودك هناك، وإن كنت تتسكعين سأجعل الشرطة تعثر عليكِ. أخبريني أين تذهبين حين تهربين من المدرسة؟»

- «ماما، مع أن هذا يصعب قوله، لكن حين يكون الجو جميلاً في الخارج، يكون الجلوس في الفصل مملاً حقاً».

- «أين إذاً تجلسين بدلاً من ذلك؟».

- «في متنزّه، مثلاً».

- «متنزّه؟»

- «نعم. حدائق جروبي أو متنزّه ريجير».

- «والبار؟».

- «نادراً جداً».

- «مع من؟»

تصمت للحظات ثم تسألني:

- «ماذا تعنين؟» تسألني لتكسب بعض وقت.

- «نادراً ما تجلسين في بار وحدك!».

- «لم أذهب لبار سوى مرتين فقط».

- «أو ثلاث مرات».

تنظر إليّ وترفع كتفيها قائلة:

- «ماما أنا لا أعدّ المرات، ليس مهماً، أليس كذلك؟»

- «لا تقولي لي ما هو مهم وما ليس كذلك. ماذا تشربين هناك؟».

- «لا أعرف. كولا».

- «جانا، لا تكذبي عليّ أنا على الأقل».

- «أقول لك بأمانة، ماما!».

- «لم تخبريني بعد مع من تتسكعين».

- «أنا لا أتسكّع!».

- «ماذا تفعلين إذاً؟»

في الغالب كانت ستشرح لي أن هذه هي الحياة، أو أن الحياة ليست كذا وكذا، لكنها تُسكت نفسها عن الكلام في الوقت المناسب وترفع كتفيها.

فأكرر سؤالي:

- «حسناً، هل تمانعين في إخباري مع من تجلسين؟».

- «بحسب الظروف».

- «هل هن فتيات أم ثمة فتيان أيضاً؟»

- «فتيات في الأغلب».
- «لكن يوجد فتيان أيضاً».
- «نادراً جداً جداً».
- «أكبر سناً؟»
- «كيف أعرف، إنهم جميعاً أغبياء على كل حال».
- «لماذا تتجولين معهم إذاً؟»
- «إنهم هم من يزحفون نحونا».
- «ماذا تدخّنين؟».
- «ماذا تقصدين؟».
- «أسألك ماذا تدخنين؟».
- «لكننا لا ندخّن».
- «لا تكذبي عليّ جانا».
- «حسناً، سحبت نفساً من سيجارة مرة أو اثنتين. لكنك أنتِ أيضاً تدخنين. وكان بابا يظل يتحدث عن رئتيك اللتين كالسمك المدخن».
- «هناك فرق بيننا، أقصد أنا وأنتِ».
- «أنا لا أقول شيئاً، أليس كذلك؟ لكن أبي لم يدخن قط».
- «لا تحاولي حشر أبيك في هذا. هل جربتِ الحشيش؟».
- «حشيش ماذا؟»
- «جانا، لا تحاولي هذا معي. إن كنت قلت لا لربما كنت سأصدقك، لكنني لن أصدق إنك لم تسمعي عن الحشيش قط».
- «أوه.. حسناً.. تعنين الهاش». تجيبني مترددة.
- «كم مرة؟».
- «لكن ماما، إن نبات القنّب أقل ضرراً من سجائرك».
- «جانا كفي عن وعظي طوال الوقت وقفي!».

تنهض واقفة.

- «اخلعي تي شيرتك وتعالي هنا».

تتصنّع وجه المُهانة، لكنها تخلع تي شيرتها وتقف أمامي. لا ترتدي حمالة صدر. لها صدري، لكنهما ما زالا صلبين، كجرسين.

- «أريني ذراعيكِ». أفحصهما بدقة ما وسعني. جلدها ناعم ونظيف وغَضّ، بلا أية آثار لحُقَن. حمداً لله. «جانا لماذا تفعلين هذا؟».

- «أنا لا أفعل أي شيء سيئ، أليس كذلك؟».

- «لا. أنتِ لا تفعلين شيئاً البتة».

- «المدرسة مملّة».

- «وما الذي ليس مملاً؟»

- «لا أعرف. الجلوس في المتنزّه مع البنات».

- «لكن لا يمكنك قضاء وقتك كله في الجلوس في المتنزه».

- «لا» أعرف ذلك».

- «على كل منا واجبات محددة. وأنتِ واجبك أن تدرسي، على الأقل بما يكفي لاجتياز الامتحانات».

تهز رأسها قائلة: «لكن لا جدوى من كل هذا فعلاً».

- «من كل ماذا؟».

- «من كل شيء.. وأنتِ تعرفين على كل حال».

- «ماذا أعرف؟»

- «جدي مات وكان على ما يبدو في حالة بابا الآن. ما الجدوى من كل هذا؟»

- «جدك كان عجوزاً، وأبوك أهمل ورماً خبيثاً».

- «لا أريد أن أكون عجوزاً، ولا أريد أن يصيبني ورم».

- «لا أحد منا يريد هذا. حسناً، كيف ترين حياتك إذاً؟».. أسألها أنا التي في سني هذه ليس لديَّ أدنى رغبة في الحياة.

3

أستيقظ بإحساس من كان يصرخ. لكن الحلم لم يكن عن ابنتي. كان أبي من ظهر لي. كان يستند إلى زوجي السابق ويصيح فيّ: ماذا فعلتِ؟ لقد أبعدتِه. أنت ابنة فاسدة وزوجة خائبة.

ذُعرت لأنه يجب أن لا يكون هناك؛ إنه ميت؛ لقد مات، حُرق في فرن، أُنزل إلى الجحيم من دون أن يُبعث من موته خلال ثلاثة أيام؛ فكيف يقف أمامي، لم تمسسه نيران، يتهمني، وعلى وجه ذلك المنافق زوجي السابق ابتسامة متكلّفة. مددت ذراعيَّ أمامي كأني أقصد دفع متهِمي في النيران ثانية ورحت أصرخ برعب.

أحدق في الظلام ويرتعش كياني كله. أرتعش خوفاً مرة تلو الأخرى. أنهض وأذهب للمطبخ، أصبّ نصف كأس نبيذ وأملأ بقيتها ماء وأعود إلى غرفة النوم. أترك النور مضاءً. أنا خائفة من الظلام.

حين كنت فتاة صغيرة - كم كان عمري حينها؟ خمس أو ست سنوات بالكاد - كان أبواي يرسلانني إلى لابوفا لأقضي الصيف عند جدتي ماري. كنت في العادة أقضي سبتمبر (أيلول) كله أيضاً. كنت أعشق جدتي. كانت تركب الخيل وتغنّي لي، وتخبز أيام السبت رقائق وخبزاً، وتصنع شعريتها الخاصة أيضاً. وكانت تدخّن هي الأخرى.

حينها كانت العمة فيندا لا تزال تعيش في غرفة صغيرة في بيت جدتي الريفي. كان لها شعر رمادي طويل غير مصفف، وكانت تقضي وقتها كله على ماكينة خياطة ماركة منيرفا بدوّاسة. لم يكن مسموحاً لها بالتدخين، لأنها لا يؤتمن عليها في التعامل مع أعواد الثقاب. كانت تعوّض عن هذا بشرب البيرة. أول شيء تفعله في الصباح. بدا لي أن عمتي لم تبرح غرفتها قط؛ كانت جدتي تُحضر لها البيرة والطعام. حين كنت أذهب إليها، كانت تبتسم

لي كاشفة عن نابين مصفرَّين مقوّسين وتقول شيئاً لم أكن في أكثر الأحيان أفهمه تماماً. لكنني كنت أفهم أن ليس بإمكانها الخروج لأنها ليست سوى إناء، أتون تضطرم فيه النيران دائماً، لا تحتاج سوى لنسمة هواء خفيفة، أو لأن تشرق عليها الشمس، حتى تنفجر لشواظٍ من نار. سيحدث هذا يوماً ما على كل حال. أسألها مرة، ألا تحرقك النار يا عمتي؟ فتجيبني، أوه، تحرقني يا حبيبتي، تسبب لي ألماً رهيباً هنا، وأشارت لصدرها وعنقها ورأسها.

ثم حدث ذلك حقاً يوماً ما. كنت ألعب في الباحة الخارجية حين انفتح باب غرفة عمتي فجأة وظهر كيان تشتعل فيه النيران وبدأ يركض نحوي. لوهلة لم أستطع فهم شيء وشعرت بأن شبحاً من أشباح الحواديت جاء ليخطفني، لكنني في تلك اللحظة عرفت أنها عمتي.

صرخَت: «أنا احترق، أشعلت النار في نفسي».

كانت ملابسها تحترق وبدا لي أن دخاناً يتصاعد من رأسها. جمّدني الذعر مكاني فيما تقترب مني تلك الرؤية النارية. ثم أخذت عمتي تصرخ على نحو فظيع وتطلب النجدة، وهربت. اندفعت جدتي من المنزل، وحين رأت ما يحدث، انتزعت سترة فضفاضة كانت معلقة على عارضة الباب وانطلقت بها صوب عمتي.

تدبرت أن تطفئ النيران، لكنها لم تنقذ عمتي. أخذوها إلى المستشفى حيث توفيت بعد بضعة أيام. أردت أن أذهب لأزورها لكنهم أخبروني أنها ذهبت. ذهبت لأنها لم تعد ترغب في البقاء هنا. احترقت عمتي وذهبت، وأنا بكيت.

كانت تلك أولى خبراتي مع الموت، خبرة مسكونة بالأرواح. لم تبرح صورة الكيان المشتعل تلك ذاكرتي قط، مع أنني رأيت صوراً مرعبة أخرى كثيرة. صور لمجاعات وجرائم قتل وحروب - إذ حدث الكثير جداً من هذا منذ ذلك الحين، إلى حد أعجز عن حصره، وكان واضحاً أن واحداً من كل خمسة جنود لم يزل طفلاً.

لاحظت أن كل معارفي لديهم على الأقل خبرة صادمة واحدة مثل هذه في طفولتهم. تجمّد صديق زوجي المقرَّب حتى الموت في الجبال. حين كانت ليدا صغيرة، اصطدمت سيارتان أمام ناظريها مباشرة، واضطروا لفصل الموتى من الحطام باستخدام مشاعل الأكسجين. ناهيك عن أمي. بالطبع لم تر ما حدث لأمها وخالاتها وأولاد خالاتها، لكن لا شك أن ما حدث لهم أثّر في حياتها.

حينها بقيت في لابوفا، وبدأت أفكر في الظاهرة الغريبة، بأن المرء قد يكون موجوداً في لحظة، وفي اللحظة التي تليها بالضبط قد يكون ذهب. وبدا لي أمراً حزيناً جداً أن كل شيء، كل شيء تماماً، زائل، بما في ذلك أنا. لم يكن من مخرج. كان الموت الحاكم الأعلى، وإن دعاك فعليك أن تلبي النداء ولن تعود قط.

الغريب أن يُصور ذلك الحاكم كامرأة عجوز أو هيكل عظمي يحمل منجلاً.

لكن جدتي سَرّت عني وغنت لي أغنية عن الموت، فهمت منها أن الموت ليس شريراً. لم يكن هيكلاً عظمياً ولا امرأة عجوزاً، كان فتاة صغيرة مثلي. بوسعي تذكر كلمات الأغنية حتى الآن، مع إنني لم أعد أغنيها:

كانت هناك امرأة عجوز

لها ابن واحد

مرض ورقد في الفراش

عطشان يريد الماء

ولا أحد ليذهب للبئر

فذهبت أمه العجوز

وفي طريقها التقت طفلة صغيرة

رسولة من الرب لطيفة

جاءت لأخذ روحه العزيزة

إلى الجنة،

النعيم بيته.

فهمت من هذا أن الموت ليس غريباً يأتي ليفرق بين اثنين. بل فتاة صغيرة أو فتى صغيراً أرسله شخص ما ليحمل الروح إلى أعلى إلى الجنة، حيث الحياة أجمل منها على الأرض.

لم أكن أعرف ماذا كانت الروح- كنت أعرف فقط كلمة «لوح»[1] الخشب. وحين سألتهم عن معنى كلمة روح لم يستطيعوا تفسيرها لي.

حين كنت عند جدتي كان بوسعي الركض هنا وهناك في الخارج مع الأطفال، لكنني كنت من حين لآخر يمسّني شيء ما فأشعر بعدم الرغبة في رؤية أحد. كان خلف البيت، في ركن قصيّ من الحديقة عند السياج، شجرة جوز ضخمة لها جذع مجوّف. كان ثمة مساحة تكفي بالكاد لشخص بحجمي. كنت ألوذ هناك في بيتي الخاص، حيث أقضي ساعات. ماذا كنت أفعل هناك؟ لا أتذكر. كنت آخذ معي دميتي القماش- شقيقتي- ودبدوب محشوّ. كان هو زوجي الأول حقاً، مع إنني لم أعد أعدّه كذلك الآن. كان مخلصاً تماماً وله عينان كبيرتان بنيتان زجاجيتان. كنا نجثم ثلاثتنا في الكهف الصغير المفعم برائحة الخشب والراتنج. الضباب من فوقنا وخلفنا. كنت أسدله كستار. لم يكن أحد يرانا أو يسمعنا، نحن فقط من كنا نسمع صهيل الحصان في الإصطبل وصياح البط في الباحة.

في أحد الايام أخذوا الحصان بعد الغداء إلى المسلخ، وذبحوا البطات من أعناقها، منع الطبيب جدتي من التدخين، أكلنا شِعرية معلّبة من المتجر، ولفظت شجرة الجوز أنفاسها الأخيرة وغطّت في النوم من هرمها. ماذا حلَّ بزوجي الدبدوب المحشو؟ اختفى في مكان ما. لم يعد موجوداً بعد الآن.

---

(1) تسأل كريستيانا الطفلة عن معنى كلمة «روح»، ولا تجد لها معنى، فتربطها بكلمة «لوح» الخشب.

هكذا الأمر مع الأزواج: يأتي يوم يختفون فيه ولا يعودوا موجودين بعد الآن.

أشعل سيجارة. دخّنت أول مرة وأنا أصغر من ابنتي الآن بعامين. ارتكبت الجرم في المتنزّه الكائن خلف المدرسة مباشرةً. وبالطبع شاهدتني معلمة التربية المدنية، آنسة عجوز مغضّنة. بلّغت بابا على الفور. ظل يضربني إلى أن أقسمت له يميناً كاذبةً بأن تلك ستكون آخر مرة أدخن فيها. لكنني أقسمت لنفسي في اللحظة نفسها أن أدخن وأشرب وأخرج مع أولاد نكاية فيه فقط. حتى وإن زرّق جسدي ضرباً. فقط سأكون أكثر حرصاً ومكراً. ماذا كان سلوكه؟ طبعه هذا: هذا اليقين بمعرفة الحقيقة ومن ثم الحق في الحكم على الآخرين، وأخذ القرارات عنهم، ومنع أي شيء لا توافق عليه أو لا يتفق معك؟ هكذا حاول إخضاعي، هكذا حاول هو ورفاقه استعباد الجنس البشري كله. لن يستطيع طاغية أن يحكم ولو لدقيقة واحدة من دون أمثاله. على كل حال، لم أستطع تدبّر أمري معه كما تدبّرت أمي أمرها مع والدها. لم أترك البيت إعلاناً عن ازدرائي لكل ما يمثّله أبي. لم أستطع سوى إلحاق الضرر بنفسي والتأكيد على حقي في أن أضرّ بنفسي ولو على نحو لا يمكن إصلاحه إن شئت.

استطاعت أمي أن تقف وتواجه والدها، غير أن ذلك بدا كأنه استنزف كل طاقتها الثوروية فلم تعد قادرة على الوقوف ومواجهة زوجها. تحمّلت حتى صفعه لها على وجهها. حسناً، لقد تدبّرت أن أقف لزوجي ولخيانته، من أجل كل ما عاد به ذلك لمصلحتي.

أعلم أنني لن أنام. بجوار فراشي كتاب كنت قد بدأت في قراءته وأسفله عدة مجلات، لكنني بدلاً من ذلك أنهض وأذهب لغرفة نوم ابنتي حيث ترقد نائمة بوداعة. لا تغطي نفسها وقميص نومها انزلق عنها فترقد عارية تقريباً. لم تعد فتاة صغيرة بعد الآن، إنها امرأة. اتسعت مؤخرتها وامتلأ فخذاها؛ سيكون عليّ أن أنتبه لما تأكله: للسوائل والمواد الصلبة التي تدخلها في جوفها، ماذا تدخن وأين تذهب حين تكون في الخارج. أحرص على أن لا أدعها تتناول

سكّريات كثيرة، أحياناً أستسلم وأدعها تتناول بعضها شريطة أن تغسل أسنانها على الفور. لقد انتبهت جيداً لأسنانها حتى إنها لا تعاني من أي تسوّس، لكن ماذا عن بقية الأجزاء التي لا يمكن رؤيتها حين تفتح فمك لتتحدث أو لتبتسم؟

لا أحب لعب دور رجل الشرطة معها أبداً، طريقة أبي معي. لن تفيد في جميع الأحوال. حين يريدون وضع أحدهم تحت المراقبة، لن تكفي كتيبة من رجال الشرطة. ماذا عساي أقول لها؟ كيف أقنعها بتغيير طريقتها؟ فيم قصّرت؟ ألم أمنحها ما يكفي من الحب، أم أنني، على العكس، كنت عطوفة جداً معها؟

رغم كل شيء نحن نتفق معاً جيداً. بقينا معاً وحدنا أوقاتاً كثيرة، حتى قبل أن يتركنا أبوها. كان يخرج لمباراة تنس - بحسب ما كان يقول على الأقل - فنلعب نحن بدمى باربي. كان لدينا ثلاثٌ منها: واحدة بيضاء وأخرى سوداء وواحدة بعينين لوزيتين. وكنت أحكي لها حدوتة طويلة مسلسلة عن أميرة ذكية وشجاعة بمقدورها قتل التنانين التي هزمت الأمراء السخفاء التافهين وتفوق بدهائها كل من يحاول مخادعتها. تحب السفر وصعود التلال وهبوط الوديان، ولديها حوت مدرَّب على القتل يحملها على ظهره عبر البحار الدافئة.

وحين كانت فتاتي الصغيرة تمرض، كنت دائماً أستيقظ قبل أن تستيقظ وتحتاج لمساعدتي أو لحضوري على الأقل.

ثم تُركنا وحدنا، وظللت آخذها إلى الشاطئ كل صيف بعناد. لم نر أية حيتان قاتلة، بل كنا نقضي وقتنا في فنادق باهظة الثمن بلا داع. وكنت أرسلها إلى الجبال كل شتاء بنفس القدر من العناد. كان لديها أفضل المزالج والأحذية ذات الرقبة العالية. بهذه الطريقة أفسدتها وآثرتها على نفسي لئلا تشعر بالحرمان من أي شيء، فقط لأنني لم أستطع التمسك بأبيها. لم يمض وقت طويل منذ أن اعتدنا قضاء أمسيات معاً. كنا نجلس معاً في غرفة نومي لأنها أوسع الغرف ونلعب بالجيتار ونغني أغاني روحية أو أغاني من فترة شبابي.

أميل عليها وأمسّد شعرها. تتنهّد الفتاة المرأة الصغيرة وتزيح يدي عنها وهي نائمة كأنها تهشّ ذبابة صغيرة.

أعود لغرفة نومي. ما زال صندوق كتابات أبي يقبع بجانب الدولاب. أفضت لي لوسي ذات مرة أنها كلما أمسكت بموسوعة أو كتاب عن مصورين فوتوغرافيين تبحث أول شيء عن أي ذكر لها. أنا لا أبحث عن نفسي في موسوعات. الناس بحاجة لطبيب أسنان لعلاج أسنانهم، وليس كمثل أعلى يقرأون عنه. لكنني، على الأقل، سأبحث عن كيف رحَّب أبي بمجيئي وكيف تحدّث عني.

يجب أن أمر بالأحداث الكبرى في ذلك العهد قبل أن أصل لهذا اليوم الشهير. أتوقف للحظة عند إحدى المحاكمات الاستعراضية المذهلة، التي بات الثوار فيها مخلصين تماماً لأسلافهم وبدأوا في قتل أحدهم الآخر. خاننا رفاقنا! ليس مفاجأة أن جميعهم تقريباً كانوا أجانب، صهاينة، يهود بمعنى آخر! هكذا قابلوا ثقة شعبنا فيهم!

أتساءل ماذا أخبر ماما. وماذا كان رأيها وهل تجرّأت وقالته بصوت عال. ربما كانت منشغلة بي، كنت في بطنها بالفعل. ماذا كانت فكرتها عن العالم الذي تلدني فيه.

أظل اتصفَّح الدفاتر. نعم، بالطبع، ها هو الوجه المجمّل جيداً للقائد العام يحدق فيّ من الصفحة، داخل إطار أسود. لا بثرة واحدة، ولا ابتسامة عطوفة كذلك: لن تكون لائقة في لحظة حداد. أسفلها ملحوظة قصيرة تقول: عقدت تأبيناً خاصاً في مقر التجمع. قلت: توفي أحد العباقرة العظماء الذين أنتجتهم البشرية، مفكر وفيلسوف وقائد عسكري وثائر ومنقذ حياتنا ومحرر شعبنا، رجل حمل قلبه حباً كافياً للبشر أجمعين. عظيم مدحه الشعراء من جميع أنحاء العالم. أكّدت على ضرورة أن نظل مخلصين لإرثه. عجزت للحظة عن الكلام لأن مشاعري طغت عليّ. لاحظت أن المستمعين تأثروا هم أيضاً والنساء بكت. جاءتني الرفيقة فِيْ. أوفا بعد الاجتماع وكانت تنشج. قالت:

«ظننت أنه لن يموت أبداً وأن الأطباء السوفيات لن يدعوه يموت». قلت لها: «حتى هو كان فانياً، لكن إنجازاته ستبقى إلى الأبد.»

أبي أحمق. أقلّه لم يرتكب أخطاء إملائية. لم يحظ بتعليم، لكنه كان مدقّقاً. لا ذكر لي، بالطبع، أقلب الصفحة. ذِكرٌ لي أخيراً: أنجبت ابنة. لم أرها بعد. اقترح الرفاق احتفالاً، لكنني رفضت. كيف لي أن احتفل في الوقت الذي يحزن فيه العالم التقدمي بأسره. لكان ذلك خطأ إنسانياً وسياسياً. أنا خطأ سياسي ببساطة. ليس صحيحاً تماماً أن تأتي للعالم في اللحظة التي ينوح فيها التابعون حسرةً على طاغيتهم.

أعلنت جريدة اليوم أن الاتحاد السوفياتي لديه القنبلة - هو الآخر. أخبار عظيمة لكل المقاتلين من أجل السلام العالمي!

أغلق الدفتر بقرف.

حين ذكرت للشاب الذي دعاني لكأس نبيذ ذاك اليوم أنني ولدت يوم وفاة الدكتاتور السوفياتي، أعلن بفرحة نصرٍ تقريباً أنها صدفة قَدَرية. أي صدفة قَدَريّة؟ لم أسأله.

أعرف الآن أن اسمه جان ميساك (أو مايك) أو ميكي ماوس. أدهشني لكونه خجولاً تقريباً وطفولي قليلاً. الأرجح أن لديه عقدة بسبب عدم إكمال دراسته. أظن أنه لهذا أكد أكثر من مرة على أهمية العمل الذي يقوم به. من الواضح أنه ليس مسموحاً له بقول الكثير عن عمله لأنه يتعلّق بالكشف عن المتعاملين مع جهاز أمن الدولة التابع للنظام السابق.

حاول أن يخبرني بكل الأشياء الأساسية عن نفسه بسرعة هوجاء. يعيش مع أمه، لكنه يزعم أنه يرفض مساعداتها. أظن أنه يخدع نفسه فقط؛ فقد ذكّرها عَرَضاً أكثر من مرة: «تظن أمي... تقول أمي.... أمي لا تحب...».

أخبرني أيضاً أنه يشارك عادةً في ألعاب تمثيلية معقّدة، يتمثّل فيها الناس، وهم جلوس، شخصيات تاريخية أو خيالية: ملوك، مهرّجون، ووحوش وأقزام ومخلوقات فضائية أيضاً. أخبرني كأنه يشعر بالعار لأنه ما زال يلعب

هذه الألعاب. وأنه يشارك في تلك الألعاب لينسى ما يواجهه يومياً حين يقرأ تقارير مخبري الشرطة.

ثم تحدث عن زوجي السابق، موضحاً أنه هو من أثار اهتمامه بالتاريخ ولهذا درسه في الجامعة.

ليس لدي كثير اهتمام بالتاريخ. يُقرفني وصف المعارك والانتصارات الشهيرة. أتخيل دائماً الجنود الذين خُلّفت جثثهم في أراض غريبة وهؤلاء الذين ينتظرون عودتهم. نساء ينتظرن عودة رجال لن يعودوا أبداً، أطفال يكبرون من دون أن يسمعوا صوت رجل.

ذكّرني جان أن معظم الجنود ليس لديهم أطفال بعد، فقد اعتادوا تجنيد غير المتزوجين.

قلت له حتى مع ذلك، كان أحد ما في انتظار هؤلاء الذين لقوا حتفهم. وفي الحروب الأكثر قرباً لعصرنا الحاضر كانوا يجنّدون الجميع سواء كانوا في العشرين أم في الخمسين. حاول محبوبي كارل تشايبك حين كتب الأم قبل الحرب العالمية الأخيرة أن ينظر للتاريخ بعيون امرأة. لم يُوفّق في هذا في النهاية، لأنه جعلها ترسل ابنها الخامس والأخير إلى الحرب. لم أكن لأفعل شيئاً كهذا أبداً. أخبرته أنني أفضّل عدم الاعتراف بقوانين عالم الرجال التي تستلزم نزف الدم وذرف الدموع.

قال إنه يفهمني وأقرَّ بأن عالم الرجال قاسٍ بالأساس. ولا يسعه تخيل امرأة تفني نفسها من أجل إزالة أقوام أو أجناسٍ أو طبقات اجتماعية كما فعل الدكتاتور في العقود الماضية. ثم راح يتحدث عن الثورات، من دون أن يغفل درساً واحداً من دروس زوجي الوحيد عن الطغاة الذين غيروا مصير روسيا وشرعوا في تغيير مصير العالم.

تحدّث بشغف، لكنني لم أركز في ما كان يقوله: كنت مأخوذة بعينيه. من غير المعتاد أن تجد أصهب بعينين كبيرتين داكنتين. لا أتذكر حتى إنني سبق أن أحببت أحداً له مثل تينك العينين. كانت تجذبني العيون الزرق أو الرمادية

الأردوازية. كعيني زوجي الأول والوحيد، مع أن نظرته كانت باردة. لكن هذا الشاب ينظر لي بتوسّل تقريباً.

جلست معه لفترة أطول مما تقتضيه الحكمة. تركته يطلب لي ثلاث كؤوس نبيذ، مع أنه شرب فقط هذا الروث الحلو الذي يدمر الأسنان والصحة.

حسبت أنه أصغر مني بخمس عشرة سنة تقريباً.

لأي جنون أنا متجهة؟ تحضرني بيوت شعر لإسنيان[1] وجدتها مؤثرة ذات مرة:

«لست آسفا، لست طالباً، لست باكياً

سيمر كل شيء كدخان شجرة تفاح أبيض

سيمحوه ذهب الخريف

لن أعود شاباً مرة أخرى».

كان في السادسة والعشرين حين كتب هذا.

ماذا عني أنا إذن؟ ما هذه الأوهام؟ قد يواعد هذا الشاب الذي ينظر إليّ بهذا التوسل ابنتي جانا بمنتهى السهولة.

شيء ما يجعلني أبدأ. أعيد غطاء الصندوق إلى مكانه وأذهب بهدوء لغرفة نوم ابنتي حيث لم تزل نائمة كما تركتها منذ لحظة، مؤخرتها العارية موجهة تجاهي. أضيء المصباح المجاور لفراشها. أميل عليها، وأدقق النظر كمحقق خاص في هذا الجلد الناعم الذي لا أثر لمرور الزمن عليه.. كل ما أحتاجه عدسة مكبرة. وبالتأكيد سأعثر عليها، بقعة حمراء صغيرة، أثر حقنة ربما. إنهم يتفوّقون على أنفسهم في إخفاء الأمر. هذا شيء يتعلمونه بسهولة، وكلما زاد ما يخفونه كلما زادت براعتهم في اخفائه. لعلها قرصة ناموسة.

---

(1) سيرجي ألكسندر إسنيان (Sergei Alexanderovich Yesenin 1895-1925) شاعر روسي يعد من أشهر الشعراء الروس في القرن العشرين من أعماله (قرمزية الفجر 1910)، و(وداعاً صديقي وداعاً 1925) قصيدة وداعه الأخيرة قبل أن ينتحر.

يدخل الناموس من النافذة أحياناً. لعلها خدشت نفسها. الأفضل أن لا أفكر في الأمر. الأفضل أن لا أنظر. سأحدِّثها في الأمر غداً.

أعود للفراش.

أرجوك يا ربي قل إن هذا ليس حقيقياً.

أحاول التفكير في أحد من أصحابي السابقين الذين قد يمكنهم مساعدتي.

هذا هراء. إنها تلك الراهبة المتنكرة في زيّ معلمة تشيكية التي غرست الفكرة في رأسي. لا يمكن أن تفعل ابنتي شيئاً بهذا الغباء.

هذا هو الأمر: إنها ابنتي. أسلافها جدة مجنونة، ومن قبلها جد منتحر: عدد حالات الانتحار في العائلة يتجاوز الحد الصحي. وقبل كل هذا أم تعاني من اكتئاب لا يطيقه رجل، حتى وإن ركعت أمامه واحتضنت ساقيه.

- «أنتِ جميلة جداً، جميلة جداً». هكذا قال تلميذ زوجي السابق الأصغر مني بخمسة عشر عاماً، وحدق فيّ كأنه على وشك إعلان حبه.

عليّ أن أذهب لأرى زوجي السابق. أن أخبره أن ابنتنا، الشيء الوحيد المشترك بيننا طالما هي حية، تدخّن القنّب وربما ما خفي كان أسوأ. ربما لم يعد الأمر يعنيه. لم تعنه ابنته كثيراً قط. لم يتركني أنا فقط، تركها هي أيضاً.

أرجوك يا ربي، اجعل كل ما أمرّ به الآن مجرد حلم.

لا. ليس كل شيء، فرغم كل شيء يجب أن يبقى شيء ما من حياتي. لكن ثمة القليل جداً مما أود استبقاءه حين أعود لحياتي الحقيقية بعد اليقظة.

4

أنام لوقت متأخر. لا يوقظني رنين المنبّه. استيقظ فأجد جانا تقف بجانبي، ترد لي زيارتي الليلية. «مامي. ألن تذهبي للعيادة اليوم؟»

أقفز من الفراش. الصداع النصفي يشق رأسي كفأس، لا أذكر متى نمت. «أعددت لكِ إفطاراً ماما». وبالطبع ثمة قدح قهوة على الطاولة وبعض الخبز

بالزبـدة كذلـك. تغـرس قبلـة على خدّي؛ رشّـت نفسـها مرة أخـرى بعطري الشانيل الذي أدّخره للمناسبات الخاصة فقط، ولا تطيق صبراً لتذهب.

أؤخّرها قائلة:

- «جانا، أخبريني: أكان حشيشاً فقط؟».
- «ماما، ماذا أصابك ثانيةً؟».
- «أجيبيني. هل تعاطيت شيئاً بالحقن؟».
- «ماما، لابد أنك تحلمين - إما تحلمين أو أنه جنون الارتياب».
- «نعم أو لا».
- «بالطبع لا! لست مدمنة مخدرات غبية، أليس كذلك؟».

تقسـم أنها لا تكـذب. تبدو مثـالاً للصحة ومفعمـة بالطاقة، وأنـا أريد أن أصدّق أنها سليمة تماماً وأنني فقط المهووسة بالقلق.

أصل العيادة متأخرة ثلث ساعة.

تساعدني إيفا في ارتداء مريولي الأبيض. أشكرها وأطلب منها أن تُعِدّ لي قهوةً قوية.

ظللنـا معاً أنا وهي لأحد عشـر عاماً، الآن تفهـم إحدانا الأخرى بلا حاجة لكلمات. ليس عليّ أن أخبرها كيف أحب الأشياء. تسألني إن لم تكن متأكدة. نحن معاً كل أيام الأسبوع وفي الإجازات أحياناً. تملّكت حين تزوجت كوخاً صغيـراً على صخرة جبلية أعلى فلتافا خارج براغ مباشـرة. لا أملك شـيئاً من هذا القبيل، مع ذلك كلما خرجت من المدينة أشـعر براحة كبيرة وتسقط عني كل مسئولياتي.

لذلـك أحيانـاً نلبي أنا وجانـا دعوتها للذهـاب هناك، ويدهشـني أن ابنتي تتفق مع إيفا أكثر مما تتفق معي. أحياناً تأخذها إيفا للقداس في كنيسة القرية. لا أرافقهمـا. ذهبت للكنيسـة لأقرأ الكتاب المقدس فقط نكايـةً بأبي. ما كان يهمّني إن كانت كنيسـة بروتسـتانتية أو كاثوليكية. حتى إنني تجولت ذات مرة داخل كنيس في لندن؛ لكن لا شـيء من هذا كان له أثر على روحي. مع ذلك

أعتقد أنه من الجيد لجانا أن تخشع لشيء ما بين الفينة والأخرى.

يعود الفضل لإيفا أن من بين مرضاي «الأب كوستكا» الذي يجلس الآن على الكرسي في انتظاري. في الوقت الذي ارتدى فيه أبي زي الميليشيا، أُرسل الأب كوستكا لسجن ليوبولدوف، لذلك أشعر نحوه بالذنب. لكنه لا يعرف شيئاً عن هذا. يخاطبني بـ «سيدتي الشابة»، وحين لا يستطيع الكلام يبتسم لي بعينيه على الأقل. إن سألته بماذا يوصي أُمّاً ليست مسيحية أن تقوله أو تفعله لمساعدة فلذة كبدها ابنة السادسة عشرة في التصالح مع الحياة والعثور على أي معنى فيها. بماذا سيجيبني؟

لكن عليه في هذه اللحظة أن يُطبق فكيه، وما زالت حجرة الانتظار مزدحمة بالمرضى. سأسأله المرة القادمة. يقول وهو ينهض من على الكرسي: «يبدو عليكِ الهَمُّ قليلاً سيدة بلينا».

لا أقول له إن أسباب البهجة قليلة، بل أخبره فقط أنني نمت بشكل سيئ. «ستحدّد لك الممرضة موعداً جديداً». أنهي قهوتي سريعاً.

لكن إيفا تقول وهي تقلب أوراق دفتر المواعيد:

- «ليس يوم الأحد، عن ماذا كانت عظتك يا أبتي؟»

- «أنتِ تعرفينني يا أختاه، ليس لديَّ سوى موضوع واحد».

- «نعم. أعرف، الحب».

- «هذه المرة كانت عن التواضع والتصالح أكثر».

تنتهز إيفا فرصة أننا وحدنا وتقول:

- «تبدين غريبة قليلاً اليوم حقاً».

- «سأخبرك بكل شيء حين يسمح الوقت».

لم يسمح لنا الوقت حتى وقت الغداء. تقول إيفا بعد أن استمعت إليّ:

- «لا تثيري جلبة على القليل من الحشيش. كلهم تقريباً يجرّبونه هذه الأيام».

أبتلع حساء الجلاش الدهني وأريد أن أومئ برأسي موافقة على أنه ما

من خطب. لا أستطيع التحدث. أراهن أن أولادها لا يقومون بأشياء من هذا القبيل. أقول لها:

- «وماذا عن هروبها من المدرسة؟».
- «أكنتِ تحبين الذهاب إلى المدرسة؟».
- «كنت أذهب مع ذلك».
- «كان ذلك زمناً مختلفاً. بالإضافة إلى أن أباكِ كان شخصاً صعباً».

كان زمناً مختلفاً وأبي تصرّف كأنه شخص صعب. هذه الأوقات أفضل، أو ثمة المزيد من الحرية على الأقل؛ والد ابنتي ليس صعباً، إنه مفقود فقط، ذهب إلى مكان آخر.

تؤمن إيفا بشيء. ترى أنه لابد من وجود شيء ما يتجاوز البشرية، وإلا فلن يكون ثمة معنى للحياة. وهكذا تُربّي أولادها. المشكلة أنني لم أستطع تعليم ابنتي الصغيرة أية عقائد لأنني أنا نفسي لست واثقة من أن للحياة أيّ معنى.

عند خروجي من العيادة في نهاية ذاك النهار، أجد ذلك الشاب الذي يصغرني بخمسة عشر عاماً ويراني جميلة واقفاً هناك بانتظاري. يحمل باقة ورد. ليس جاداً بالتأكيد في أن يهديني خمس وردات بيضاً. لابد أن الأمر اختلط عليه وظنني شخصاً آخر.

5

حين كنت فتى صغيراً كانت لديّ رغبة ملحّة في السفر إلى أفريقيا وصيد الأفاعي. كنت قد قرأت عن صائد أفاع بجنوب أفريقيا لدغته ممبة[1] سوداء، كان قد سبق ولدغته العشرات من الأفاعي من قبل، لكن ليس من بينها أفعى الممبة، تلك تصرعك لدغتها في خلال خمس دقائق فقط. لكن هذا الصياد

---

(1) أفعى سامة.

كان يحمل حقنة المصل، فحقن نفسه واستطاعوا نقله للمستشفى حيث كان ما زال لديه بعض القوة ليطلب منهم وضعه على جهاز التنفس الصناعي. ثم أصيب بالشلل. كان واعياً بكل شيء وباستطاعته سماع كل شيء، لكنه لم يستطع التجاوب. ظل لستة أيام يستمع للأطباء يتحدثون عنه ويناقشون أمر نجاته. نجا بالفعل. أردت أن أمر بخبرة من هذا القبيل. أردت أن أمتلك ممبة سوداء، لكنها ضخمة للغاية: البالغة منها قد تنمو لأربعة أمتار طولاً، وشقتنا صغيرة، علاوة على ذلك، أين سأجد أفعى ممبة؟

لكنني صنعت حاوية زجاج ووضعت فيها أفعى جميلة لها قرن أحمر، وأفعى جرسية أيضاً. سيستروروس كاتيناتوس[1]، كنت أصطاد لها الضفادع. يَعُدّ الناس الأفاعي رمزاً للشر والغدر. هذا ليس صحيحاً. إنهم هم من يتصفون بالغدر، الأفعى عليها إطعام نفسها ببساطة. وحين لا تكون جائعة أو لا تشعر بتهديد تكون غير مؤذية.

لكن ماما لم تتحمل الأفاعي والضفادع، فأعلنت ذات يوم: إما أنا أو هذه «الوحوش». فاضطررت لبيعهما. ما عاد لديّ أفاعٍ، لكنني ما زلت أعيش مع أمي.

هذه الأيام أُشْبِعُ جزءًا من رغبتي في المغامرة في العمل، أو في ألعاب الأبطال. يمكنك في هذه الألعاب أن تسمع صوت طبول حرب إفريقية إن أردت ذلك. لكل لاعب عدد من الحيوات، لذلك يمكن للمرء أن يتهور إلى حَدّ أبعد مما قد يفعله في الحياة الحقيقية.

التقيت صاحبتي الأخيرة، فيرا، في واحدة من تلك الألعاب. كانت تلعب، كما قال الكتاب، دور فتاة غنية خطفها الإرهابيون. لم تكن خائفة من القتل أو من سوء المعاملة بل ظلت تغازل المجهول الذي كنت ألعب أنا دوره بطريقة مثيرة. بدأنا نخرج معاً في الخريف الماضي. كان يمكن أن يكون لنا طفل،

---

(1) Sistrurus catenatum الاسم العلمي للأفعى الجرسية.

الأمر الذي كان سيسرّ أمي بالطبع، لكن فيرا لم تكن ترغب في إنجاب أطفال إلى أن تنهي الدراسة في الكلية، ولم أكن أنا الآخر أتوق للأمر. انفصلنا منذ شهر.

أعتقد بأنني جرحتها حين اقترحت الانفصال. أرادت أن تعرف ماذا يزعجني فيها.

ماذا أقول لها؟ إن ما يزعجني هو قلة خبرتها في الحياة، وأنها لا تعرف شيئاً عن الماضي. إنها لا تعي شيئاً مما يحدث حولها هذه الأيام، وليس لديها أدني فكرة عن الحياة التي تريد أن تعيشها. لا شيء يرعبها أو يقلقها، لكن لا شيء يثيرها أيضاً. إنها تغازل الحياة فقط.

لم أجد خطأ ما فيها على نحو خاص، لا شيء يمكن صياغته في كلمات، لا شيء يمكنها فهمه. أدركت أنني فقط في مواجهة الخواء مرة أخرى. إنني عاجز عن استكمال شيء تمكّن آخرون من استكماله. أم أن الأمر على النقيض من ذلك، وأنا قادر على وضع نهاية سريعة لعلاقة كانت ستنتهي في جميع الأحوال؟

هذا الشعور بالدوار كأنك تقف فوق خواء يعني أنني ما زلت متفرّداً. في أكثر من مناسبة لاحت في الأفق لحظة منذرة بأنني سأغيّر حالي، بأنه من المحتمل أن لا أسمع طبول حربي مرة أخرى أبداً، ناهيك عن الانطلاق للبحث عنها، لكن في تلك اللحظة تبدأ الطبول بالقرع بدويٍّ عالٍ جداً إلى حد أن أهرب. ولدت كالسائر على حبل مشدود يخاف من الأسلاك ما لم تكن على الأرض. تلك مبالغة. قد يعتبر الكثيرون عملي الحالي، الذي صار رتيباً بالنسبة لي بالفعل، مثل حفظ التوازن أثناء السير على حبل مشدود أعلى الجراند كانيون. ربما كنت بالفعل أراوغ طلقات رصاص وسهاماً لكنني فقط لا أسمع أزيزها. فقط أرفض أن أصدّقها. أعرف حقائق قد تدمّر مستقبل الكثيرين لذلك لن أندهش إن حاول أحدهم قطع الحبل الذي أسير عليه. حينها سيتنفس الكثيرون الصعداء بعد أن يُكسر عنقي ولا أحد سيذرف دمعة.

أفضِّل أن لا أحدِّث أمي عن عملي. أتظاهر أمامها، وربما أمام نفسي أيضاً، أنني لا أفعل شيئاً سوى العبث في وثائق شتى ليست بذات أهمية عمَن حضر اجتماعاً وكم عدد من شاركوا في تظاهرة حمقاء. لا أحد يعلم أنني أنسخ وثائق سيحاول بعض من أصحاب النفوذ الآن، يوماً ما، أظنّه قريباً جداً، تدميرها حفاظاً على أنفسهم. لا أحد لديه فكرة، حتى جيري _ا لبدين طيب المعشر الذي يعمل في الإذاعة، رفيقي المخلص في ألعاب الأبطال – عن الأقراص التي أحتفظ بها في مكتبه. من حسن الحظ أن رئيسي المباشر «أوندريج» يفعل المثل؛ أنا واثق من هذا، وأظن أن الآخرين أيضاً كذلك. لن يفيدهم قطع أحد حبالنا؛ سينشر الآخرون ببساطة كل شيء. هكذا نحمي أنفسنا.

أحياناً تلمّح أمي بإشارات واضحة إلى أقرانها الذين لديهم أحفاد. بالنسبة لها الأطفال مصدر سعادة كبرى.

بودي حقاً أن أمنح أمي بعض السعادة؛ إذ لم تحظَ بنصيب كبير منها في حياتها. بادئ ذي بدء انتظرت أبي تسع سنوات تقريباً، وحين أُطلق سراحُه لم يكن لديهما شقة أو نقود. ثم قضت حياتها بأكملها في أعمال تستلزم الطاعة العمياء. لا أعرف مقدارَ ما سلبته الحياة منها. لكن موقعها فيها ملأها بمرارة.

كنت أميل للشعور بالشفقة على أمي، لكن أبي كان مثلي الأعلى. كان بالنسبة لي تجسيداً للشجاعة والكرامة. عمل قسراً في مناجم اليورانيوم لمدة خمس سنوات، وحين أُطلقَ سراحُهُ من المعتقل أخيراً لم يكن مسموحاً له بالعمل سوى كأمين مخازن، مع أنه درس الرياضيات وكان يتحدث خمس لغات. هكذا كان الحال تلك الأيام. لكنه لم يَشْك. بل قرر أنهم دمّروا ما يكفي من حياته فلماذا عليه أن يدمّر ما بقي منها بالأسى؟

دأب حين كنت صغيراً على أن يقرأ لي من حكايات بوهيميا القديمة وبعد ذلك ساعدني في مواد الرياضيات واللاتينية والإنجليزية. علمني أيضاً مهارات العيش في الغابات: كيف تصنع ناراً من دون عود ثقاب، كيف تميز

بيـن آثار الحيوانات المختلفة، وبالطبع، كيف تنصب خيمة في البرّية من دون أن تتـرك خلفـك ذرَّة قمامـة واحـدة. كان يحكي لـي أيضاً عن الهنـود الحُمر ونحـت لي طوطماً جميلاً، مـا زلت أحتفظ به معلقاً أعلى سـريري. صنع لي أيضاً طبلة أفريقية صغيرة وعلمني النقر عليها.

ذات مـرة كنـت في عـراك مع أحد الفتيـة من أقراني - لابـد أنني كنت في التاسـعة أو العاشـرة حينذاك- لأنه نهرني قائلاً: «إن أباك سـجين سـابق على كل حال!». تعاركنا بسـبب هذه الكلمة، لكن التهمة التصقت بذاكرتي. إن ما أخبرتني به أمي حقيقي. إن أبي بريء تماماً بل هو في الحقيقة بطل، لكن ماذا لو أنها تقول هذا فقط؟ وماذا لو أن مَنْ حولي لا يعرفون هذا؟

نـادراً مـا ذَكَرَ أبي المعتقـلَ في كلامه، مـع أنه أخبرني في مناسـبات قليلة كيـف عومل بقسـوة أثنـاء التحقيقـات. ذَكَر واحدا فقـط من معذبيـه، ينادونه روباس، لكن لا أحد يعرف اسمه الحقيقي. كان هذا الرجل قاسياً؛ كان يوقظ أبـي ليلة بعد أخرى، ويضربه أثناء التحقيق معه على يديه وقدميه وظهره حين يأبى أن يُفشي بأيِّ معلوماتٍ عن أصدقائه. وضعه في زنزانة فردية حيث درجة الحـرارة تجعل المـرء يتجمّد، وأعطوه بـدلاً من البطانية خرقة قـذرة متعفِّنة. وحين اشتكى أبي أجابه: «فقط لتعرف قَدرَ نفسك».

أردت أن أعرف ماذا حلّ بهذا الحقير، لكن أبي لم تكن لديه فكرة. أخبرني أنهم اختفوا جميعاً وأنه لا يرغب في رؤيةِ أحد منهم بالقطع. لكنني فكرت في تتبع أثر هذا البهيم يوماً ما. لسـوف أتربّص به يوماً وهو يمشـي، أقيّده، أخدّره بالكلوروفورم وأحمله على ظهري لأعود به لأبي، كما أعاد بايفوج[1] الخنزير الوحشي إلى القلعة في الأسطورة. ثم أدع أبي يفعل به ما يشاء.

كنت أسـتطيع أن أخبر أبي بكل أسراري لأنه لم يحاول التدخل في حياتي أبداً.

---

(1) أحد أبطال الأساطير التشيكية القديمة.

كنت معه في المستشفى حين كان يحتضر. قال في اليوم السابق لوفاته: «لا تقلق، سأقاتله». لم يئن مع أنه كان يتألم وكان يرغب في أن يواصل العيش. حين انتهى الأمر كله، بكيت كطفل صغير، مع أنني كنت في الثالثة والعشرين من عمري تقريباً.

تذكّرته حين قبلت بالعمل في المؤسسة. أنا واثق من أنه ليسرّه أن يراني أساهم في إعادة نصاب ميزان العدل في العالم. ما زال لديّ النية نفسها: أن أعثر على من اعتقله ومن حقق معه ومن عذّبه. طالما تخيلت اللحظة التي سأقف فيها أمامهم وجهاً لوجه وأطلب منهم توضيح سلوكهم هذا.

لم يكن سهلاً إطلاقاً تحقيق تلك النية. لم أكن من يقرِّر القضايا التي أعمل عليها، بل كانت تُوكَل إليّ. وكلما توغل المرء للوراء في النظر إلى الماضي كلما زادت صعوبة العثور على معلومات؛ وحتى حين أكشف أسماء في ملفاتنا، لا يعني هذا عثوري على أصحابها. كأن الأرض تنشّق وتبتلعهم، أو تتقطع الخيوط الموصلة إليهم واحداً بعد الآخر. وحتى حين يسعني إعادة ربط بعضها أو الكشف عن عناوين جديدة ومحلات عمل جديدة، أكتشف أن الخيط يعود لينقطع، منذ سنوات، من أجل المصالح. وبدلاً من مواجهة الوغد وجهاً لوجه، أجد نفسي في مقبرة.

على عكس والدي، ماما كانت دائماً تطالبني بعمل أشياء في حياتي، خاصة بعد وفاة أبي، وقد قاومتها. ما كنا نتحدث معاً عن موضوعات ذات أهمية إلا نادراً. لم أخبرها بانفصالي عن فيرا حتى، مع أنهما تعرفان بعضهما، وكانت أمي تزنها ككنة المستقبل بالفعل. لم أخبرها حتى بحبي الجديد: اذ أعتقد بأن هذا سيقلقها.

يستحيل عليّ أن أصف ما يجذبني لكريستيانا. ربما كان شيئاً ما في الوعي الباطن. كأنها تذكّرني بلقاء ما في الماضي البعيد، السحيق، ربما لم يحدث في حياتي هذه حتى. لكنه كان لقاء لا بدَّ أنه ترك عليّ أثراً يتعذر محوه.

نحن على طرفي النقيض في السن والمهنة والشخصية. هي متعلّمة -

طبيبة أسنان وأم لفتاة يافعة. أخبرتني أنها تعاني من نوبات اكتئاب، وحذّرتني من أنها لا تُطاق حين تكتئب. تدخن. تستمتع بشرب النبيذ. بينما أنا نادراً ما أشرب النبيذ وحتى لم أجرّب التدخين، احتراماً لأبي ربما.

أجلب لها وروداً. قالت:

- «أنت مجنون. لماذا تجلب لي وروداً؟».

كنا نجلس في البار مرة أخرى. ما زلنا في المرحلة التي نتشارك فيها التفاصيل المهمة عن حياتينا. أخبرتني عن والدها الذي كان مسؤولاً مهماً في الحزب والذي تحتقر عمله، وعن شقيقتها المُغنّية: التي تنبأت بأن كريستيانا ستنتحر. تحدثت أيضاً بلا غضب عن زوجها السابق، الذي أحترمه، وهي أيضاً أحبته؛ أعتقد أنها ما زالت تحبه، مع أنها لن تعترف بهذا. اندهشت أيضاً حين علمت تاريخ ميلادها.

إن قناعتي بتأثير مواقع النجوم على حياتنا تزداد باستمرار، لكنني ما زلت على أعتاب فهم غموض الأرقام وتأثيرها. حين ذكرت أنها ولدت يوم وفاة ستالين[1]، أدهشني ذلك كصدفة غريبة أو قَدَريّة حتى.

بدا لي الطاغية السوفيتي دوماً كأحد الجبابرة: ليس واحدا ممن ولدتهم أورانوس[2]، بل أحد الذين يُعاد ولادتهم مرة بعد أخرى من دماء ضحاياهم القتلى. مع أنه مات قبل ولادتي بوقت طويل، إلا أنه يذكّرني دوماً بجرائم البعض وبؤس الآخرين إذ أواجهها يومياً في ملفّات عملي. لديّ قناعة بأن موته أعاد لجزء من البشر فتحَ بابٍ كان موصداً بغباء في وجه الكرامة الإنسانية والتسامح والعدالة والشفقة. أنْ تولد يوم وفاته يعني أنك ولجت العالم في أحد أهم الأيام التي شهدها القرن العشرون.

---

(1) 5 مارس 1953

(2) إلهة السماء في الأساطير الإغريقية، أنجبت حين تزوجت من إله الأرض جايا سلالة من الآلهة الأقوياء حكموا خلال العصر الذهبي وكانوا ضخام الجثة وأقوياء وخالدين

أخبرتني أيضاً أن جدتها لوالدتها وجميع أقاربها تقريباً من جانب والدتها قُتلوا في غرف الغاز، وأنها عاجزة عن التصالح مع حقيقة وجود من بإمكانهم تسميم الآلاف وحتى الأطفال والرضّع. ظننت أنها ستنفجر بالبكاء وهي تتحدث عن الأمر؛ استطعت أن ألحظ أنها تبكي من داخلها على جرائم مرتكَبَة منذ أزمنة وجرائم وحشية ارتُكبت في حق أقاربها.

هل يمكن العيش في عالم كهذا؟ إنها لا تتوقع شيئاً من الحياة: لا تنتظر شيئاً حقاً. شعرت من طريقة توكيدها لي على هذا أنها على العكس من ذلك، ما زالت تأمل، تتأرجح على الحد الفاصل بين الأمل واليأس. إن ساد اليأس بوسعها دوماً وضع نهاية لحياتها. أعتقد أنها أحد هؤلاء الذين لا يخشون تلك الخطوة.

لكنها تخشاني. تخشى الاقتراب مني. نخشى أحدنا الآخر ومع ذلك ينجذب أحدنا للآخر أيضاً.

قلت لها إن علينا أن نعيش، لنقوم باكتشافات على سبيل المثال. لنتداولها مع الآخرين ونمرّرها لمن سيأتون بعدنا. علينا أن نناضل لئلا يختفي العدل من على وجه الأرض، أو ليحكم الحب حياتنا على الأقل. اعترضت قائلة:

- «ليس في مسألة الحب على الأقل. لكن من منا يستطيع هذا؟»

كانت تتوقع أن أقول إنني أستطيع، أو أننا معاً ربما نستطيع، لكنني لم أقل هذا، لأنها على حق: أنا لا أعرف أحداً استطاع.

لها شعر بلون سطوع الشمس يصل لخصرها تقريباً؛ يمنحها مظهر فتاة صغيرة، لكن نظرتها حزينة. لديها جبين ملكة. حزنها يثيرني. تقت للمسها، للتربيت على الأقل على هاتين اليدين اللتين تشعّان بالحنان، لكنني في الوقت نفسه وجدتها فكرة بذيئة على نحو آثم، كأنها تعني تجاوز حدٍّ ما، أو كسر حظرٍ ما قد يتسبب في إنزال عقوبة إلهية.

شربنا معاً زجاجة نبيذ كاملة، مع أنني شربت كأساً واحدة فقط. ترددتُ للحظة وقت الوداع. أدركت أنها تنتظر لترى هل سأقترح أن نلتقي مرة أخرى،

أو كانت هي نفسها على وشك أن تقترح ذلك. لكننا كتمنا رغبتينا ولم نقل شيئاً. أعتقد أنه من الحكمة أن لا نرى أحدنا الآخر مرة أخرى.

6

يرقد بجانبي، عارياً. جلده ناعم، نظيف وغضّ مثل جلد جانا. لست من دَعَوته. لم أغوِه؛ هو من طلب مني أن أمرّ عليه، كان وحده في البيت لأن أمه مسافرة خارج المدينة.

قادني لغرفته الصغيرة. تحتل أرفف الكتب جدارين من الأربعة، وسط الكتب كنبة قديمة، تتسع لفردٍ واحد فقط، ربما لإثنين يمارسان الحب، لكنها لا تتسع ليناما عليها. لا صور. فوق الفراش طوطم هندي أمريكي، وطبلة ملوَّنة صغيرة ومندولين. يوجد حاسوب على طاولة صغيرة بالية. على جانبيّ النافذة ثمة مكبرَا صوت أسودين. تطل النافذة على باحة؛ لاحظتها رغم أن الستائر كانت مسدلة.

وعد أن يريني بعض المطبوعات القديمة. وعدني ببيتهوفن وشوبان وتشايكوفسكي وظل يكرر أنني أجمل امرأة قابلها وأكثرهنّ إثارة. لم أكن أعرف أن لديه نيات أخرى بالإضافة لنيته أن يريني المطبوعات القديمة. لم أقل له إنه بالرغم من سفر والدته خارج المدينة لكنني أنا أيضاً أم. إنه ربما كان ينظر للعالم من منظار مشوب بهلوسات ما. كل ما قلته هو: «لا تكن سخيفاً، أنت لا تعني أنني جميلة حقاً».

لا يمكن أن يكون يقصد هذا جِدياً، لكن ها هو يرقد بجانبي، يداعب صدري. أصابعه طويلة، يمكنه حبك تعاويذ بها، ليست فقط لعزف الماندولين أو لتقليب الوثائق. لسانه خشن قليلاً ورطباً. حين كنا نمارس الحب منذ لحظة كان صبوراً وحنوناً. يا إلهي. كم مضى من الوقت منذ آخر مرة كان رجل صبوراً وحنوناً معي؟ متى كانت آخر مرة قابلت فيها رجلاً يهتم بما

أشعر به؟ أخبرني أنه بالكاد واعد فتيات أصغر. لم يضف أنه أراد أن يجرِّب الأمر مع امرأة في سن والدته أيضاً. قال فقط:

- «أريدك أن تشعري بالراحة معي».

- «أنا بالفعل أشعر بالراحة معك».

شغّل صاحبي الصغير موسيقى لكنه نسي تغيير القرص. قال:

- «أنتِ استثنائية».

- «استثنائية كيف؟».

- «كشخص».

- «كيف تعرف؟».

- «ليست مسألة معرفة. أنا أشعر بهذا. مثلما أشعر أنك حزينة معظم الوقت».

- «لست حزينة الآن».

- «بلى، أنتِ حزينة، حتى الآن حزينة».

- «نعم، ربما كنت كذلك حقاً».

- «لماذا؟».

- «لأني أشعر معك بالراحة، ولأني أعرف أنها مجرد لحظة». لا أقول: لأنني أعرف أنك ستتركني.

- «ليست مجرد لحظة».

- «إن كل شيء مجرد لحظة. نحن جميعاً هنا لمجرد لحظة. لا أقول إنه طبقاً لنظرية زوجي نحن جميعاً هنا لفترة لا تتعدى طرفتي عين للرب، ثم سنغيب في بحر الزمن الكوني ولن نستطيع حتى سماع دمدمته.

- «بودي أن أقضي حياة بكاملها معكِ».

- «حياتي أم حياتك؟».

- «حياتنا».

- «لكنني سأموت قبلك. أنا عجوز».

يحـاول إقناعـي أنني لسـت عجوزاً، وأنـه لا يدري أحد منا متى سـيموت على أية حال. ثم يسألني فجأة:

- «هل تحبين أحداً؟».

- «نعم: أنت بالطبع».

- «أعني أحداً آخر».

- «كيف تسـألني هذا السؤال؟ لم أكن لآتي لهنا معك لو كنت أحب أحداً آخر، أليس كذلك؟».

- «سامحيني. لكن هل أحببت أحداً؟»

- «كان هذا منذ زمن طويل».

- «زوجك».

- «لا تتحدث عنه الآن».

يواصل مداعبتي. أريح رأسـي على صدره المغطى بشعرات خفيفة شقراء لا مرئية تقريباً - كان صدر زوجي مغطى بشـعر كثيف داكن. كنت أقول له إنه يشـبه الشـمبانزي. كان يجرحني. الناس في الغالب يجرحون الأقرب إليهم، وأخشى أن يجرحني هذا الشاب ذات يوم هو الآخر. ليتني بوسعي أن أبوح له بهذا، أن أتوسّل إليه أن لا يجرحني!

أشعر برغبة في البكاء.

- «انظر إليّ».

- «لكنني أنظر إليكِ».

- «لماذا لا تقول لي شيئاً؟».

- «لا أريد أن أقول الأشياء التي يقولها الناس عادةً».

- «لكنني أريد أن أسمعها».

- «أمر محبب جداً أن أكون معكِ».

- «ألست نادماً؟».

أريده أن يقول إنه يحبني، إن سـنّي لا تعنيه في شـيء، إنه لا يراني عجوزاً. لكنه في مكان آخر بفكره؛ يفكر في ممارسة الحب معي مرة أخرى. لكن حان

وقت ذهابي. بدأ الظلام يخيم في الخارج، ولديّ ابنة في البيت. هذا إن كانت في البيت ولم تأخذها الشفقة بنفسها حين اكتشفت أن أمها تستمتع بوقتها في مكان آخر. يسأل:

- «ما هو أكثر ما يخيفك في الحياة؟».

أجيب بلا تردد: «الخيانة».

- «لا. أقصد إن كنتِ تخافين شيئاً ما على نحو خاصّ».

- «النار على ما أظن»

- «ذلك لأنكِ حوت».

- «رأيت شخصاً مشتعلاً بالنار. كانت عمتي. أشعلت النار في نفسها. لكنني لا أريد التفكير في هذا الآن. أفضّل أن أشعل سيجارة فقط. هل تمانع؟».

ينهض ويذهب مسرعاً، عارياً، ليأتي لي بمنفضة سجائر. يُذكّرني في هذه اللحظة بحبي الأول الذي مضى منذ زمن طويل: الكتفان الضيقان نفسيهما. كنت تلك الأيام مغرمة بسايكو، بجنون. أتساءل هل يمكن أن يحدث لي شيء كهذا الآن؟

يعود معلناً أنه لا يوجد في بيتهم شيء ما مثل منفضة سجائر، فيأتي لي بطبق بدلاً منها. يسألني ما إذا كنت ظمآنة.

رسغاه صغيران؛ في الحقيقة ذراعاه تشبهان ذراعي فتاة قليلاً، كذراعي ابنتي. فجأة أرى ذراعيها والحقنة أيضاً، الإبرة التي تثقب بها ذراعها؛ ابنتي الصغيرة في الخارج تتسكع طلباً للمتعة في مكان ما وأنا أرقد هنا بأنانية أدخّن في غرفة غريبة على كنبة غريبة.

- «أعطيكِ بيني[1] لتقولي لي بما تفكرين فيه».

- «عليّ أن أذهب».

- «لا تذهبي الآن».

---

(1) البيني أصغر عملة نقدية، مثل المليم، أو القرش.

- «عليّ ذلك، ابنتي في انتظاري».

ألملم ملابسي وأتوجّه إلى الحمام، الغريب هو الآخر. لا شيء هنا ملكي؛ لا أعرف حتى أيهما صنبور الماء الساخن.

يصيح لي من الخارج:

- «سآتي لكِ بمنشفة نظيفة».

ثم يفتح الباب فتحة صغيرة ويضع المنشفة في يدي الممدودة له. يسعدني أنني لم أجدها جاهزة هنا؛ لم يكن متأكداً من مجيئي.

آخذ حمّاماً سريعاً وأرتدي ملابسي. أضع قليلاً من كحل العيون. ماذا أفعل هنا بحق السماء؟

الورود التي اشتراها لي في إناء الزهور. حمر هذه المرة. آخذها معي.

يوصلني إلى محطة المترو. يريد أن يهبط معي إلى الأنفاق لكنني أخبره أن الأفضل أن لا يفعل.

- «حسناً. سأنتظرك غداً».

- «لكن غداً يوم طويل في العيادة».

- «أعرف».

- «كيف تعرف؟».

- «قرأت ذلك على باب العيادة».

- «لا تأتِ. يجب أن أكون في البيت في المساء. من أجل ابنتي».

- «لم تكوني في البيت هذا المساء».

- «لهذا السبب تحديداً».

- «وماذا لو عدت معكِ للبيت؟».

لا أستطيع دعوة هذا الشاب للبيت، أليس كذلك؟ ما لم أقل لجانا: جانا لقد أحضرت لكِ صديقاً جديداً: اسمه جان، سيدرِّبك قليلاً. على ماذا؟ على كل شيء. المشكلة أنه فات أوان التدرّب.

لا يسألني لماذا لا أرغب في دعوته للبيت. سينتظرني بعد غد إذاً. يحضنني ويقبلني سريعاً. أقول له:

- «شكراً».
- «على ماذا؟»
- «على كل شيء. على هذه الورود».

على سلّم المحطة أستدير وأنظر خلفي؛ ما زال واقفاً ويلوّح لي. لماذا لم أقرر المبيت معه حتى الصباح؟ كان بوسعي أن أتصل بجانا؛ كان بوسعي أن أخبرها أني سأرجع متأخرة قليلاً وأرسلها للفراش. لا. المرة القادمة ربما. سيكون ذلك أفضل المرة القادمة: إن كان ثمة مرة قادمة.

أرتعد لفكرة أن من المحتمل أن لا أراه مرة أخرى. إن يوماً ما سينتهي كل هذا؛ السؤال هو كم يتبقى قبل أن ينتهي؟ كيف نقدّر قيمة ما تبقّى لنا إن لم نتوقّع النهاية؟

أفتح قفل البوّابة وأتحقق من صندوق بريدي. خطاب. الربّ وحده يعلم ممَّن، جورنال جمعية طب الأسنان والآخر - الخطاب يُعرَف من عنوانه - من مراسلي المجهول. سأمزّقه وأرمي به في سلة المهملات. لكنها أمام مدخل البناية ولا أريد الخروج مرة أخرى. السيد مجهول لا يشتمني هذه المرة، يهدّدني فقط. يحذّرني من الخروج من البيت في المساء لأن الحساب يكون ليلاً.

أغامر بالخروج، مع ذلك، أفتح سلة القمامة ذات الرائحة القذرة، أمزّق الخطاب وألقي بمزقه في القمامة المتعفّنة.

7

يجب أن أزور بابا وأعد له تلك الفطائر المحلّاة، بعد أن ثرثرت عنها مع ماما. كانت فقرة مذهلة. استطعت أن أمسّ شغاف قلبها حقاً. صورة لي وأنا أرعى والدي المريض، الذي تركنا في الخراء. لم أره من شهر على الأقل. كانت آخر مرة رأيته في المستشفى مع ماما.

بحثت لوقت طويل حتى وجدت حذاءً يمكنني الذهاب به، «لأنني حين

أزور بابا يجب أن أرتدي شيئاً لا يبدو منفرّاً للناس المحترمة». الأزمة أن ليس لدى شيء لا يثير أعصاب بابا. إن ارتديت سروال جينز ليفايس عادي سيبدأ من دون توقف في التحدث عن ثمنه وعن أنني يجب أن لا أشتري أشياء كهذه فأنا لا أكسب نقوداً بنفسي وهو من يدفع نفقاتي. لكن سروالي القديم به ثلاث فتحات واسعة وقد خفت أن تقتله الصدمة. ارتديت في النهاية ثوباً قديماً خطته لنفسي حين كنت في الثانية عشرة تقريباً. خشن بشكل لا يطاق وبلون خراء الكلاب، في الحقيقة يبدو كأنه صفيحة قمامة ليس لها قاع، مقلوبة رأساً على عقب، لكنه ليس منفرّاً للناس المحترمة.

بابا آخر شخص أريد رؤيته.

لم أحب زيارته قط حتى حين كنت مجبرة عليها أسبوعياً وفقاً لحلم ما يحلمون به في محكمة غبية أو شيء كهذا. كان لا بأس به حين كان يعيش معنا. أتذكر أنه كان يناديني جانكي بانكي ويجلب لي كرّاسات التلوين. وكان يحكي لي كيف سنسافر في صاروخ فضائي إلى مارس (يقصد المريخ)، لكنني ظننته يتحدث عن شوكولاتة مارس. ولِمَ لا إن كان القمر نفسه من الجبن؟

يقول إنه تعلّم النظام أثناء تأديته الخدمة العسكرية. وكان فخوراً حقاً بكونه أفضل هؤلاء المعتوهين في طيّ وترتيب أغطيته وملابسه. كان يثير جنوني حقاً حين يريني كيف يجب أن نطوي الملابس.

أخذني مرة لنرى نموذج النظام الشمسي والمرصد. له أصدقاء هناك. كانت النجوم هوسه الكبير. أراد أكثر من أي شيء آخر أن يُذهلني بحلقات زُحَل وأقمار المشتري، والثقوب السود والانفجار العظيم. كان يحب الانفجار العظيم لأن من المفترض أنه بداية كل شيء. حكى لي كيف في البداية لم يكن هناك أي شيء ما عدا كريّة زجاجية ضئيلة، أصغر من حبة الطماطم لكنها ثقيلة إلى حد لا يوصف لأن فيها كل النجوم التي نراها والتي لا نراها. مؤلم فعلاً. والرجل المسكين يصدّق هذا، وأراهن أنه أخبر بها تلاميذه الحمقى في

المدرسة. وكان عليهم أن يكرروا وراءه: النجوم التي نراها والتي لا نراها. كانت تلك كلمته المفضلة: كرري ورائي. كرري ورائي: لن أضحك على المعلمين! كرري ورائي: حسنو التربية يغسلون أيديهم قبل العشاء! كرري ورائي: الجاهلون فقط من لا يحيّون كبار السن باحترام! وكنت أكرر وراءه لئلا أحظى بلطمة على الفور، ومن حينها وأنا أكره غسل يديّ ومن حين لآخر أصيح في سجين سابق عجوز «تشاو، أو هاي».

لم يكن على ماما أن تكرر وراءه، ومع ذلك كانت تخافه أكثر مما أخافه. إن تأخَّرَت ربع ساعة في إعداد الغداء يوم الأحد كان ينظر في ساعة يده ويعلن الوقت بصوت عال: «الثانية عشرة والربع»، وهكذا كل ربع ساعة. وكانت أمي تتأسّف وتتذرّع بأن اللحم قاسٍ بدلاً من أن تخبره أن يغرب عن وجهها أو يذهب إلى البار.

شرح لي بابا أيضاً أن كل ما نراه، وما لا نراه، قد حدث بالفعل. لم يخلقه ربٌّ ما، لأنه في هذه الحال سيكون رباً كبيراً جداً إلى حدّ أنه لن يستطيع البقاء في الجنة، وعجوزاً على نحو لا يصدَّق فلا يكون قادراً على العيش كل هذا الوقت. لم أفهم هذا الجزء على كل حال. أذهب للكنيسة مع إيفا مساعدة ماما أحياناً. أستمتع بهذا حقاً، خاصة بالغناء وبالقديسين ببؤبؤي عيونهما المرفوعين لأعلى كمن تعاطوا كميات ضخمة من المخدرات أو كمن رأوا شيئاً ما أفقدهم صوابهم حقاً. ربما ينظرون للكريّة الزجاجية الضئيلة التي انفجرت الانفجار العظيم. كذلك لم أفهم لماذا تحتاج الملائكة لأجنحة كأجنحة الأوز أو البجع، في حين يمكنها الطيران في غمضة عين هكذا، كما أحلم أنا أنني أطير؛ لهذا هم ملائكة رغم كل شيء. كنت معجبة أيضاً بخادم ذي شعر زنجبيلي.

كنا كلما خرجنا في نزهة يظل بابا يختبر معلوماتنا عن الأزهار والأشجار والطيور الصادحة، ناهيك عن المعارك التي دارت من قبل في ذاك المكان بالتحديد: هذه زهرة الفصح، هذا عنب ألباني، هذه خماسية، وهذا طائر

الدخلة. هل تسمعانه يغني تررريت تررريت؟ حسناً أنا طبعاً لم أسمعه، لكن أمي بذلت جهداً وقالت له: «أوه، نعم، تررريت تررريت. أنت رائع كارل. كيف تستطيع تذكر كل هذه الأشياء؟». أظن أنها كانت تعني هذا حقاً. وكان يصدقها لأنه يقول بعد هذا: «حسناً أنتِ تتذكرين تشريح جسم الإنسان». مذهل.

كانت مجنونة به حقاً. أدركت هذا، مع أنه يبدو عجوزاً في سن والدها لكنها أحبته حقاً، لأنها ما زالت تفكر فيه طوال الوقت رغم تظاهرها بأنها لا تهتم بأمره. حالته السيئة تُثقل على قلبها حقاً.

ثم حين كنت في الصف الثالث الابتدائي، بدآ يتشاجران كمخبولَين. كانا دائماً ما يوصدان الباب عليهما في غرفة نومهما أو في المطبخ ويصيح أحدهما في الآخر كأنني لن أسمع صياحهما. في البداية ظننت أنني السبب، لأن أبي يرى أنني فتاة عنيدة وسيئة وكسولة، وستكون نهايتي سيئة، لكن بعد ذلك توقف أبي عن العودة إلى البيت لتناول العشاء وسرعان ما بات لا يأتي إطلاقاً؛ وكانت ماما تجلس أمام التليفزيون وعيناها محمرّتان من البكاء، حتى حين يعرضون الكاميرا الخفيّة. كنت أحياناً أستيقظ في الليل فأجدها جالسة في المطبخ تقرأ أو تحدِّق فقط في الحائط، فأدركت أن من المحتمل أن يكونا قد تطلقا.

انتقل بابا للعيش مع عصفورة تعمل في مصرف. كانت طويلة وضامرة وصدرها مسطّحاً تماماً. ولها أسنان دميمة فعلاً، تشبه أسنان مصاصي الدماء قليلاً؛ ربما كانت واحدة منهم، لأن بابا مَرِض بشدة حقاً، وكانت كلما قالت لي شيئاً، أزدادُ قناعةً أن مخّها ميت تماماً. لا أدري ماذا رأى فيها؛ ربما هرب مني فقط لأنني صرت عنيدة. وقد أمسكني وأنا أدخن من قبل، لكنهما حينها كانا قد تطلّقا بالفعل.

عينا بابا تخيف الناس. بوسعه الوقوف والتحديق في شخص لوقت طويل من دون أن تطرف عيناه. ما كنت أعرف أبداً لماذا كان يحدق هكذا. كنت فقط أعرف أنه غاضب مني لأنني قمت بخطأ ما وكنت أتوقّع عقوبة ما. كان أبي

عبقرياً حقاً في اختراع العقوبات. إن لم أنهِ غدائي مثلاً، على ماما أن تطهو لي الشيء نفسه لبقية أيام الأسبوع. في أحد الأيام لم أرغب في ارتداء معطف الفراء المليء بالزهور المقرفة الذي لا بدّ أن جدتي وجدته على رأس كوم قمامة في مكان ما أو أخرجته من أشياء خالتي ليدا. وشت بي ماما فعنّفني بابا، ثم كان عليّ أن أذهب للمدرسة بهذا المعطف كل يوم حتى استطعت أن أسكب بعض حساء الطماطم بالشعرية على صدر المعطف مباشرة في مطعم المدرسة.

لم يعد بوسعه معاقبتي بعد أن تركَنا. أظنّ أنه لم يعد يرغب في هذا، لم يعد يزعج نفسه، كان يهيم بغرام الفزّاعة صاحبته. فقط ظل يكرر أن ذلك ليس خطأه، بل خطأ ماما لأنها لم تكن تعتني به جيداً وكانت دائماً في مزاجها السوداوي الذي ليس بوسعه أن يحتمله ببساطة. وفوق كل هذا وذاك تدخّن. أخبرني أنه يحتاج لقليل من السلام، والهواء الطلق وبعض الاستمتاع بالحياة. وعلى الأقل ذرة اهتمام. قال إنهما هما الاثنان يحتاجان لهذا، لكن أمي كانت عادة ما تتركنا على الغداء وتخرج مع رفاق لها بعد العيادة بدلاً من العودة إلى البيت، وكان هو يضطر لأن يعدّ لي بعض العشاء في آخر لحظة، لكنني لا أتذكر، بحسب ما يقول، لأنني كنت صغيرة جداً. قال إن أمي ليس لديها حس بالنظام، وأنه لا يفهم كيف لأحد مثلها أن يعالج أسنان الناس بصورة سليمة. بعيداً عن كل هذا، كانت اهتماماتهما مختلفة كلياً. لم تكن ماما تستمتع لا بالتنس ولا بالتزلج - بالطبع لاحظت كيف تبدو كالفيل على المزلاجتين - ولا تهتم بالتاريخ. أخبرني آلاف المرات أن بيتنا لم يكن بيتاً بل كان مكاناً للنواح والأسى.

- «كانت هستيريتها قد بدأت تصل لي وكنتِ أنتِ أيضاً تتأثرين. في الحقيقة، ستقضين حياتك وأنتِ تحاولين التعافي من هذا».

في أول الأمر اعتدت أن أقول له شيئاً ما جيداً. حتى إنني أخبرته أنني افتقده. ثم أدركت أنه كان وضيعاً حقاً مع ماما ومعي، وأن عليّ أن أتحوّل

لبونك بأسـرع ما يمكنني. تركَته الفزّاعة السنة الماضية أيضاً. فكّرت منزعجة أنه قد يعود للعيش معنا، لكنه لم يفعل.

وهكذا، هو الآن مريض. تُرددُ أمي مراراً أن حالته سيئة. لم يعد يحدِّق كما كان يفعل، لكنه ما زال يخيفني. لهذا أرتدي مثل الفتاة ذات الجوارب الطويلة ولـم أضـع الكحل حول عينـيّ الجاحظتين. كنـت مخدّرة تمامـاً إلى حد أنّي كنـت أترنّح وأنا أصعد الدرج إلى شـقته؛ كنت أمضـغ علكة نعناع لئلا يعرف أنني دخنت سيجارة أخيرة أمام منزله.

لم أشترِ له ورودأ ولم أسرق من الحديقة بعضها حتى. لماذا؟

حين فتح الباب قلت:

هاي بابا. جئت لأعدّ لك فطائر محلاّة.

الفصل الثالث

1

لـن أقضـي هذا المسـاء مع ابنتـي على أية حـال. اتصلت بي لوسـي نهاراً لتخبرنـي أنهـا عادت لتوها مـن الجانب الآخر مـن الكرة الأرضيـة وتريد أن تراني.

أتصـل بجانـا التـي لدهشـتي، أجدهـا في البيـت، وأقـول لها بحـذر إنني سأتأخر قليلاً في العودة للبيت هذا المساء. تريد أن تعرف أين سأذهب لكنني لا أذكـر تفاصيل. أقـول لها فقط أن تنجز فرض الرياضيات وأحذّرها من أنني سأختبرها حين أعود.

أقابـل لوسـي في بـار نبيذ أسـفل القلعـة تماماً. مـكان باهـظ الثمن، لكن السـيدة الكريمة تدعوني. لوّحت الشـمس بشـرتها إذ قضت حوالى شـهر في كاليفورنيـا ورأت المحيط الهادئ الذي لن أراه أبداً. تقول إنه بارد جداً، حتى إنه في المناطق الدافئة يرتفع الضباب على السـطح ويغطي البحر والشـاطئ. تخـرج صندوق صور فوتوغرافية من حقيبة ظهرهـا التي تحملها دائماً. صور لبيـوت وكوبري الجولدن جيت وهو يبزغ من الضبـاب على طريقة حواديت الجنيـات. تلمع قطـرات ماء مكثفة على مفاصل الكوبري الذي يبدو كشـبكة عنكبـوت عملاقة. ذهبت صديقتي للصحراء أيضاً وتدفأت في أسـخن قطعة

في العالم؛ جلبت معها صوراً لصخور ملونة وزهور تزهر على الكثبان ليوم واحد فقط ثم يدمِّرها الحرّ. ثمة صور أيضاً لصبّارة عملاقة، لكنها من حديقة النبات في بيركلي، التي لن أراها أبداً أيضاً.

أسألها كيف كانت تقضي وقتها.

رائع. إنها بلد رائع لإقامة قصيرة، على سبيل الترفيه. إنهم هناك يعبدون الترفيه أكثر مما يعبدون من يذهبون للكنيسة من أجله، ويحصل الذين يعملون في الترفيه على أفضل الرواتب.

أعرف هذا من دون أن أذهب إلى الجانب الآخر من العالم. ليس عليّ أن أنظر إلى بعيد جداً في هذه المسألة: تغنّي شقيقتي أغنيتين في الشهر مسيّلتين للدموع ومع ذلك هي امرأة غنية مقارنة بي أنا التي أعمل على تخليص الناس من الألم. تتذكّر لوسي:

- «ماذا عن صاحبك المسموم؟».

- «السيد مجهول يكاد يكون الوحيد المخلص لي دائماً».

تريد أن تعرف إن كنت أشك في أحد ما على وجه الخصوص. تحذّرني أنني يجب أن احترس، وأبلغ الشرطة. وعليّ بالتأكيد أن أحمل رذاذ توابل.

لا أنوي إبلاغ الشرطة بشيء، سيضيّعون وقتي فقط بتسجيل شهادتي. بالتأكيد لن يخرجوا بحثاً عن مجهول لم يهاجمني حتى. ولا أظن أن بوسعي رش زذاذ توابل في عينَي أحد.

أسألها هل كانت وحدها طوال الوقت. هذا هو السؤال الذي ظلّت تنتظره. تُخْرِج عدداً من الصور تظهر فيها في سيارة مكشوفة فخمة مع شاب داكن البشرة وله شعر أسود مجعّد، لاتيني في الغالب. يحيط خصرها بذراعه ويكشف الضوء أسنانه البيض كاللؤلؤ ويستعرض عضلات ذراعيه. لا بد أنه أصغر منها بحوالى طرفتيّ عين للرب. لكنني واثقة أن هذا لا يزعجها. لديها صور أخرى كثيرة في الصندوق. لكنها ليست لروميو الأسمر، بل لهياكل عظمية مكسوّة بجلد أسمر، أطفال بعيون واسعة وبطون منتفخة يمدون

أيديهم لطبق بحجم اليد فيه حساء ما. توضح قائلة: «هذه من راوندا. لا بد أنها اختلطت بالصور». تستعيد الصور وتدسّها في حقيبتها ثم تسألني: «وماذا عنكِ أنتِ؟»

أرى على الفور بعيني ذهني حجرة صغيرة مزدحمة بالكتب، شاب صغير يشتري لي الورود، يركض عاريا وحافي القدمين ليجلب لي منفضة سجائر بعد أن مارس معي الحب برقّة. قد أذكره. سأستمتع بالكلام عنه، لكن لوسي سترغب بالتأكيد في معرفة التفاصيل ذات العصير، بالطبع. هذا كل ما اعتدنا الحديث عنه، وكنا نسخر من الزملاء الذي يلعبون دور الرجل القوي وحين تأتي لحظة لعرض فحولتهم يذوون، ولا يتبقّى من فخرهم سوى دودة صغيرة. لكنني لا أرغب في ذكر تفاصيل؛ إذ أشعر بالعار لأنني استسلمت ولأن عواطفي ما زالت تُخْرِج أفضل ما فيّ.

أقول لا جديد. فتقول: «انتظري حتى تقضي عليكِ رومانسية الصيف الهندي[1] هذه».

ثم تواصل حديثها فتخبرني عن الإحساس الذي يتركه الشاب الأسمر. أستمع إليها وأفكر في شابي أنا، الذي ليس له عضلات ولا شعر مجعَّد، لكنه ربما يحبني لأكثر من مجرد إقامة قصيرة. وعد أنه سيكون في انتظاري في الغد. إلى أين سنذهب؟ لا يمكنني دعوته للبيت بسهولة. في الغالب سنجد باراً في مكان ما. ثم ماذا؟ يمكننا أن نذهب لحديقة ما - حديقة بيترين أو ساركا، إن كان يناسبه. منذ عشرين عاماً لم أجد خطأً في ممارسة الحب في الحدائق والغابات التي على حدود براغ. في تلك الأيام لم أتوقف لأسأل هل هذا صواب أم لا، بل مارست الحب في المطر وعلى الثلج حتى. على غرابة هذا، لم يكن الثلج بارداً كما يتوقع المرء، بل في الحقيقة كان ظهري يحرقني فقط. هذه الأيام قد أخاف على مبايضي وكليتيّ. وما عدت أرغب

---

(1) الصيف الهندي هو موجة حر تحدث في الخريف.

في ممارسة الحب على نجيلة مغطاة بخراء كلاب، ولا أطيق الإحساس بأن أحدهم استثيرت غرائزه لأنه تلصص علينا من الأجمة. يمكننا أن نذهب لعيادتي بالطبع، ونمارس الحب على كرسي المرضى أو على الدكة في حجرة الانتظار.

النبيذ الذي نحتسيه لطيف وثقيل. يصل إلى رأسي وينفض عنه كل هواجسي.

ألاحظ رجلاً يشير لي في الركن البعيد من المطعم. وجه مألوف أعجز عن تحديده - أصلع تماماً تقريباً، بشعرات رمادية قليلة وخشنة على الجانبين. قد يكون أحد مرضاي. ثم ها هو الرجل يسير مخموراً نحو طاولتنا: «مرحباً كريستيانا. لم تتغيري إطلاقاً».

لا يمكنني لا مخاطبته باسمه ولا إخباره أنه أيضاً لم يتغير، لم أتعرَّف عليه. أقول فقط أهلاً. يعد أنه لن يقاطعنا طويلاً، ويضيف:

- «أردت فقط أن ألقي السلام على حبي العظيم منذ عمر مضى».

- «من غير اللائق أن تخبر سيدة بأن شيئاً ما حدث منذ عمر مضى». تشاكسه لوسي بطفولة.

أقول وقد تذكرت الرجل الذي أجبرني على أول إجهاض:

- «نعم. كان ذلك منذ عمر مضى حقاً».

لقد فقد ذيل أرنبه الأسود، وكذلك بقية شعره، لكنه من الناحية الأخرى تقدم جيداً في عمله. كنت قد قرأت عنه في عدة مناسبات. إنه متخصص في علاج مدمني المخدرات من الشباب. لكنني فقدت كل اهتمامي به منذ أن دفعني للقضاء على حياة بريئة.

يخبرني مرة أخرى أنني ما زلت جميلة، أجمل حتى من ذي قبل في الحقيقة. يأتي بكرسي إلى طاولتنا، وكما كانت عادته، يبدأ في تعريتي بعينيه فيما يعلن أنه يعمل في الوزارة ويلقي محاضرات عن قانون مكافحة المخدرات الجديد. وأنه يعارض تجريم حيازة المخدرات؛ إنه تحرري

ويريد أن يؤثر على الشباب من خلال التعليم. راح رجل التعليم يعرّيني بعينيه وهو يثرثر.

أقاطعه بسؤالي: «هل لديك أبناء؟».

يومئ برأسه قائلاً: «لماذا تسألين؟».

المغفّل. يسألني لماذا أسأل. لم تسمح له أخرى بدفعها للوقوف أمام المجلس[1]، وهكذا صار أباً. قال بفخر تقريباً: «لدي ولدان. ماذا عنكِ أنتِ؟».

- «لديّ ابنة، كان من الممكن أن يكون لديّ ولدان، لكن المجرم أبا الأول لم يسمح لي بإنجابه».

نهض منزعجاً وقال إنه لم تكن لديه النية لمقاطعتنا وترنّح مبتعداً. لكن مزاجي كان قد تعكّر في جميع الأحوال.

تقول لوسي متضامنة:

- «الرجال، كلهم مقرفون. العناكب والرجال، غير أن العناكب ليست مؤذية».

عند منتصف الليل تقريباً أخرج من محطة المترو. أنا بشعة لأنني تركت ابنتي الصغيرة مرة أخرى. أركض تقريباً.

عند منعطف شارعنا يظهر رجل من عتمة مدخل بناية ويقف في طريقي، يدفع ذراعه نحوي كأنه سيخنقني. أتجمد في مكاني.

- «اعطني عشرة كورنات يا سيدة، ليس لديّ مأوى».

يترنح في وقفته بشدة بحيث يضطر للاستناد إلى الحائط. إما أنه سكران أو «عالٍ»، لكنني لدهشتي أشعر بارتياح لأنه ليس مراسلي المجهول قد جاء ليقتلني، بل مجرّد متشرِّد. أُخرجُ كيسَ نقودي وأضع كل ما لديّ من نقود في راحة يده.

تقبض عليها يده ويترنح مبتعداً من دون كلمة شكر.

حين أصل إلى باب منزلنا وأحاول فتح قفله ترتعش يداي ولا يمكنني

---

(1) قانون تشيكي منذ عضر الشيوعية يلزم المُقدمات على عملية الإجهاض بالوقوف أمام مجلس طبي، قانون جرى ذكره في الرواية.

إدخال المفتاح في القفل. أتخيّل صوت خطوات خلفي وأنفاس حتى، لكنني لا أجد أحداً حين ألتفت.

الشقة مظلمة وهادئة. أغلق الباب خلفي وأضع سلسلة الأمان، لا أفعل ذلك في العادة.

أفتح باب غرفة نوم جانا وأسمع صوت تنفس صاخب. ثمة رائحة غريبة: مزيج من البخور وماء الكولونيا وطارد الناموس. لا أعرف منذ متى صارت ابنتي من المعجبين بالبخور، لكن هذه الرائحة الطيبة النفّاذة يُقصد بها التمويه على رائحة أخرى. أعرف هذه الخدعة جيداً. كنت أفعلها حين كنت أدخّن في البيت ولم يكن لدي وقت لتهوية الغرفة والتخلص من الرائحة قبل وصول بابا. أشعر برغبة في أن أهزّها وأسألها ماذا كانت تفعل هنا وما الذي تحاول إخفاءه، لكنها ستنكر كل شيء، هذا ما ستفعله. ثمة ورقة على المكتب. أقرأ الجملة الأولى: «المثلث هو الشكل المسطح المكوَّن من الوصل بين ثلاث نقاط ليس بخط مستقيم بل بعدة خطوط مستقيمة». ليست رسالة لي. أو ربما هي كذلك: «أترين كم أنتِ أم خائبة؛ أنا أجلس هنا أعمل بكد في حين تتمتعين أنتِ بحياتك في البار».

نسي بابا هذا في حلمي. ابنة فاسدة، زوجة خائبة، وأم لا فائدة منها.

2

أسقط في النوم سريعاً، لكن زوجي السابق ينبش طريقه إلى حلمي مرة أخرى كالدودة. كنا في رحلة معاً على جبال ما حيث نقيم في كوخ خشب. كنا ما زلنا صغيرين وكانت معنا جانا، لكننا تركناها في الكوخ وانطلقنا في درب ضيق شُقّ بين الصخور. اضطررنا عند لحظة ما للتعلق بعقد كبيرة في جبال كانت تتدلى فوق رأسينا لنعبر وهد. كنت خائفة وأنا أمرّ بين العقدة والأخرى لأن الحبال كانت قذرة. ثم انفلتت إحدى العقد وتعلّقت فوق الهوة، تعلّقت

بيـدي اليمنى فقط. ناديت علـى زوجي لينجدني. ناديته باسـمه، لكنه كان قد اختفى، لم يعُدْ معي، ورأيت بعينيّ المسـامير اللولبية التي تربط طرف الحبل تنفك تدريجاً عن الصخرة. ظللت أصرخ وأنا أفكّر في جانا وفي ما سيحدث لها ومن سيعتني بها بعد أن أسقط في الهاوية.

الرابعـة صباحـاً وما زال الظـلام مخيّماً فـي الخارج. قميـص نومي مبلل بالعرق وحلقي جاف.

أنهـض وأذهب للمطبخ حافية القدمين. تغمغم الثلاجة إذ أدلف المطبخ، تهتـز هـي الأخرى، علـيّ أن أضع دعامة أسـفل إحـدى زواياها. علـيّ القيام بأشـياء كثيـرة - إصـلاح وصيانة، لكنني الآن سـآخذ فقط زجاجـة نبيذ وأعدّ لنفسي سبريتزر[1].

متى سيكفّ زوجي عن الاختفاء وتركي معلّقة فوق الهوة؟؟

أعود إلى الفراش وأحاول التفكير في شيء ما إيجابي. سألت زوجي ذات مرة في إحدى نوبات اكتئابي ما الغرض من حياة الإنسان؟

نظر إلي بدهشة، كأن سؤالي دليلٌ على تفاهتي، لكنه وافق على أن يجيبني. بشـكل أساسـي، نحـن لا نحيا حقـاً، لأن فتـرات حيواتنا موجزة جـداً مقارنة بالزمن الكوني إلى حدّ أنها لا تُسجّل في الحقيقة. وما لا يمكن تسجيله، ليس موجوداً في النهاية.

إجابة شيقة لسؤالي. نحن نحيا كأننا لسنا موجودين بالفعل. إن كان الرب مَنْ خلـق الكون بذاك المنطق فهو لا يعرف شـيئاً عنا، نحـن فقط من نظن أننا نعرف شيئاً عنه. نحن صغار جداً ليتم وزننا، لهذا يمكننا الإيذاء - يمكننا أن نقتل أيضاً - وهو ما نفعله كثيراً، أو على الأقل ما يفعله الرجال في جميع أنحاء العالم.

لكن الناس يرغبون في ترك شـيء ما خلفهم. حين كان بابا صغيراً ظنّ أنه يريـد زرع جنة عدن جديدة، مع ذلك نسـي أن الحب هـو التربة التي تنمو فيها

---

(1) كوكتيل من النبيذ الأبيض وماء الصودا.

الحيـاة. لكن البسـتاني الرئيس أوصـى بالكراهية لذلك سـاهم أبي في تمهيد سـاحة إعـدام بدلاً مـن زرع جنينة. لم يعترف بهـذا قط، لكن لا بـد أنه، حين اقتـرب من النهاية، شـكّ قليلاً في أنه كان مخطئاً بشـكل مريع. ولـم يُشـد بيتاً ولا حتى زرع شجرة قد تثمر يوماً، لم يكن لديه الوقت وما كان هذا من طبعه. لكنـه كان من حين لآخر يُحضر أشـياء لا نفع منها؛ لا أعلـم من أين كان يأتي بها، الأرجح أنها غنائم عمليات المصادرة التي كان يشـارك فيها. أحضر ذات مرة صندوقاً من ذبابات الصيد مع أنه لم يذهب للصيد أبداً. جلب كتباً بلغات لا يعرفهـا وجلـب لأمي صندوقاً محشـواً ببكـرات خيط رمـادي. بقيت تلك الخيـوط حتـى بعد موته. ثمـة الكثير جداً منها بحيث إننا لـو ربطناها كلها من طرفيها ومددناها على طولها أعتقد أنها ستصل إلى خط الاستواء.

مـاذا سـأترك أنا خلفي؟ وفرة من جسـور الأسـنان على ما أظـن، بالإضافة للحشـوات وأطقم الأسنان بالطبع. وهي في الحقيقة -منذ أن صار باستطاعتي طلـب المـواد التـي أريدهـا - من أجـود أنـواع الجسـور والحشـوات وأطقم الأسـنان. وابنة أيضاً، لم أحسـن تربيتها تماماً. لكن ما الذي سـيتبقى بعد طرفة عين الرب العاشرة أو المائة حتى. حين تُنسى كل الكلمات ولا يبقى من يتذكر كيف بدوت؟ مَنْ حينها سينظر في الصور المتفتتة، إن بقيت صور في مكان ما؟

لعـل أفعـال الحب تترك اثراً ما خلفنا - أو علـى الأقل مردودها. لعل أحد ما، عدالة أعلى ما، تحصي عدد القطرات التي يمكن بواسطتها تقليل مستوى الألـم فـي العالم. بوسـعي فعل هـذا - في أفـواه الناس على الأقـل-، وليس بوسعي شيئاً تجاه ألم الروح، ولا حتى في حالتي.

تتبدد الظلمة في الخارج. أطل من النافذة. ما زالت الشوارع خالية؛ أجساد السيارات المعدنية رطبة. مخمور يسير وحيداً مترنحاً على الرصيف المقابل، ربما يكون من أعطيته حفنة النقود تلك.

أحضر صندوق دفاتر بابا وأتصفّحها. أبحث عن رسالة قد يكون تركها لي رغم كل شيء.

لكـن معظم المدونات تافهـة على نحو مضجر: مجـرد كتل من الكلمات والصيغ المبتذلة وإشـارات لأنشـطة يوميـة - ماذا أكل، وبمـاذا اعتنى، وماذا قال في خطبه. اشـترى لنفسه حذاء جديداً برقبة عالية. ذهب لمباراة كرة قدم. أصلـح الهاتـف اللاسـلكي. ذهب إلـى طبيب الأسـنان! تـرأس اجتماعاً في تعاونية الضوء الأحمر. قلما يشير لأشخاص آخرين. كعادته دوماً، ربما.

لكنـه قابل صديقه بالفعل، الرفيـق ب. الذي قضى معه عامين في المعتقل العسكري، وتشاركا الذكريات. كانت الأيام الأخيرة هي الأسوأ، نفد الطعام. لم يعودوا يوزعون الخبز حتى. لكن الإعدامات ظلت مستمرة وكذلك ظلت القوات الخاصة تنظّم الانتقال. تذكرنا كيف كنا في تلك الأيام نرفع أعيننا إلى السماء، التي كانت حينئذ تحت سيطرة الحلفاء، ونتساءل عن جدوى هذا في حيـن ما زال الألمان يسـيطرون على الأرض. كان الجـوع مريعاً. كنا قد أكلنا آخر كسـرات الخبز بالفعل وما عدا الماء لم يكن ثمة شيء يمكننا ابتلاعه. لم تعد لدينا القوّة للنهوض والخروج من أسـرّتنا ذات الطوابق وكل ما نسـتطيع التفكير فيه هو الطعام وما إذا كان السوفيات سيصلون إلينا قبل أن نلقى حتفنا أم لا. كنا نسمع أيضاً ضجة قذائف مدفعية تقترب. كانوا يقتربون جداً بالفعل.

أتخيّل هذا الشـاب: بابا، فـي زي المعتقلين المخطط بـالأزرق والأبيض يرقد في ثكنة شـنيعة ما، هزيل وجائع، ينتظر. يعرف أن اللحظة التالية سـتقرر هل سـيحيا أم سيموت. كالمريض على طاولة الجراحة. يكون لدى المريض أمـل قبـل أن يسـقط في النـوم لأنه وضـع ثقته في أشـخاص يريـدون إنقاذه. كان أبـي يرقد على فراش من الخشـب ومعين أمله الوحيـد ضجيج القذائف المدفعية التي قد تقتلني خوفاً.

ثـم وصـل السـوفيات، علـى مقدّمـات مدرّعاتهم صـور سـتالين، القائد العظيـم، ومطـارق ومناجـل. جـاءوا للنجـدة، يمنحـون الخبـز، والسـمك المدخَّن، وحساء يدعى شاياً، وفودكا. جاؤوا بالخلاص وبالرؤية، وكان كأنه قـد تحدد سـلفاً ما سـيكون عليه الأمر في السـنوات القادمة. لـه، لي، لبلدي،

وللعالـم برمّته. أخبرت الرفيق ب. أن إلزي كوخ، ضابطة القوات المتوحشـة تلـك، قـد ماتـت. تلك العاهـرة مـن بوخنفالد، التـي كانت تجمـع القفازات وأغلفة كتب من جلد رفاقنا الذين عذّبتهم حتى الموت، كان لديها عاكسـات أضواء من جلودهم حتى، شـنقت نفسـها في زنزانتها بملاءة سريرها منذ عدة أيام. أقلـه إنصاف صغير لهؤلاء الذين عذّبتهم. أترين، منذ دقيقة كنت تفترين على الرجال: النساء يقتلن أيضاً.

أتذكـر حيـن أخبرنـي بابا عن هـذه المنحرفـة. كانت في عينيـه وحش من وحـوش القـوات الخاصة. لكنهـا تصرفت كوحش لأن النظام الوحشـي كان يقسّـم النـاس إلى من هم بشـر ومن هم دون البشـر، وهؤلاء يمكن سـجنهم وتعذيبهم وتسـميمهم - بلا محاكمة وبلا رحمة. كم وحش قام بالشيء نفسه هنا في السـنوات التي تلت ذلك بإذن من بابا أو على الأقل بموافقته الضمنية. كم عدد الذين عُذبوا حتى الموت؟ لم يصنعوا عاكسـات ضوء من جلودهم، لكن عاكسات الضوء ليست القضية الأساسية.

مـاذا كان فـي ذهن إلـزي وهي تصنع الأنشـوطة مـن ملاءة فراشـها؟ هل فهمت شيئاً ما عن نفسها أم شعرت ببساطة بالفراغ واليأس؟

ينتابنا جميعاً الشـعور باليأس من حين لآخر، لكننا لسـنا متيني الأعصاب بما يكفي.

أنهـض وأذهـب لألقي نظرة علـى جانا. نائمـة بالطبع. أعـود لغرفة نومي ولأوراق بابا. يخطر لي أن أرى هل دوَّن شـيئاً عن كَسْـري لما كان يعتبره آنية زهـور قيّمة. كـم كان عمري حينها؟ لم أكن قد التحقت بالمدرسـة بعد، ربما كنت في الخامسة أو السادسة كحد أقصى.

كانـت آنية زهور كبيرة وكنت أراها جميلة. زرقاء نيلية ومنقوش على أحد جانبيهـا حورية. لـم أر وردة واحدة فيها قط. كانت علـى «البوفيه» والحورية تبتسم لي من أعلى تغريني بأخذها. وضعت كرسياً أمام البوفيه ووقفت عليها

ونظرت إلى تلك الحجرة من زجاج الآنية ورأيت كيف كانت مظلمة كسماء الليل.

ذات مرة، كنت وحدي في البيت، وراودتني الرغبة في أن أضع ماءً في آنية الزهور لأرى هل سيتحول للأزرق هو الآخر.

أخذت هذا الشيء الزجاجي الجميل وحملته بحرص بين ذراعيّ، كما تحملني أمي حين أبكي أو حين يخيفني كلب غريب في الشارع. الغريب أن الزجاج لم يكن بارداً، بل على العكس، كان يبعث دفئاً- دفئاً أزرق في الغالب.

وصلت إلى المطبخ وفتحت الماء الساخن. امتلأت الآنية ببطء وكان الماء بداخلها أزرق حقاً ويتصاعد منه البخار. ثم صدر صوت غريب لم أسمعه من قبل قط: صوت زجاج يتشقق. انشقت الآنية لنصفين وهي بين يديّ. ما زلت أتذكر الرعب الذي تملّكني وأنا أحاول- بلا جدوى بالطبع- إعادة أجزائها معاً مرة أخرى.

في البداية استجوبني بابا. لماذا أخذت الآنية من مكانها؟ ماذا كنت أنوي فعله بها؟ لماذا وضعت ماءً ساخناً فيها؟ هل أنا واعية بالضرر الذي تسببت فيه؟

ثم عنّفني. صرخت ووعدته أن أشتري له آنية جديدة حين أكبر؛ بل آنيتين جميلتين.

حين بدأت أكسب نقودي قمت بالفعل بجولات قليلة في متاجر التحف حتى وجدت أخيراً آنية زهور على الأقل بلون الآنية التي كسرتها منذ وقت طويل، لكن على أحد جوانبها طائر يحلّق، بدلاً من الحورية.

أهديت بابا آنية الزهور كهدية في أعياد الميلاد. وبّخني قائلاً: «هل جننتِ؟ ماذا سأفعل بآنية زهور؟ هل رأيتني أشتري زهوراً من قبل؟».

لقد نسي الآنية المكسورة منذ زمن طويل. لم يكن يعتزّ بها ولم يأسف

عليها؛ بل رأى فقط أن من الصواب أن يؤنبني على الجرم الشنيع الذي ارتكبته.

اتصفّح الدفاتر من أواخر الخمسينات ولا أجد إشارة للآنية. إما أنها غير موجودة، أو أنني أغفلتها. ألاحظ مع ذلك الظهور المتكرر لرفيقة تدعى «فيفي» والتي يبدو أنها هي نفسها المدعوة دبليو بعد ذلك. رأيت دبليو وتحدثت معها عن الزهور ليوم المرأة العالمي.. ذهبت ودبليو لنشاهد عرض ملحمة جندي وبَكَتْ. أصلحت ماكينة خياطة دبليو. لا مزيد من التفاصيل. كان حريصاً. كان مدركاً أن ما يدوِّنه قد يؤخذ ضده. حتى مع ذلك، أشعر وأنا أقرأ أنني أتلصص. عليّ أن أعيد الدفاتر إلى الصندوق. بابا مات؛ لماذا يجب أن أعرف أسراره وآثامه؟

في النهاية أنام قليلاً.

3

في الخارج صباح مايو (أيار) لطيف؛ يبدو كل شيء كأنه ينفجر مزدهراً. أتشمم ببهجة هبات النسيم التي تصل غرفتي من الحدائق القريبة. لكنني أفكر في مَنْ يعانون من الجيوب الأنفية، لا بد أنهم متعبون الآن؛ ابنتي أيضاً شكت من التهاب في عينيها حين استيقظت هذا الصباح.

عادت إلى المدرسة. رسبت مرة أخرى في الرياضيات. سألتها إن كانت تدرك فشلها. قالت إنها تعلم.

لن تكسب عيشها من الرياضيات!

سألتها أن تتكرم وتخبرني ممَّ ستكسب عيشها. إذ لن تعيش عالة عليّ لبقية حياتها أليس كذلك؟

يجب أن لا أقلق، ستتدبر أمرها بطريقة ما، وقد يكون على نحو أفضل كثيراً مما أفعل أنا!

الوقحة، لكن بمَ سأجيبها وأنا أرى سوء تدبري لأمور حياتي؟ أحاول أن أوضح لها أنها إن لم تنجح في امتحاناتها النهائية، حينها سيغدو أفضل ما تطمح إليه في الحياة هو أن تعمل مساعدة مصففة شعر.

أخبرتني بتحدٍ أنه يسعدها أن تتعلّم مهنة تصفيف الشعر. إنها حياتها هي وليس لي أن أقلق بشأنها.

حين كنت جالسة في المترو، وقفت فتاتان في سن جانا أمامي. أدهشتني نظافتهما من الداخل والخارج: لا زينة وجه حربية، ولا أقراط في أنفيهما أو أذنيهما. لماذا لا تبدو ابنتي مثلهما؟

أنا مرهقة من قِلة النوم، من حسن الحظ أن دوام العمل في العيادة اليوم لوقت قصير. في الأيام المشمسة، كاليوم، لا يرغب الناس في الذهاب لطبيب الأسنان وبوسعي أخذ قيلولة من آن لآخر في غرفة الأشعة.

لن أعود للبيت بعد العمل على أية حال، عليّ أن أذهب للمحجر لأطلب النقش الذي سيحفر على شاهد القبر وأشتري جرّة لحفظ رماد بابا. ثم عليّ أن أرتّب مع مكتب المقبرة لدفنهما. استدعيَ كل أصحاب الصلة لمكتب الكاتب العدل الأسبوع القادم لتقاسم تركة بابا. إجراء عديم الجدوى إذ لم يترك سوى القليل من الملابس القديمة - من ضمنها زي الميليشيا الشعبية- وفراش وصندوق مليء بكتاباته. وكذلك بورتريه للينين، زعيم البروليتاريا العظيم. على شقيقتي أن تحضر لمكتب الكاتب العدل هي الأخرى. مع أنها لن تتعامل مع أي شيء آخر، ستحضر دفن جرة الرماد فقط، لطالما كان عليّ أنا أن أرتب لكل شيء قبل حضورها.

ذات مرة حين كانت في السادسة عشرة من عمرها، عادت الى البيت من مكان ما في حالة غريبة. كنت لأصفها هذه الأيام بـ «عالية»، لكن المخدرات كانت أمراً نادراً حينذاك، لذلك ربما كانت ثملة فقط. كانت ترتدي الثوب الطويل ذا الشرائط، الذي ترتديه لدروس الرقص، ووضعت في المسجل

ألبوم كريم[1] الذي يحوي ذاك العزف المنفرد للطبول، عزف طويل ومعصوم من الخطأ مع ذلك. كانت موسيقى متأججة حقاً وكنت قد مارست الحب وأنا أسمعها عدة مرات. كان بابا سيعترض بالتأكيد لو كنت أنا من شغّلت تلك الموسيقى، لأنها لم يُتفق على سلامتها سياسياً. لكنه كان يدع شقيقتي تفعل ما يحلو لها لأنها كانت ضعيفة ومريضة. وهكذا شغّلت تلك الموسيقى الشهوانية وراحت تتلوى عليها. لم يكن رقصاً بقدر ما كان إغفاءة نشوة حاولت فيها التنبؤ بمستقبلنا، بما في ذلك كيف سنموت. سيموت والدي بالسرطان وماما بأزمة قلبية غير مؤلمة. وسأموت أنا بيديّ. سألتها مذهولة: «كيف؟».

فكرّرت:

- «بيديكِ أنتِ. هذا كل ما أعرفه لكن لن يكون ثمة دم. أراكِ راقدة هناك شاحبة وجميلة، كأنك مغطاة بالصقيع. لعلك مجمّدة. لكنكِ ترقدين على شيء ما أخضر. ربما يكون عشباً أو مجرّد بساط».

خطر لي فجأة سؤالها: «وماذا عنكِ؟ لم تقولي شيئاً عن نفسك».

- «لا أعلم. المتنبئات لا يتنبأن لأنفسهن. ربما لن أموت أبداً». وضحكت.

صُعق والدانا ولم يتفوها بشيء. أخبرتها أنها كانت مخمورة ومثيرة للحرج، وأمسكت نفسي عن إخبارها أنها تقسو على الجميع ما عدا نفسها.

مات بابا جراء إصابته بسرطان الرئة. ماما ما زالت تعيش لكن الأطباء يحاولون جهدهم للحفاظ على ضغط دمها أعلى من المعتاد قليلاً. شقيقتي، كما تتخيل، لن تموت أبداً، وفي حين فكرت في الانتحار - خلع الذات - في مناسبات عدة، لم أستطع تنفيذ ذلك أبداً.

لا أريد أن أذهب إلى المحجر ولا إلى مكتب المقبرة ولا إلى مكتب الكاتب العدل. أكره التعامل مع الموظفين الرسميين، في الحقيقة مع أي

---

(1) Cream فرقة موسيقى بريطانية من ستينات القرن الفائت.

شخص يجلس خلف مكتب أو آلة كاتبة. على الرجال أن ينجزوا مثل هذه الأمور: لن ينظر إليهم البيروقراطيون الصغار الأفظاظ كمجرد دموع. أقصى ما يمكن للنساء أن يتعاملن معه هو التسوّق؛ لكنني امرأة مختلّة، إذ لا أحب حتى التسوّق. أكره المتاجر الكبرى، حيث يُعرض عليّ أسلوب حياة بديل متخم بالنفايات ويحاولون إقناعي بواسطة موسيقى مريضة أن هذا هو كل ما أحتاجه لأكون سعيدة. أغذُّ السير بين المعروضات، ألقي بالحد الأدنى تماماً مما أحتاجه في سلّة، ثم أهرب. أختار الأحذية من نوافذ العرض وإن لم يناسبني الحذاء أغادر. وأفعل المثل مع الملابس. حين تغريني المحلات بمئات الملابس الصارخة ينتابني الشعور بأني أنظر إلى صفوف بشر تتدلى من مشانق. يعلّقونها بلا رؤوس، كأنهم أزالوا رؤوسها لئلا تعوق طريقهم، لأن لا وجود للرؤوس إطلاقاً في هذا العالم بالتحديد. ترعبني هذه المشانق، وكالعادة، أهرب منها.

ليس لي زوج؛ قد يكون لديّ حبيب. حين اتصل بي آخر مرة سألني عن خططي في نهاية الأسبوع. أخبرته أنني في الغالب سأبقى مع ابنتي. أخبرني بإثارة أنه قد يسافر إلى برنو لحضور مؤتمر وقد أنهى لتوه الورقة التي سيقدمها.

سألته عن ماذا كانت؟

قال إنها محاولة لتفسير كيف ولماذا يخضع الناس للمجرمين. كان فخوراً لأن عليه أن يقدم ورقة. يزعجه أنه لم ينه دراسته، ويخطر لي فجأة أن هذا أحد أسباب إنجذابه إلي: أن يكون قادراً على ممارسة الحب مع طبيبة. كأنما من المهمّ كم سنة يقضيها المرء في تحصيل علم لا جدوى منه تقريباً.

أتصل بالبيت قبل انتهاء موعد العيادة، لكن لا أحد يجيب. ماذا تفعل الآن تلك المخلوقة التي تتمسكن حتى تتمكّن وبالتأكيد تقريباً تحاول تغمية عينيّ عن شيء ما. أنا غبية وساذجة؛ الأمر واضح للجميع ويبدو أنهم جميعاً يستحمرونني. لكن ما من أحد يمكنني اللجوء إليه. كل منا مهندس أقداره الخاصة - بدرجة ما على الأقل.

المحجر عند مدخل المقبرة مباشرة. للسيدة التي تجلس خلف الطاولة هيئة الفن الحديث، ما يتناسب ونمط عملها. حسنة الطبع أيضاً على رزانة تليق بالتعامل مع من فقدوا أقاربهم حديثاً. تسجّل اسم بابا على الحاسوب، وتفاصيل نقش الشاهد. ثم تأخذ مني إيداعاً وتطبع لي إيصالاً.

أسألها عن الجرّات فتعرض لي الأنواع الخمسة التي لديها، الاختلاف بينها في السعر أكثر مما في الشكل. كأن شكل جرة ستدفن تحت الأرض يهم في شيء. اختار أرخصها سعراً، مع أن الثمن مرتفع أصلاً. لا أعرف عن أسعار الجَرّات في الماضي، لكن لا بد أنها ارتفعت، ككل شيء آخر، من المهد إلى اللحد. على الناس الآن أن يتكفلوا بعلاج أسنانهم. إن كان لديك الوقت والموهبة يمكنك أن تجني ما يكفي لملء عدة جرات بنهاية حياتك المهنية.

- «أترغبين بمصباح أو آنية زهور أيضاً؟».

لا، لا أريد مصباحاً - لكن ماذا عن آنية الزهور؟ أتذكر مشهد طفولتي ووعدي بأن أشتري لأبي آنيتين؛ وفيت بنصف هذا الوعد فقط. وعلى المرء أن يفي بما يعد، حتى ولو تأخّر.

ألقي نظرة على الحجر الثقيل والأواني المعدن المعروضة. تخبرني السيدة التي تجلس إلى الحاسوب أن لديهم أواني خزفية عادية أيضاً لكن الأواني الكبيرة أفضل. الخفيفة قد تسقط بسهولة بسبب الريح أو الطيور. اللصوص أيضاً يفضّلون سرقة الأواني الخزفية والمعدنية. الأفضل أن نربط كل شيء بسلاسل وقفل، لكنهم لا يبيعون سلاسل هنا.

لا أعرف أي آنية تشبه تلك التي كسرتها، لقد نسيت شكلها، أتذكر فقط لونها.

- «هل لديكِ واحدة زرقاء؟».

تأتي لي بآنية أرجوانية أكثر منها زرقاء، لكن اللون لا يهم. ولا أقصى درجات الأزرق بريقاً سيسعد بابا الآن. أشتري الآنية الأرجوانية وفاءً بوعد قطعته منذ وقت طويل مضى. وعد أحمق وصفقة حمقاء.

أتصـل بالبيـت مرة أخـرى ولا أحد يجيـب. ثمة محطة بـاص بالقرب من هنا، أحد هذه الباصات قد يقلّني للجانب الآخر من المدينة حيث يقيم زوجي السابق والمريض الآن مرضاً عضالاً.

بعد نصف ساعة أدق جرس بابه. يمر وقت قبل أن أسمع صوت خطوات تجرّ نفسها.

ينفتح الباب وتزكم أنفي رائحة نتن الغرف التي لا يدخلها الهواء، والعرق والبول.

ينظر إليّ زوجي السابق والوحيد والأخير كأنه لا يعرفني.

- «إنه أنتِ أليس كذلك؟».

- «قد أذهب الآن وأعود في وقت آخر إن لم يكن وقتك يسمح».

- «لا. لا. أنا سعيد بزيارتك».

يبـدو أنه قد تأثّـر. يرتدي الـروب الأزرق الداكن الذي أهديتـه له في عيد الميـلاد منـذ سـنوات. كان له حينهـا كتفان عريضـان وعضـلات؛ يتمرن كل صباح بمشـد عضلات الصدر ويذهب للركض حول مقبـرة اليهود الجديدة. يتهدّل عليه الروب الآن كخيّال المآتة. خفّ شعره وتلبّد في خصلات رمادية قذرة. يتتبع نظرتي ويقول:

- «آسف. أبدو مريعاً».

رنيـن صوتـه الواضح الذي كان يثيرنـي بألوانه ودفئه يبدو لـي الآن غليظاً وميتاً.

- «لا، تبدو أفضل مما كنت عليه في المستشفى».

يطلـب منـي أن أجلس ويجر خطواتـه للبوفيه، ألمح السـاعة الكبيرة ذات البنـدول معلّقـة أعلى البوفيه، أحد الأشـياء القليلة التي طلـب أخذها معه من أثاثنا المشترك، متوقفة. توقفت عند منتصف النهار أو منتصف الليل بالضبط. أندهش. كان يحرص دائماً على دقتها.

يلاحظ دهشتي فيقول:

- «أنا أوقفتها. دقاتها تثير أعصابي». ثم يفتح البوفيه ويُخرج زجاجة نبيذ أحمر رخيصة. «أحدهم جلب لي هذه، ليس مسموحاً لي بالشرب. سأفتحها لكِ».

أهز رأسي رفضاً. لا أرغب في الشرب أمامه. أسأله:

- «هل تناولت العشاء؟».

- «ليس بعد. ليس لدي شهية وليس لديّ شيء لأتناوله».

- «هل تريد أن أطهو لك شيئاً؟».

أنهض وأذهب للمطبخ وأفتح الثلاجة. ليس فيها شيء ما خلا مكعب جبنة مطبوخة، وقطعة خبز جافّة، وحبّات بطاطا قليلة نيئة وذابلة.

- «سأشتري لك شيئاً من البقالة».

- «ابقي هنا. لا أرغب في شيء على كل حال».

أجلس أمامه وأسأله:

- «كيف تشعر؟»

يرفع كتفيه مجيباً: «أعطوني حبوباً ما، لكنها تجعلني أشعر بالعفن. كيف حال جانا؟»

- «أخبرَتني أنها جاءت لزيارتك وأعدّت لك فطائر محلاة».

- «حقاً؟» يبدو مندهشاً، ثم يتذكر «أوه. نعم، هذا صحيح. كانت هنا، لقد صارت جميلة حقاً».

أُخبره أن الجميلة قد ترسب في امتحاناتها، وأنها تهرب من المدرسة وتتسكع مع زمرة سيئة وأنها ربّما تدخّن الحشيش.

يحدق فيّ بإنهاك ثم يسألني:

- «ماذا ستفعلين بهذا الشأن؟».

نعم، ماذا سأفعل بهذا الشأن؟ للحظة تفور المرارة القديمة بداخلي. هكذا يسألني دائماً. كلما ارتفعت حرارة ابنتنا الصغيرة، حين جعلني حاملاً لرغبته في إثبات ذاته وليس لرغبته في الأبوّة، حين سُرقت شقتنا ذات مرة،

كلما انفجرت مواسـير المياه في حمام الشقة التي تعلونا، كان يسألني السؤال نفسـه: «ماذا سـتفعلين بهذا الشـأن؟»، ليس ماذا سـيفعل هو، أو ماذا سـنفعل نحن الاثنان. رجل عصري، أدركت ذلك في حينه. يحطّ على امرأة ويتشـبث بهـا: الولد الصغير على صدر أمه، يبقـى هناك حتى يملّه ويتطلع للرضاعة في مكان آخر.

أدركت هذا متأخرةً جداً، للأسف.

لا، لن أكون قاسية. أياً ما كان عليه من قبل، إنه يجلس الآن على الكرسي، إنسـان مسـكين وحيـد يعاني من النهايـة ويخافهـا. كيف خطر لـي أن أطلب نصحه أو أتوقع أي اهتمام من جانبه حتى؟

أخبره أنني لا أعرف ماذا سأفعل مع ابنتنا المراهقة. سأطلب مشورة الأكثر خبرة. يقول:

- «مخدرات. لم يكن لدينا مثل تلك الأشياء حين كنت في التعليم. ما عدا التدخيـن فـي الحمامات. لكن يجب عليك أن تقلعي عـن التدخين. ليس في البيت على كل حال. أنتِ تمثّلين قدوة سيئة».

هو يمثّل قدوة حسـنة. لا يدخِّن، لا يشـرب، يقوم بتمارين الصباح، يغسل أسـنانه ويخلع حذاءه حين يدخل إلى البيت. لم يفعل سـوى أن وجد عشـيقة وشرح لابنتنا الصغيرة أن الخداع والهجران جزء من الحياة.

- «كيف تقضي يومك؟»، أسـأله لأعيد المحادثة للشـخص الوحيد الذي يهمه.

- «أجلس هنا هكذا. أقرأ قليلاً أحياناً. لكن ما جدوى هذا؟ أجلس معظم الوقت هنا أنتظر وأسمع».

- «موسيقى؟»

يهز رأسه نفياً.

- «ماذا تسمع إذاً؟».

- «غمغمة الكون. ليلاً، حين يخلو الشـارع من السـيارات، أسمع صوت

مـرور الزمـن في الفضاء السـاكن. ليـس لطيفاً. هـذا أحد أسـباب توقفي عن تشغيل الساعة. لأنها تذكرني دائماً بأن الزمن لا يتوقف عن المضي للأمام».

لا أعلـم هل يعيد النظر فـي خبرته في الحياة فعلاً أو يبتـزّ عواطفي، أو أنه فقط يردد شيئاً قرأه في مكان ما.

- «ألا تنام في الليل؟».

- «أنام وأصحو مرات كثيرة، بالنهار أو بالليل سيّان».

ثم يضيف من دون أن ينظر لي:

- «أخشى أن أسقط في النوم. هذا غباء، لأن اللحظة لن تفوتني في جميع الأحوال، لكنني أفضّل أن أكون مستيقظاً».

اليوم في العيادة ذكر الأب كوستكا التواضع والتصالح. كان عليّ أن أسأله مـاذا يقصـد. لكان بإمكاني الآن قول شـيء مريح ومشـجِّع لزوجي السـابق، الـذي يظـن أن بوسـعه التحايـل على المـوت، أو هزيمتـه حتـى، إن لم يدعه يفاجئه أثناء نومه.

- «لا تفكـر فـي هـذا الأمر». أقول هذا ثـم أفكر أنها ليسـت أفضل طريقة لإنهاء زيارتي. فأسـأله: «أتتذكـر آخرة مرة زرتك في المستشـفى؟ كان معك شاب صغير؛ عرّفتني عليه».

- «لا أذكر».

- «أخبرتني أنه تلميذ سابق لك».

- «أوه. نعم. أتذكر الآن. لماذا تذكرينه؟»

- «أتصل بي ليسأل عن صحتك».

- «أمر لطيف منه».

أقول بنبرة أحاول قدر الإمكان أن أبدو فيها لا مبالية: «يبدو شخصاً لطيفاً».

- «ولم لا؟ يبدو الشـباب هذه الأيام أكثر إحساسـاً بالمسـؤولية، بعضهم علـى الأقل. كان طالباً ممتازاً، غير منظّـم قليلاً، لكنه مهتم بالتاريخ والنجوم. تحدثنـا معـاً عن الزمن. وأخبرني مرة أنه يهتم بالفلك، وحاولت أن أشـرح له إنه توجه لا حضاري».

- «ربما ليس كذلك»، أدافع عنه.

- «أعرف أنك أيضاً تؤمنين بهذا. حاولت أن أشرح له أنه علم زائف. يؤسفني أنك كطبيبة قد تعيرين أي اهتمام لمثل هذه البِدع. لكنني بالكاد يمكنني أقناعك بهذا الآن».

- «يسعدني أنك لا تريد إقناعي»، أقول، ثم أودّعه وأتمنى له الشفاء قريباً. لكنني كطبيبة، لا أخدع نفسي بأنه سيشفى قط.

4

السبت صباحاً. كانت ليلة حارة. نمت بشكل سيئ. يزداد نومي سوءاً مؤخراً. مع أنني مرهقة. مرهقة بشدة إلى حد أنني أنهار ليلاً في حالة من اللاعقل. لكنني ما إن أتغلّب على تلك البلادة المميتة، أصحو مرة أخرى لأحاول العودة للنوم بلا جدوى. أنا متعبة جداً لأغط في النوم؛ كل شيء يؤلمني، جسدي، ظهري وساقاي وأفكاري أيضاً. أنا بحاجة لراحة. بحاجة لإجازة على الشاطئ.

الماء عنصري الغالب.

كانت فيرجينيا وولف تحب الماء أيضاً. كتبت: يجلس المرء هناك من دون إحساس بالزمن ويشرد بفكره. الفكر - لندعوه باسم أكثر إجلالاً مما يستحق - يترك نفسه للتيار. يتأرجح، من دقيقة إلى أخرى، هنا وهناك بين الانعكاسات والعشب... وأنهت حياتها في الماء أيضاً. في نهر يدعى الأوس.

أطلقت ناديا، زوجة الطاغية السوفياتي، النار على رأسها. يقولون إنهم وجدوا وردة على الأرض خارج الغرفة التي انتحرت فيها، كانت قد سقطت من شعرها.

ذهبت إلى الشاطئ منذ أربع سنوات مضت مع تشارلز الثاني. حجزنا غرفة في بنسيون، وكان البحر خلف بعض الكثبان الرملية الواطئة فقط. كانت

الغرفة صغيرة ونظيفة، بورود متفتحة على الطاولة وأخرى مطبوعة على الحوائط. رقدنا أحدنا إلى جانب الآخر ومارسنا الحب. كان تعامله معي كالمعتاد، عطوف ومحب، لكنني كنت في قبضة فكرة أنه يعاملني بالطريقة نفسها التي ربما عامل بها امرأة أخرى منذ أيام قليلة فقط، فكرة أنه لا يشقّ عليه أن يعلن حبه لا مرأتين مختلفتين. تطرقت للأمر أخيراً حين بدأ ذات صباح في التحدث عن مستقبلنا وعن كيف سنتزوج. لكنني فعلت ذلك على أمل أن ينكر كل شيء، أن يخبرني أنني مجنونة وأنه لا يحب أحداً غيري.

لكنه قال بدلاً من ذلك: «إيفا لا يبتل في فمها حبة فول. أرى ذلك».

قلت له إنه لا يهم من أخبرني.

أخفَض رأسه وسألني من دون أن ينظر إليّ إن كنت أريد معرفة تفاصيل.

كان ذلك آخر شيء أود معرفته.

سألني إن كان باستطاعتي مسامحته.

قلت إن ذلك باستطاعتي، لكنني لا أريد العيش معه.

ظل جامداً لوقت، ثم نهض وغادر الغرفة. رأيته من حيث أجلس يعبر الكثبان الرملية. كان البحر هائجاً وفُرض حظر سباحة منذ الصباح. ولم يكن تشارلز الثاني الذي يعاني من الصرع قد أخذ دواءه بعد ذاك اليوم. لا أعرف هل وصل إلى البحر. لو كان ذلك قد حدث في الماضي لقلت إنه ذهب ليبحث عن حياة جديدة في الغرب ببساطة. لكن خلال الخمس سنوات الأخيرة ما عاد أحد بحاجة للسفر إلى الخارج بحثاً عن الحرية، كان يهرب مني أنا فقط. لكن لماذا يهرب مني؟ وقد قلت له لتوّي إنني لا أريده؟ ربما كان يهرب من ضميره أيضاً، أو من اليأس أو الوحدة. أو كان مجذوباً للبحر والموت. بوسعي فهم هذا. كلما وقفت وحدي في بقعة معزولة تطلّ على البحر، أتخيّلني أسبِحُ مبتعدةً عن الشاطئ شيئاً فشيئاً حتى لا يعود بمقدوري الرجوع. أجد فكرة الغرق في الأعماق مفزعة ومغرية في آن. لكنني في جميع الأحوال أعلم أنني لن أموت بالماء، لأنني حوت. إن كنت هالكة لا محالة، ولي أن أختار ميتتي، ستكون ميتة نارية.

من الغريب أنهم لم يجدوا ملابسه على الشاطئ حتى. ظللت لفترة طويلة بعد ذلك أشعر بتأنيب الضمير لأنني قسوت عليه. لكن بعد ذلك راحت آثاره تمّحي من ذاكرتي بالطريقة نفسـها التي اختفى بها من دون أن يترك أثراً. ربما كان ما زال حياً واختفى فقط نكايةً بي لأنني رفضته.

الظاهر أن بابا لم يكن يواعد فيفي أو المعروفة بـدبليو فحسب، بل أنجب منهـا طفلاً أيضاً. رفضـت دبليو الإجهاض، رفضت حتـى أن ترى دكتور هـ. ثارت وأخبرتني أنها ليست أرنبة. تشاجرنا لكنها لم تعدل عن رأيها. ثم تركت فيفي المدينة ووجدت عملاً في شـروديم. اختفت من حياة بابا لكن ليس من العالـم. إذ يشـكو في مذكراته، بعد ذلك بسـنوات، من ضغط النفقة الشـهرية المعتادة التي عليه أن يدفعها لها للحفاظ على حياة شـيء ما لم يكن ينبغي أن يوجد.

أشـار لهذا الطفل أيضاً بكلمة «الشـيء». لذلك لا أعرف ما إذا كان ابناً أم كانت ابنته الثالثة.

أدرك فجـأة أننـي قـد يكون لدي أخوة آخـرون - أخ أو أخت غير أشـقاء. صعقتني الفكرة وتبعتها فكرة أن شـيئاً كهذا قد يحدث من دون أن يشـك أحد منّا: سـواء ماما أم أنا أم شـقيقتي. خدعنا بابا جميعـاً! ولحماقتي كنت أصدق أنه كان شريفاً معنا على الأقل.

أذهب وآخذ دوشـاً. أجعل الماء يتدفق بأشـد قوة: ربما يمكنني غسل كل هذا القرف، ضعفي وذنوبي الحقيقية والمتخيّلة.

أجد ابنتي في المطبخ بملابس الخروج بالفعل وقد تناولت إفطارها.

- «أتنوين الذهاب إلى مكان ما؟».

- «نحن ذاهبون لتظاهرة ضد العنصرية في ساحة المدينة القديمة».

أسألها من تعني بـ «نحن»، فتفرد لي قائمة بأسماء لا تعني لي شيئاً.

أطـري علـى اهتمامهـا برفاقهـا المواطنين وأعلن عن شـكّي فـي أنهم قد يتظاهرون في وقت مبكر هكذا في الصباح.

لا، التظاهرة عند منتصف النهار لكنهم يجب أن يقوموا ببعض التحضيرات والمناقشات وخطط التحرك لأنه من المحتمل أن يعتدي عليهم حليقو الرؤوس.

أتخيل ابنتي يضربها مغفّل غاضب من حليقي الرأس، لكنني أُهدئ روعي وأُحجم عن أمرها بالبقاء في البيت.

- «متى تنوين العودة للبيت؟».

تتردد للحظة: «كنت أفكر في المبيت الليلة في بيت كاتيا الريفي».

- «لقد قلتِ إنك ذاهبة لتظاهرة».

- «نعم، نحن ذاهبون، لكننا بعد ذلك..».

- «بعد ذلك تعودين للبيت».

- «لكن ماما، الطقس رائع بالخارج. أنتِ لا تريدينني حقاً أن ألفّ حول نفسي في براغ والطقس جميل هكذا».

- «بل لا أريدك أن تقضي الليل حيث لا يعلم إلا الله أين أنتِ ومع من».

- «لكنني أخبرتك. سأكون مع كاتيا فقط، في بيتهم الريفي».

- «ومن أيضاً؟».

- «ستكون أمها هناك أيضاً».

- «ولا أحد غيركن؟»

- «إنه ليس سوى كوخ صغير، كوخ نونو».

- «وستذهبين لهناك مع أم كاتيا؟».

- «بالطبع، بالكاد يمكننا صرفها بعيداً عنّا».

- «وماذا عن المذاكرة؟».

- «لكن ماما، ليس بإمكاني المذاكرة في هذا الجو الحار!».

- «كأنك كنت تذاكرين حين كان الجو بارداً».

تعترف: «نعم، لقد أهملت حقاً. معك حق. لكن فات أوان ذلك الآن على كل حال؛ لن أستطيع اللحاق أبداً».

- «يفوت الأوان فقط وأنتِ ميتة».
- «لكن الدرجات موجودة بالفعل. حقاً»

لا أريد أن أكون أمّاً متسلطة. أنا نفسي نلت ما يكفي من قيود بابا في البيت ولا أظن أنني تعافيت منها حتى الآن. لكن ماذا سيحدث لهذه الطفلة إن لم أربّي فيها الحسّ بالمسئولية؟

- «إنتِ لا تخفين شيئا عني؟».
- «مامي.....!».
- «لا تحاولي خداعي بطريقة معسولة، أريد إجابة».
- «أنا لا أخفي شيئاً عنك».
- «هل ستتصلين بعد التظاهرة وتخبريني ماذا فعل معكم حليقو الرأس؟»
- «بالطبع، إن لم يضربوني سأتصل بكِ من أول كابينة هاتف أجدها».
- «وإن سمحت لكِ بالمبيت مع كاتيا، هل ستعودين غداً ظهراً على أقصى تقدير؟».

تحيط رقبتي بذراعيها، وبدلاً من قطع وعود لن تفي بها على أية حال، تخبرني أنني أم مذهلة. ثم تحمل أثقالاً من سلاسل وخواتم من شتى الأنواع، وتطلي وجهها بمكياج الحرب وتخرج من الشقة، وقبل أن تصل إلى الباب الخارجي تكون قد نسيت كل شيء عن الشقّة والوعود وعن أمها.

ينظر لي ما تبقى من اليوم الآن نظرة خبيثة.

أروي نبتة المطاط وأزيل منها ورقتين صفراوين. أحشو الغسالة بالملابس وأُلمّع إطار النافذة التي تعلو جهاز التدفئة المركزية. عليّ أن أطهو شيئاً، لكنني لا أستمتع بالطبخ لنفسي فقط. أفكر لوهلة في الذهاب عند زوجي السابق وطبخ شيء له على الأقل، لكنني لا أستطيع أن أجمع عزمي على ذلك. أنا سامرية كسولة. أتصل بأمي لأسألها كيف حالها. نتحدث لوقت وتخبرني بأحلامها. استمع لها بصبر وأعرف أن الأحلام هي أكثر ما يؤثر عليها هذه الأيام، الآن بعد أن قلّت الإثارة والراحة في الحياة.

- «كيف حال جانا؟»، ماما تريد أن تعرف.

أخبرها أنها خرجت في تظاهرة ضد العنصرية.

- «وتركتِها تذهب؟ قد يصيبها أذى».

أحاول إخبارها أنه من الضروري مقاومة الشر، لكنني أفشل في إقناعها.

- «هذا ليس شأن الصغار، كنتِ ذهبتِ معها على الأقل».

ربما كان معها حق. لكن فكرة أن أزيّن نفسي بسلاسل وأخرج أهتف بشعارات، تجعلني أبتسم.

أشغّل نشرة أخبار منتصف النهار لأسمع أن الشرطة تمكنت من الكشف عن عصابة لتجارة المخدرات، وأن ثمة إضرابات لسائقي شاحنات النقل، والمعلمين، وموظفي الدولة، وأن ثمانية أفراد لقوا حتفهم بسبب الجو الحار، مع أن أذني لا تلتقط أين، وأن ثمة حريقاً في قطار على أحد خطوط سكة الحديد. لا ذكر لأية تظاهرات ضد العنصرية. إما لا يعلمون عنها أو إنهم لا يهتمون. سيهتمون فقط في حال حدوث اشتباكات عنيفة. ربما لا توجد أية تظاهرات ضد العنصرية اليوم، وابنتي اخترعت هذا لتخرج من البيت بأسرع ما يمكنها فقط.

لا يمكنني التوقف عن التفكير في أنها خدعتني.

الناس يكذبون: بابا كذب علينا، زوجي السابق كذب عليّ، حبي الطويل الضائع كذب عليّ. لماذا على ابنتي أن تكون أفضل منهم؟

لم تتردد في تزوير توقيعي في المدرسة حتى إنها تفاخرت ببراعتها في ذلك. وكان بودي جداً أن أثق بها، أن أثق بالجميع، أو على الأقل بهؤلاء الذين أُعنى بهم.

أعد لنفسي شطيرة جبن وكأس نبيذ. أنهي غدائي في خمس دقائق ثم أنطلق إلى محطة المترو.

الطقس حار جداً في ساحة المدينة القديمة. يتجمع السياح حول عربة

مثلجات. أمام الساعة الفلكية[1] يقف حشدٌ في الحر الخانق في انتظار ظهور الرسل في هيئة مطر أو بريق. لا يوجد أحد لأسأله أين مكان تظاهرة مناهضة العنصرية. إن كانت ستنطلق من هنا لكان عصف بالساحة موجات الكوكاكولا وحشود الوثنيين، كما يصف السياح ميكي ماوس حبيبي، الذي ذهب يستجم في برنو وتركني تحت رحمة الوثنيين.

بشر كثير. الواضح أننا سنضحى قريباً أكثر من ستة مليارات، قرأت ذلك مؤخراً.

استطعت حين كنت طالبة في الجامعة، أن أسافر إلى لندن، والفضل في ذلك يعود بلا شك لسجلّ بابا السياسي الذي لا يرقى إليه شك. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها حشوداً من البشر، العالم مليء ببشر لن أعرفهم أبداً، ولن أتحدث معهم، ولن أفهمهم. منذ ذلك الحين وأنا أخاف تلك الحشود، خاصة حين يتزاحمون بشدة حتى تتلامس أكتافهم.

قد أذهب وأجلس على درجات سلم نصب هاس[2] وانتظر. قد أعود للبيت وانتظر وانتظر. انتظر من في الحقيقة؟

ننتظر الخلاص الذي فارقنا. يمر بيت الشعر بخاطري، الرب وحده يعلم من أين، من الإنجيل ربما. ربما سمعته أحد أيام الآحاد حين كنت أحضر القداس نكاية بأبي.

على الأقل تُلقي الأزقة الضيقة للمدينة القديمة ببعض الظل، ولدهشتي أجد كابينة هاتف خالية.

أدخل بطاقة الهاتف وأتردد قبل الاتصال بالرقم.

تجيب امرأة. من نبرة صوتها لا تبدو عجوزاً تماماً؛ لكن لماذا يجب أن

---

(1) ساعة فلكية بنيت منذ 1410، ثالث أقدم ساعة فلكية في العالم والأقدم التي ما زالت تعمل.

(2) جان هاس (Jan Hus 1369-1415) رجل دين تشيكي وفيلسوف وإصلاحي وأستاذ في جامعة تشارلز ببراغ.

تكون عجوزاً؟ يجب أن لا تكون أمه أكبر مني سناً، وصوتي إن لم يتقدم به السن- أو على الأقل هكذا أخبر نفسي.

أتغلب على رغبتي في أن أغلق الخط فوراً من دون أن أتفوه بشيء؛ أقدم نفسي وأسأل عن ابنها، حبيبي.

- «انتظري قليلاً يا آنسة. سأناديه».

الجو خانق وحارّ في غرفة الهاتف وآنسته تتحمم في عرقها.

- «هذه أنا، كريستيانا».

- «أعرف صوتك بالطبع».

- «ألم تغادر بعد؟» أسأله بغباء.

- «لا سأغادر خلال ساعة».

- «وماذا ستفعل في تلك الساعة؟»

- «كنت أسجّل ملاحظات أخرى».

دقيقة صمت ثم يسأل: «وماذا تفعلين أنتِ؟».

- «أمشي في براغ». ولا أضيف، وأنا بائسة.

- «ظننتك قلتِ إنك ستكونين مع ابنتك».

- «لقد خرجَت. أخبرتني أنها في تظاهرة ما ثم ستقضي الليل في بيت ريفي عند إحدى صديقاتها.

- «وأنتِ وحدكِ في البيت؟».

- «لست في البيت. أنا أسير في براغ. ذهبت لألقي نظرة على التظاهرة لكنني لم أجدها. المكان مزدحم جداً ويستحيل العثور على أحد، ولا حتى على مظاهرة».- «أتظنين أن بإمكاننا اللقاء لفترة قصيرة؟»

- «لكنك ستغادر سريعاً».

- «أين أنتِ الآن؟»

أخبره بأمانة أنني في كابينة هاتف.

يريد أن يعرف أين سأذهب بعد أن أنهي المكالمة، لكنني لا أعرف.

- «حاولي إذاً مساعدتي في أن أجدك».
- «لن يكون لديك وقت في جميع الأحوال».
- «لكنني لن أذهب للمؤتمر لو كان لديّ فرصة أن أكون معك».

تؤثر فيّ كلماته. يؤثر فيّ وضعه لي في الأولوية قبل شيء مهم في عمله. لوهلة لا يسعني قول شيء، ثم أقول بسذاجة:

- «أنت مجنون. إن بقيت هنا ستندم فقط».

نتجادل في الأمر لوقت أطول قليلاً ثم نتفق على اللقاء خلال ساعة أمام المسرح القومي. أنهي المكالمة.

شعري غير مسرّح وبلوزتي مبللة بالعرق. لم أضع أي مكياج. أرتدي التنورة القديمة البالية التي أرتديها في البيت. أسرعت خارجة من البيت من دون أن أغيّر ملابسي. كيف خطر لي أن أتفق معه على موعد وأنا على هذه الحال؟ من حقه أن ينزعج لأنه ألغى سفراً لخاطري. ربما هو الآن نادم بالفعل.

كنت سأصبح عازفة كمان سيئة لأن يديَّ كانتا سترتعشان حين أعزف أمام الجمهور، مع أنهما صارمتان في العادة. كنت أشعر بتقلصات في بطني حين بدأت مواعدة زوجي الأول والوحيد. كنت قبل كل موعد أشعر بالذعر من فكرة أن لا يظهر. كنت خائفة، مع أنني كنت ما زلت جميلة - أو هكذا كان زملائي يقولون لي. وكارل أيضاً أكد ذلك. كنت أخاف أن أكون بغيضة، كأن مهمّتي كانت أن أقلق وأخاف على حبنا. لم أتخلص تماماً من هذا الخوف، حتى مع معرفتي حينها أنني الأقوى.

إن انطلقت مسرعة للمترو سيكون لديّ وقت للعودة للبيت وأخذ دوش وتغيير ملابسي. وقد أستقل تاكسي في العودة. ومن ناحية أخرى يمكنني أن أهاتفه مرة أخرى وأخبره أن يذهب لمؤتمره بدلاً من لقائي. أو أدعوه للبيت مباشرة.

بحسب ما يقول طالع بُرجي، يعبر كوكب بلوتو بالشمس - عنصر مصيري ينبئ بانقلاب جذري في حياتي. يبدو أن عملي في المؤسسة يتخذ هذا المنحى. هذا بالطبع ما لم يتعلّق الأمر بحياتي الخاصة. في الغالب يتعلّق بحياتي كلها.

ثمة كثيرون ممن يهددهم ما أكشفه. لا أدعي أنني مهم على نحو خاص. بوسع الآلاف غيري فعل ما أفعله. كل من يأخذ هذا العمل على محمل الجد ويحاول كشف حقيقة ما حدث، بدلاً من طمس آثارها، يُعدّ تهديداً. طُرِد مديرنا السابق الذي حاول منعهم من التعتيم على عملنا مع كامل الاحترام. حان الآن دورنا ولن يكون ثمة احترام.

لاحظت في أكثر من مناسبة أنني مُلاحَق، وغالباً ما يحدث ذلك عقب مقابلتي لمصدر معلومات مهم. مستحيل أن أجزم ما إذا كان مَن يلاحقني مِن عناصر الأمن السابق أم الحالي. ربما كانوا من العناصر الحاليين بعد التشاور مع السابقين.

لم يستوقفوني أبداً. إن حدث وكنت على موعد غرامي في حانة أو مطعم، يحاولون الجلوس بالقرب مني ما أمكنهم. وأصعِّب عليهم الأمر باختيار طاولة وسط الطاولات المشغولة. لا أعرف أدوات التنصّت التي يستخدمونها، لكن أعرف بعد أربع سنوات من القراءة عن عملهم أنهم إذا أرادوا الاستماع لما أقوله، سيصعب عليّ التشويش عليهم.

لا أحد يقول لي شيئاً في وجهي. أحياناً يقلقني أن أصاب بعقدة الشك.

مَن أعمل على ملفاتهم إما ماتوا أو يتصرّفون كأن ليس لهم علاقة بهذا الأمر. وحين يعترفون، يصرّون على أنهم لم يتسبّبوا بضرر لأحد. وماذا عن أصحاب تلك البلاغات؟ اختفوا؛ غرقوا في اليمّ؛ طارت أرواحهم جميعاً لِوجهة غير معروفة. لكن من حين لآخر تَحدُثُ معجزة وينشقّ اليمّ عنهم مرة

أخرى - كما حدث منذ أيام قليلة. جاء أوندريج ليسألني ما إذا كان قد مرّ عليّ وأنا أدقّق في الملفات شخصٌ يُدعى «النقيب هاديك».

أوندريج رئيسي المباشر، لكننا أصدقاء أكثر منّا زملاء عمل. لدينا اهتمامات مشتركة كثيرة. كلانا يحب الألعاب. هو صاروخ في ألعاب الكمبيوتر، ولاعب شطرنج ممتاز، لذلك ندعوه آليخاين[1]. لم يحتفظ بأفاعٍ أبداً، لكن لديه في البيت سلحفتان. ربما يكون أكثر واقعية مني، يهزأ من اعتقادي بالأبراج. إذ يرى أن ما لا يمكن إثباته غير موجود- هذه بالأحرى أفضل مقاربة لعملنا.

لم أتذكر أي «هاديك». في أي سياق قد يأتي ذكره؟

يوضح لي أنه كان المسؤول عن التحقيق مع عدد من قادة الكشافة، ربما مع بابا أيضاً. تدبر صديقي ومديري أن يكتشف عن طريق أحد الشهود أن النقيب- الذي ربما كان قد ترقّى لرتبة رائد في ما بعد - ما زال حياً. اسمه الحقيقي روكافيكا.

يلفت الاسم انتباهي. أول حرفين يذكرانني بالمدعو روباس الذي كان يتعامل مع بابا.

- «ما زال حياً حقاً؟».

- «يقيم في دار للمسنين خارج براغ مباشرة». ويشير إلى موقعها على الخريطة المعلّقة على حائط مكتبنا. بطبيعة الحال تقدم السن بالمحقق السابق كثيراً - تجاوز الثمانين الآن.

لكن من حقق مع أبي كان اسمه مختلفاً.

يقول أوندريج إنه احتمال وارد طبعاً. اختفت كل ملفات محاكمة أبي.

---

(1) ألكسندر آليخاين، لاعب شطرنج روسي(1892-1946)، حائز على بطولة العالم الرابعة في الشطرنج.

أخبرني أوندريج أنه سيحاول استجواب روكافيكا أو هاديك هذا في أسرع وقت ممكن. بإمكاني أن أحضر أيضاً إن أردت.

حثّني هذا التذكير بمصير أبي للعودة إلى أمر كنت قد نحّيته جانباً. دُعيت منذ شهر لمؤتمر في برنو لأتحدث عن بداية الإرهاب الشيوعي في البلاد. كان مقرراً أن يحضر عدد من المؤرخين المعروفين، وبعض رجال السياسة كذلك، وقد تكون فرصة للتحدث عن عملنا والتعبير عن رأينا. في الوقت نفسه كنت أخشى أن لا ألقى قبولاً. فلم أكتب سطراً واحداً حتى الآن.

لهذا رحت منذ ذلك اليوم ولبقية أيام الأسبوع أجلس كل مساء وأسجّل ملاحظاتي.

أردت أن أتحدث بمصطلحات أكثر عمومية، وأن لا أرضّ بسذاجة ما اكتشفته من مطالعتي للملفات.

في القرن العشرين، خلافاً للقرن السابق له، قُتل الكثير من البشر ممن خلف الصفوف الأمامية حتى لتظن أن الجنس البشري قد جنّ جنونه فجأة. لكن لطالما يُقتل الأبرياء. تقول القصة الإنجيلية إن بني إسرائيل قتلوا أهل كنعان في المعركة وفي التيه الذي اتبعوهم إليه. «إذ رفع يوشع يده التي تمسك برمحه فدمّر كل أهل كنعان». هكذا يقول سفر يحمل الاسم نفسه.

هكذا هو الأمر وما زال كذلك. خلافاً للحيوانات، البشر يفكّرون ويشعرون، لهذا يدركون قلق ضحاياهم الذين قتلوهم. يدركون رغبتهم الخاصة في العيش والحفاظ على نوعهم، وبإمكانهم التخمين أن للقتلة الرغبات نفسها. لتقتل من دون ندم أو شعور مشابه، بل على العكس، بحس الإتقان في العمل، من الضروري أن تَعتبر الضحية أحد الملعونين، كائن أقل شأناً أو خصم لدود وغادِر. فيغدو تدميره وإبادة جنسه صنيعاً يسديه القاتل للجنس البشري أو لحماية العقيدة أو أي من تلك الأهدف السامية التي يعتنقونها.

لماذا نشأت في القرن العشرين نظريات عن ملعونين يجب إبادتهم

بالملايين؟ ولماذا لقيت تأييداً حاشداً؟

يمكن إيجاد تفسير في الانحدار الأخلاقي، أو بالأحرى انحدار الدين. بالطبع كان ثمة الكثير من القسوة في الألفيتين التي مارست فيهما المسيحية نفوذاً روحياً. طالبت الكنيسة، وهي في أوج سلطتها، بالطاعة والانضباط التامّين وعاقبت المرتدّين بقسوة، لكنها رسّخت حدوداً بالتدريج. المشكلة أن المسيحية في القرن العشرين أجابت على أسئلة الناس بعدم ثقة في النفس أو بارتباك، ومن شأن ذلك حتماً أن يؤثّر على إيمانهم بشكل ما، فإما يفقدونه أو يتجسّد لهم في أشكال كابوسية بعيدة الصلة تماماً عن الإيمان الأصلي بيسوع المسيح. وتلاشى تدريجاً الإيمان بمعجزة سبق أن حدثت، أو برب سبق وأن ملأ العالم.

لكن غالبية البشر بحاجة للإيمان. يريدون تكريم القديسين. يريدون رباً وطقوساً. لذلك تهيأ الوقت للأيام الأخيرة، بدأت حركات لا دينية كبرى تعيد إحياء ديانات بربرية وثنية. قدم النازيون والشيوعيون مُثلهم وقادتهم كآلهة يجب فرض صورها في مناسباتهم اللانهائية التي اخترعوها. اجتماعات الحزب، إجازات علمانية، الذكرى السنوية لانتصاراتهم، الانتخابات، وحتى تنفيذ أحكام الأعدام، تحولت جميعها إلى طقوس احتفالية يُقصد بها إشعال النار في عواطف المؤمنين والمجذوبين وتخدير وعيهم.

تتطلبت هذه الديانات الجديدة الطاعة والانضباط أيضاً، لكنها كانت مجرّدة من الرحمة ولم تُرسّخ أي حدّ لا يمكن تعدّيه. وأعادت التضحية بالبشر بنسبة لا سابقة لها في تاريخ البشر.

بالطبع يمكننا إيجاد أسباب اقتصادية وتاريخية لما حدث. الذعر الذي ولّدته مذابح الحرب العالمية الأولى، القلق الناجم عن اضطرابات عصر الصناعة، التوق لتنظيم أفضل للمجتمع. مع كل ذلك يحتاج البشر ليحتشدوا في كتلة ضخمة لا مفكّرةٍ وطائعة على استعداد لفعل كل ما يأمر به قادتها، لأن يؤمنوا إيماناً لا حدّ له في شيء ما يبدو فوق بشري ومنصف يعرف رسله أن

كل دين جديد إنما يعرِّف نفسه بمصطلحات من يعارضونه، والذين هم لذلك ملعونون. كان من الضروري قتل الكولاك، أو اليهود، أو الثوار المضادين، وإطلاق النار على القساوسة، وشنق الملوك، وتسميم الرضّع وإعدام المزيد والمزيد من الضحايا لإضفاء الشرعية على الديانات الجديدة.

فقط حين لامست الأسس الروحانية لهذا الإرهاب بدا لي أن من اللائق أن أقدِّم عنه هنا كشف حساب، وأن أوضح لماذا يرحّب قسم كبير من النخبة المفكرة - شعراء ومحامون وصحافيون وأكاديميون - بتأييد الإرهاب الشيوعي. وختاما لعرضي سأتناول مسألة لا شك أن منظّمي هذا المؤتمر لا يتوقعون مني تناولها: إنها الجهود المبذولة لتتبع أثر قادة الحملات الإرهابية وإيقافهم أمام محاكمنا غير الراغبة في محاكمتهم كثيراً.

كنت يوم السبت على وشك الذهاب إلى محطة الباص حين هاتفتني كريستيانا وشعرتُ في صوتها بحزن أشد من المعتاد. فقلت شيئاً ما خطر كالصعقة على الفور. وعدتها أن ألغي رحلتي وآتي للقائها. ما الذي حملني على هذا؟ أكان حباً لها أو خوفاً باطنياً من أنني لن أنجح في مواجهة كل هؤلاء الخبراء؟

6

أستيقظ. أجدني في غرفتي على فراشي، لكن أحدهم يتنفس بهدوء بجانبي ويد أحد غيري على فخذي. أنت معي هنا يا ولدي الصغير. قلت لي أشياء رائعة حين كنّا نمارس الحب وحين كنا نسقط في النوم.

مضى وقت طويل منذ قال لي أحدهم «يا غرامي» أو دعاني فتاته الصغيرة، إذ رغم كل شيء مضى عهد بعيد منذ أن كنت فتاة صغيرة، لم يلمسني أحد أو ربّت عليّ واحتضنني حتى سقط في النوم. كنت مهمَلة.

الفراش ضيق للغاية فأخشى أن أتحرّك لئلا أوقظه. قد أنهض وأذهب

للنوم في حجرة جانا لكنني لا أرغب في تركه.

أتساءل أين تنام ابنتي. لم يكن عليّ أن أسمح لها بالذهاب؛ يجب أن تكون عيني عليها في الليل على الأقل. وعدت أن تتصل بي لكنها لم تتصل. إذا لم تكن قد اتصلت وأنا أتجوّل في براغ. أعرف أنها خارج نطاق سيطرتي الآن. إنها بحاجة لأب. لعل هذا الشاب الذي يرقد بجانبي يرغب في لعب هذا الدور، لكنني أخشى أن أزعجه بهذا، وكذلك لست واثقة من رد فعل جانا. لعلها ستتقبله كصديق وتغازله، أو سترفض أن يكون لها أي صلة به.

لو لم أسمح لجانا لم يكن ليرقد بجانبي الآن.

ينثال الضوء الأصفر لعمود الإنارة بالشارع من النافذة. أنهض قليلاً وأتفرّس في وجهه. وديع وطفولي على نحو ما، يبدو لي بريئاً، ما يعد غريباً بالنسبة لعمله. لعلني أرى فيه نفسي، آمالي التي أعلّقها عليه. ليس لديّ ابن. ربما كنت سأحظى بابن أو أكثر، لكنني تركتهم يُجهضون. ربما كان واحداً منهم سيشبهه.

لن يكون لديّ ابن الآن - أنا عجوز جداً. قد ينجب ابني الكثير من الأبناء، لكن ليس منّي. لا بد أنه يدرك هذا. عليّ أن أسأله إن كان يرغب في أطفال، لكن ماذا سيكون رده؟ إن قال نعم، سيكون ذلك كأنه يخبرني أن عليه أن يجد واحدة أخرى. ربما لا يتوق لأطفال. زوجي الأول والوحيد لم يكن يرغب في طفل. كنت أنا من أقنعته في النهاية، لم أكن راغبة في أن أقضي مجدداً على الحياة التي ولّدها بداخلي.

بالطبع كان ثمة أوقات حين كان الرجال يتوقون لوريث يورثونه أراضي وأعمالاً وأملاكاً- أكثرهم هذه الأيام ليس لديه شيء لتوريثه.

سأسأل رجلي الشاب على كل حال، إنه يغمرني باهتمام أكثر من أي رجل قابلته من قبل. أهداني صَدَفة كبيرة بألوان قوس قزح تُصدر صوتاً حين يُنفخ فيها. صَدَفة لأنني حوت. ذكرت مرة أنني كسرت نظارة الشمس الخاصة بي فأهداني واحدة جديدة في اليوم التالي. لا تليق عليّ بلا شك، لكنني أرتديها

لأنها هدية منه. اشترى لي في إحدى سفراته المحلية للعمل وشاحاً حريرياً؛ وشاحاً أزرق سماوياً وثمة أوزة تطير منسوجة بالخيط على أركانه الأربعة.

سألته:

- «إلى أين تطير تلك الأجنحة؟»

- «إلى الحرية».

- «ليس بوسع البشر ذلك. بوسع الأوزّ فقط».

- «إلى أين ستطيرين لو كنتِ أوزة؟»

- «إلى حيث تكون طبعاً».

لكل هذا أحبه. لكنني في الوقت نفسه لا أفهم لماذا يحبني - لا شيء غير عادي فيّ: امرأة متقدمة في السن وتعبث في أفواه الناس، لديها ابنة شابة تقريباً وتعاني من الاكتئاب الصباحي وتتخلّص منه بالنيكوتين وكأس نبيذ. ماذا لديّ لأقدمه له؟ ربما أشبه والدته أو أتطابق مع تصور باطني آخر لديه. تتأجج مشاعر في نفوس البشر من دون أن يعرفوا لماذا، وتتلاشى منها على النحو نفسه الذي يتعذّر تفسيره.

أبحث عن تفسير وأقنع نفسي أن الرجل الذي يرقد بجانبي يختلف عن الآخرين - أقل أنانية: عطوف وأنيس. لكن حتى مع كل ذلك، لا شيء سيغير من حقيقة أنه يوماً ما، ربما غداً، أو خلال شهر أو خلال عام، ستتلاشى مشاعره. ماذا سيفعل حينها؟

سيرحل، بالطبع.

وإن لم يرحل سيعود ذلك علينا بأوقات عصيبة، نحن الاثنين. كتب عزيزي كارل تشابيك قصة امرأة لها حبيب أصغر منها. قصة مأسوية تنتهي بجريمة قتل لا يعقلها عقل. كيف ستنتهي قصتي؟

يتحرك جان ويفتح عينيه الداكنتين تماماً في العتمة. يسألني:

- «ألستِ نائمة؟».

- «استيقظت وبدأت أفكر في ما يقلقني».

- «ماذا يقلقك؟».
أقول في سرّي، كنت أفكر كيف ستتركني.
- «جانا تعبث بحياتها. لا تذاكر جيداً، وتهرب من المدرسة وتدخّن ماريجوانا».
- «أنتِ لم تُعرِّفيني عليها من قبل أبداً».
- «إنها لا تعرف شيئاً عنك».
- «هل تخجلين مني؟»
- «أنت تعرف أنني لست كذلك».
- «ربما بإمكاني مساعدتك معها. مع أن ليس لي خبرة بالماريجوانا.
يقترب مني للحظة. ثم يدرك ضيق المساحة التي يتركها لي ويعرض أن ينام على الأرض.
أخبره أنني أريده أن يبقى بجانبي فيخطر له أن بإمكاننا نقل فراش جانا لغرفة نومي.
- «الآن، في منتصف الليل؟».
- «لم أنقل فراشاً في منتصف الليل من قبل أبداً».
نحمل فراش جانا في الثانية بعد منتصف الليل. يرقد الفراشان جنباً إلى جنب بعد وقت طويل، كذكرى لفراش زوجية. يقول جان: «أشعر بالعطش».
على الطاولة زجاجة نبيذ نصفها فارغ. لكنه لا يريد نبيذاً. لم يشرب معي حتى في المساء. يذهب للمطبخ ليأتي لنفسه بكوب من السائل الحقير الذي يجري في الصنبور. أسأله:
- «هل أنت جائع؟»
- «أنا دائماً جائع، ذلك أني غالباً ليس لديّ الوقت لأحظى بوجبة لائقة».
ويضيف أن التفكير في الطعام يبدو له إهداراً للوقت. عرفت الآن، على الأقل، لماذا هو نحيف.
أعرض عليه بعض الخبز بالزبدة، لكنه يقول إنه يفضل أن يعدّ بعض

الحساء. فأبدأ في الثانية والربع بعد منتصف الليل في الطبخ. يصر أن يعد حساء البطاطس بنفسه. ليس عليّ سوى أن آتي له بالمكوِّنات اللازمة.

لست معتادة على أن يطبخ لي أحدهم سواء في النهار أو في الليل. لست معتادة على الجلوس والانتظار ببساطة. أسأله:

- «لماذا أنت لطيف هكذا؟»

- «لست لطيفاً على الإطلاق. في الغالب أفضّل دور الشرير حين نجتمع لنلعب بطولات».

- «لكن ما من سبيل لتعرف ما أنت عليه حقاً».

- «لماذا تسألين إذاً؟».

يخبرني ونحن نتناول الحساء كيف لعب في أحد الألعاب، التي لا أعرف شيئاً عن قواعدها، دور طبّاخ صيني كان عليه أن يدسّ السّم في الطعام للإمبراطور. أسأله:

- «وهل سممته؟».

- «بالطبع سممته. كان لديّ مستوى عال من المهارة والذكاء».

- «أنت لم تضع شيئاً في حسائي أليس كذلك؟»

- «ولماذا تظنين هذا الإصرار على أن أعده بنفسي».

- «لهذا إذاً بقيت في براغ. ألا يهمك كثيراً أنك لم تقدِّم ورقتك؟»

- «في الثالثة صباحاً، كل ما يهمني أن الفجر سيطلع سريعاً».

يحبطني رده قليلاً. يلاحظ ذلك فيقول:

- «سأجد فرصة. الأمر فقط بحاجة لبعض الوقت». وبذلك يُطمئن نفسَه أيضاً.

حين نأوي أخيراً إلى فراشنا الذي اتّسع، يأخذني بين ذراعيه. يدللني مرة أخرى ويقول لي أشياء رقيقة أخرى.

ولدي الصغير، ماذا تفعل هنا معي في الثالثة صباحاً؟

أهمس قائلة: «لا تخرج، ابق فيّ، ليس عليك أن تخرج، لن أنجب المزيد

من الأطفال على أية حال».

صمت. انتهت ممارسة الحب. أسأله:

- «ألا يضايقك أنني لست قادرة على إنجاب أطفال بعد الآن؟»

لا يجيب على سؤالي. بل يقول إنه يحبني.

- «لكنني سألتك سؤالاً».

- «وأنا أجبتك».

- «لم تكن تلك إجابة».

- «إن أحببتِ أحداً فأنت تحبينه كما هو».

- «وهل تحب أن تنجب أطفالاً؟»، لا أسأله هل يحب أن ينجبهم منّي.

- «لا أعرف، أظن أن أمي هي من تريد أطفالاً. لكن الأمر ليس مهماً».

لم يكن عليّ أن أتحدث في الأمر. لا أريد أن يكون لامرأة أخرى صلة بما بيننا. أتذكَّر:

- «دَعتني أمك آنسة».

- «ماما تعتقد أن كل امرأة تتصل بي آنسة».

- «هل تتصل بك آنسات كثيرات؟»

- «هذا يعتمد على ما تعنينه بكثيرات».

- «كثيرات، في هذه الحالة على الأقل، تعني أكثر من واحدة».

- «كثيرات إذاً».

- «كان يجب أن أعرف». أضحك قليلاً، ينبلج الفجر في الخارج. أضحك فيما يمور بداخلي الغيرة والحزن.

يريح رأسه على صدري. يريد أن ينام بعد ممارسة الحب. أسأله: «وحين تردّ عليهن أمك تقول لهنّ انتظري من فضلك سأناديه». وأضيف في سري: «لأنهن جميعاً يرقنها: لأنهن صغيرات وهي تريد أطفالاً».

- «وماذا ستقول غير ذلك؟».

- «ليس عليها أن تقول ذلك إلا إذا كنت أنا المتصلة، عليها أن تخبر

الأخريات ألا يزعجنك».

- «سأُعلمها بالأمر على الفور». يضحك لأنه لا يمكن أن يأخذ كلامي على محمل الجد. حتى أنا لا يمكنني ذلك، مع أنني أتمنى أن تفعل أمه هذا بالتحديد.

- «ألم تخبرها عني بعد؟»

- «لا، أنا لا أتحدث معها عن أشياء كهذه. لا أريدها أن تتدخل في حياتي».

- «كيف هي؟»

- «ماذا تعتقدين؟ إنها معلمة. كان عليها في سنّها هذه أن تتعلّم التعامل مع الحاسوب. لكنها رائعة، انسجمت معه جيداً».

- «هل تدخلت في حياتك من قبل؟».

- «إنها تحاول. إنها أمي. ما الذي لا تحاوله الأمهات؟».

يخطر لي أنني أيضاً لم أخبر أمي عنه. لكنه لم يخبر أمه لأنه يخجل مني، مطلّقة كبيرة في السن، في حين لم أخبر أنا أمي لأني أنا أخجل من نفسي.

7

كنا نرقد على العشب نثرثر. الجميع يثرثرون لكنني زهقانة لأن كاتيا ليست معنا. إنها الوحيدة الصايعة حقاً. نقوم بكل شيء معاً. نذهب إلى السينما معاً. ونتبادل أقراصنا المدمجة، ونذهب معاً لشراء الشرائط والحلي، ونفضل أن نشتريها متشابهة لنبدوا كأختين. لكن حين كنّا معاً في بيتهم الريفي الأسبوع الماضي عادت إلى البيت عالية كطيارة ورقية، فأدرك والدها إنها عالية وضربها بالحزام إلى حد لم تستطع معه الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. أخبرَته أن هذا يُعتبر انتهاكاً لحقوق الإنسان، وأنها ستترك البيت نهائياً، لكنه مسح بكرامتها الأرض وقال لها إنهم هم من سيطردونها من البيت نهائياً

إن تعاطت هذا الشيء مرة أخرى. وهي الآن ممنوعة من الذهاب لأي مكان، فقط من البيت إلى المدرسة والعكس، ووقت الانصراف من المدرسة ينتظرها دائماً أحد أفراد أسرتها عند البوابة: شقيقها الأكبر، أمها، أبوها، أو حتى جدتها المغضّنة. نكد حقيقي.

أحياناً يكون رودا صايعاً حقاً، لكن ابن وسخة لا يلتفت إلي، أحب أنفه الذي يشبه أنف بونو[1] حقاً، أو أطول حتى، وليس أنف حشرة كأنفي. ولديه أيضاً يدان كبيرتان حقاً وقويتان.

لاحظ لتوّه أنني مُكدَّرة فنفخ في وجهي بشيء ما، لم أسأل حتى ما هو لكنه كان أقوى من المعتاد، مزيج من البيكو[2] والشماك[3]، لكنني بدأت أشعر بروعة. أرغب في مضاجعة، لكنني لا أرغب في التحرك أيضاً. أحملق في السماء حيث تركض خيول وتحلّق طيور البشروش. رحلة صايعة.

أحد ما بجواري يقول إن الوسخين قادمون، لكني لا أهتم بخرائهم؛ لا أرغب في النهوض. ليأتوا. ليس لديّ بضاعة مسروقة، ولا حتى جرام، ولا إبرة حتى.

أراهم أنا أيضاً الآن، قطيع الخنازير بكامله، في الطليعة كلبا راعٍ ألماني مدرّبين خصيصاً على التعامل معنا. كانوا يصيحون أننا حثالة عالقةٌ في مياه الشرب ينبغي انتشالها ورميها في الفالتافا، الذي يجري هنا مصادفة منذ ألف سنة على الأقل، أو منذ الإنفجار العظيم. يقول رودا: «هيا. الأفضل أن نتفرّق، يبدون اليوم حقيرين حقاً».

فأنهض. ثمة كوخ مهجور ليس بعيداً من هنا اعتدنا أن نتسلل إليه من

---

(1) بول ديفيد هيوسن Paul David Hewson مغن وملحن أيرلندي اسم شهرته بونو Bono، من مواليد 1960، يعزف روك وبوسّت بانك على الجيتار والهارمونيكا، وناشط مجتمعي، عزف مع فرقتي يوتو U2 وباسينجرس Passengers.

(2) الاسم الدارج للميتامفيتامين أحد المنبهات النفسية.

(3) الاسم الدارج للهيروين.

نوافذه المكسورة عبر باحته. ولتصل إلى الباحة عليك أن تتسلّق جداراً قرضته الفئران والجرذان وأسنان الزمن.

بعد ذلك بنصف ساعة كنا جميعاً معاً مرة أخرى. ثمة حوالى تسعة منا. لست متأكدة. كنت مُدمّرة تماماً لأميّز بينهم. لم أكن متأكدة حتى ما إذا كان من أراهم حقيقيين أم لا. لحسن الحظ أن هذا لم يهم. لم يكن أيّ شيء مهم. لم أكن أهتم لا بالمدرسة ولا بماما؛ وعدتها أن أتصل بها لكنني لم أفعل وشعرت بحريّة تامة.

كان الكوخ بارداً حتى الآن مع أننا في الصيف. أرضيته من أحجار من نوع ما. الحوائط غارقة في البول. لا يوجد شيء يمكن الرقود عليه سوى هيكل سرير حديد وبعض حطام خزائن ملابس. كان ثمة بطاطين لكن أخذها بعض المتشردين في الشتاء الماضي. يوجد فقط كومة من فهارس الصفحات الصفر القديمة في أحد الأركان. آخر مرة نمنا فيها هنا كان البرد قارصاً حتى إنني وكاتيا غطينا نفسينا بالصفحات الصفر. كانت ثقيلة لكنها منحتنا بعض الدفء. وكان بالكاد ثمة أوكسجين. يقول رودا إن الأوكسجين سم، وأن المستقيمين الذين يذهبون إلى الجبال لتنفس الهواء المنعش من أجل صحتهم لا يدركون أن الأوكسجين هناك أقل لأنه يقل كلما زاد علوّنا. وإننا في الأسفل هنا مُسمَّمين وإن لم ندخن من حين لآخر سنموت.

لم أعرف حتى كم فتاة وكم فتى هناك.

كان الظلام قد خيّم بالفعل. أوقد أحدهم شمعة لكنها اشتعلت بصعوبة. كأننا في الجبل، ما أعرفه من بابا أن النار تحتاج لأوكسجين. تقافزت الظلال على الحوائط المهدمة التي تزحف عليها خنافس بحجم الأرانب.

كوّم رودا نفسه عليّ يرغب في مضاجعة. ولِمَ لا، لا يهمّ. صرّ لوح خزانة الملابس تحتنا. سمعت نفسي أقول له: «احترس». فأجابني أن لا أقلق، وأن

اللوح مصنوع من خشب جيد. أرعبني هذا حقاً.

أنـا أيضاً مصنوعة من خشـب جيد، لا يصدر عني صريـر، لكنني أتحمل. إن روانـي فقد أنبت أوراقاً، وقد أُزهر. تخيلت ألوان زهوري. أحب البرتقالي كالآذريـون. كان رودا قـد نهض عنّـي وتلمّس عيّل ما آخـر طريقه إليّ. كانت رائحته غريبة وخربشتني ذقنه الخشنة. هيه. ابتعد عني. رائحتك نتنة!

دفعته بعيداً عن لوح الدولاب لكنه كان قد تدبر أن يدخلني بالفعل.

بدأ أحدهم يعزف على الجيتار ويغني أغنية فارغة عن الحب.

عرفت شـيئاً ما عن الحب بالفعل. اكتشـفته حين نفضنا بابا عنه وذهب مع فزاعتـه تلك. وعدد من الزملاء علمونـي الحب؛ لا أعرف عددهم بدقة لأنني لا أعرف هل من قفزوا عليّ حقيقيين أم متخيلين. ربما كنت أتخيل الأمر كله. لكنـي لم أتخيل رودا، كان هو أول من أعطاني الحشـيش. كان ذلك منذ زمن طويل، في العهد الماضي، عامان على الأقل، أو ربما عشـرين عاماً إذ صرت عجـوزاً مريعة بالفعل، أليس كذلك؟ عمري مائة عام على الأقل. بدأت لتوي أشعر بنمو الطحالب عليّ.

يراقبنـي فأر مجارٍ من الركن بجوار البـاب المؤدي للامكان. فيمن تحدق أيها الأبله؟ فأر ضخم في حجم جرو وله عينا قط. ربما كان قطاً استيقظ فوجد نفسه فأراً. توم متنكر في هيئة جيري أو العكس.

ربمـا أتخيـل كل هذا: الطحالـب والفـأر والموجودين هنا وهـذه الحفرة الحقيرة حيث كل شيء نتن.

لكنني منتشـية. أحب الموجودين هنا حقاً لأنهم مثلي وأنا مثلهم. لا نهتم بـأي ابن وسـخة، لذلك مـا زال بإمكاننـا أن نضحك. نضحك طـوال الوقت تقريباً، خاصة بعد الحشـيش. قال أحدهـم: «هيـي، اليوم الأربعاء،» وكان يوم السبت، فهلكنا من الضحك. أحب الضحك حقاً. في البيت الضحك صعب.

ماما بنوبات اكتئابها الدائمة بسبب قذارة أبي معها ولأنها وحيدة، ليس لديها سواي - كما قالت - وهذا لا يكفي لأنه أحياناً لا يكون لديها أحد حتى أنا، مثل الآن. أرقد هناك وأشعر بأفضل مما أكون عليه وأنا في البيت، ويوماً ما سأرقد هنا بشكل نهائي وستنمو الطحالب على جسدي كله ولن أعرف أي شيء عن أي شيء. أو ربما سأنسحب إلى مكان ما أو أحلّق بعيداً.

ما زال هذا الأبله يغني عن الحب، كأنه موجود.

ربما الحب موجود، لكنه هناك على الجبال، لئلا يتسمَّم.

اعتدنا أن نذهب إلى الجبال أنا وبابا وماما وكان بابا يحملني على ظهره حين تؤلمني ساقاي وتسير ماما خلفنا وتظل تردد كل دقيقة: «أليست ثقيلة عليك؟ دعني أحملها أنا قليلاً». وكانت تغني أيضاً:

«لا تقلقي يا جانا

إن لم يعد لدينا غِذاء

سنقتل ذبابة سمينة

ونأكلها على الغداء».

لا أريد أن أبقى هنا بشكل نهائي، أريد أن أذهب إلى الجبال.

ربما عليّ أن أخبر ماما أنني أريد أن أذهب إلى الجبال. معها هي وبابا.

بابا بالكاد يمكنه صعود السلم، وحتى إن أمكنه لن يرغب في الذهاب مع ماما.

ثمة فأر مجارِ الآن. فيمن تحدقان أيها الأبلهان؟

عندما أعطاني رودا الحشيش أول مرة كنت متشوقة لتجربته فعلاً وخائفة قليلاً من أثره، لكنه بالكاد أثَّر فيّ. لم أعرف وقتها كيف أسحب نفساً، لكنه لم يعطني سوى نفَسين أو ثلاثة على أية حال، وظل يسألني: «بم تشعرين؟ هل علوتِ الآن؟».

حين عدت للبيت كنت مرعوبة من أن تكتشف ماما الأمر، لكنها لم

تكتشف شيئاً؛ صادف أن كانت مرهقة ومكتئبة إلى حد مريع؛ كانت تعاني من نوبة اكتئاب، وصداع، وحانقة لأنني لم أغسل الصحون.

كيف أغسل الصحون في يوم كهذا؟ أردت أن أستمتع بكوني سعيدة حقاً ولا أحد يستمتع بسعادته في غسل الصحون.

اعتلاني رودا مرة أخرى، إن كان هو، وبدأ يلامسني. لم أهتم، لكنني تهيّجت.

الآن أرغب في صعود جبل، لكن ليس معك، أيها الأبله.

الفصل الرابع

1

اشترى بابا القبر منذ سنوات؛ في ركن ناء بمقابر «أولساني». بقي أسلافه في مقابر القرية بـ«ليبوفا»؛ لديهم هناك المزيد من الضوء والأزهار، وأجراس تدق فوقهم يومياً، من بينهم عمتي فيندا التي أحرقت نفسها وجدتي ماري. جدتي الأخرى ذاب رمادها في نهر «فيستولا» على الأرجح أو نُثر فوق إحدى المقابر الجماعية، على الأقل نُقش اسمها مع آلاف الاسماء على أحد جدران كنيس «بينكاس» في براغ. حين شاهدته هناك لأول مرة وجدت الأمر غريباً ولا يصدَّق، حتى إن أم أمي ماتت بتلك الطريقة، وكدت أحس بالذنب لوجودي غير المُزعج ولحقيقة أن لا أحد يريد قتلي.

عند سفح المقبرة ثمة حفرة صغيرة عميقة جاهزة لاحتضان الجرة وبجوارها كومة تراب صغيرة كأن خلداً حفرها لتوه وتركها خلفه.

جاء أقاربه الأقربون: ماما، شقيقتي ليدا، جانا وأنا. نحن في انتظار وصول متعهدي الدفن. ماما تمسح دموعها، جانا ضجرها واضح وتسرح بنظرها بعيداً بتعبير شارد. ثمة جنازة للغجر على الطرف الآخر من الممر تتناهى لمسامعنا منها ألحان راقصة لتصطحب روح الفقيد إلى عالم أسعد وأكثر بهجة.

تقـول ماما باكيـة: «كان يمكن أن يظل معنا هنا، فلم يكن عجوزاً جداً رغم كل شيء».

أمسـك نفسـي عن الإشـارة إلى أنه كان سـيتم السادسة والسـبعين خلال أسـابيع قليلة، مـا يزيد على متوسـط العمر الطبيعـي للرجال فـي بلادنا، وأن الأهم من طول العمر هو كيف يعيشه المرء.

لكن شـقيقتي لم تسـتطع كبح نفسـها على كل حال: «كان يمكنه أن يقلل مـن التدخين ودهن لحم الخنزيـر، ولحم الخنزير المقـدد واللحوم المدخَّنة الرخيصة. لم أره يلمس خضروات طوال حياتي، اللهم قطعة كرنب إن جاءت مع الأوزّة أو لحم الخنزير المشوي».

تأخذ ماما التأنيب على محمل شـخصي بوصفها المسؤولة عن إطعام بابا طوال حياته ويعلو صوت بكائها.

لكن فـي هذه اللحظة يلوح من أحد الممـرات الجانبية رجلان في بدلتين سـوداوين لامعتين. يبدوان تماماً كما أتخيل مُحضرا المحكمة، في المحكمة التي يرقد مؤلفها في مدافن اليهود الملحقة بهذه المدافن. لا ينقصهما سـوى السـكّين، بدلاً منها يحمل أحدهما جرة تحوي رمـاداً ويحمل الآخر مجرفة. يتوقفا عند قبرنا، ينحنيان لنا ثم يقفان لفترة بمسحة عزاء مصطنعة.

يميـل أولهما على الحفرة ويضع فيها الجرّة. يمـد لنا الآخر يده بالمجرفة فنجـرف القليـل من التـراب إلـى الحفرة الضحلـة. يقعقع الحصـى المرتطم بغطاء الجرة.

يتـم الأمر كله بإيجـاز، لا وقت ولو حتى لطرفة عين للـرب. لا أحد يغني شـيئاً ولا أحد يعزف شـيئاً، لا نسـمع سوى أنغام رقصة التشـاردس[1] آتية من جنـازة الغجر. شـاهدت في التلفزيون امـرأة عجوزاً من موسـكو تلوّح أعلى رأسـها بتحدٍ بصـورة للطاغية الذي مات يـوم وُلدْت. ربما كان سيسـر بابا لو

(1) رقصة ريفية هنجارية.

كنت أحمل صورة كهذه فوق قبره الآن. لكن ليس لدي واحدة وإن كان لديّ فلم أكن لألمسها بيديّ على كل حال. كنت سأرحّب كثيراً بأن أعزف له على الكمان، ولو حتى «مارش الشهداء»[1] ، إن كان تركني أستكمل دروسي.

أنهى الرجلان عملهما وصعدا ليعبّرا لنا عن عزائهما في انتظار الإكرامية بالطبع. يأخذ كلٌ منهما ورقةً نقدية بمائة كرونة ويغادرانا بخطوات متمهلة بينما نظل نحن واقفين هناك لوقت أطول قليلاً. لا أعرف فيمَ تفكر ماما، ولا شقيقتي. ليس لدى ماما أدنى فكرة عن خيانة أبي لها ولن تعرف عنها شيئاً أبداً الآن. لعلها تتذكّر اللحظات اللطيفة؛ ثمة بعض منها بالتأكيد. ربما تفكر في الوحدة التي ستصحبها لما تبقى من أيامها.

توفي بابا في البيت. عذّبه الألم في الأيام الأخيرة. زاره الطبيب في البيت وأعطاه حقنة لم تخفف كثيراً من آلامه. لم أسأل عمّا حقنوه به، لم أكن هناك معظم الوقت. لديّ أمبولات المورفين التي جلبتها لي الأخت اللصة أمينة المخازن. لم أستخدمها قط لكن كان بإمكاني حقن بابا بها. جميعها في حقنة واحدة حتى، لأختصر معاناته. كان بإمكاني فعل هذا، فقد كان محكوماً عليه بالإعدام في جميع الأحوال، لكنني لم أفعل. لم أستطع إنهاء حياته ولعب دور دكتور موت. ليس من حقي. أليس كذلك؟ أم إنني كنت فقط أختلق الأعذار؟ لتفعل هذا يجب أن تكون في حالة حب شديد أو كراهية شديدة - وما كنت كذلك. ما كنت لأشفق على شخص لم يبدِ طيلة حياته ذرّة عطف نحو الآخرين. قلت لنفسي إن على كل منا أن يتكيّف مع أقداره حتى النهاية، ففي هذا قدر من العدل، ليس لنا أن نتدخل فيه.

تسأل جانا: «ألا نذهب الآن؟».

أوصلنا ماما إلى البيت وتركت ابنتي تذهب إلى إحدى صديقاتها. قررَت شقيقتي العزيزة، التي تنبأت مرة أنني سأقتل نفسي، أن تعود إلى البيت معي لنتحدث قليلاً.

---

(1) لحن عسكري من التراث التشيكي مؤلفه مجهول.

أنظر في صندوق البريد قبل أن نصعد السلم إلى الشقة وآخذ الظرف الوحيد فيه؛ أعرف فوراً من خط اليد أنه خطاب آخر من المجهول. أزلقه بسرعة في حقيبة يدي قبل أن تتسنى الفرصة لشقيقتي أن تسألني من الذي يراسلني.

أُعِدّ بعض الشطائر المفتوحة لكن ليدا ترفضها؛ وجدت ديناً جديداً: أكل صحّي. لا تلمس اللحوم المدخّنة ولا حتى الجبنة. ليس مسموحاً لها بتناول الطماطم لأنها مُسمِّمة كالبطاطس، ولا تتناول الفلفل لإنه يحتوي على قدر كبير من الزنك أو معدن ما آخر خطير، وكذلك لإنها خضروات يمكن تعديل جيناتها الوراثية. يعود الفضل لحميتها هذه في أن تخلِّص جسدها من كل السموم والسوائل الكريهة؛ تخلّصت من كل أوجاعها وفقدت وزنها الزائد، وعيناها وصوتها صارا أفضل.

أصبّ لنفسي كأس نبيذ وتُخرج هي من حقيبة يدها قنينة صغيرة فيها أكسير ما أو آخر.

ليس لديّ جنين القمح ولا خضروات مخمَّرة. كل ما يمكنني تقديمه خبر الجاودار أضع عليه بناءً على طلبها بعض البقدونس والكُرَّاث.

تقول لي وهي تطلق تنهيدة عميقة: «أنتِ أيضاً عليكِ أن تتبعي أسلوب حياة أكثر حفاظاً على الصحة».

فاجأتني حين أمسكت نفسها عن الإشارة، كما فعلت في مناسبات سابقة، لشقتي المعبأة برائحة الدخان على نحو لا يطاق، مع ذلك أغاظتني بثقتها بنفسها المتلطّفة: إنها تعلم بدقة كما كان بابا يعلم، ما هو الصواب والصحّي - بالنسبة لها ولبقية البشر.

تظل إلى وقت تخبرني عن كل حفلاتها الناجحة ثم تعرض أن تدفع كافة نفقات الجنازة. أقول لها: «سنتقاسمها النصف بالنصف». ثم نظل صامتتين لفترة: شقيقتان ليس لديهما شيئاً لتقولانه».

أتذكر مذكرات بابا. أخبرها أنني حين كنت أتصفّحها اكتشفت أن بابا كانت لديه عشيقة.

لا تندهش شقيقتي للخبر بل تتلقاه ببساطة من غير اهتمام مخصوص.

- «لا شيء غريباً في هذا: كل الرجال لديهم عشيقات. ليس رئيساً للولايات المتحدة، لذا يمكنه المخاطرة».

أخبرها أنه على ما يبدو لديه طفل منها. حين تصفّحت مذكراته آخر مرة مررت بإخطار وفاة منذ عشر سنوات يعلن عن وفاة امرأة اسمها فيرونيكا فاسيلا. كان موقّعاً من شخص واحد فقط: ابنها، فاتسلاف ألويز فاسيلي، ويحمل عنوانه.

- «أتقصدين أن تلك التي ماتت كانت جميلته السرية؟ وأن فاتسلاف هذا شيء ما مثل أخينا غير الشقيق؟».

- «اسمه الثاني اسم بابا».

- «وماذا إذاً؟ لم نعلم بشأنه - لكم من السنين؟».

أخبرها أنه لا بد أكبر منها بعامين.

- «لم نعلم بشأنه لأربعين سنة»، تحسب سريعاً، «فلماذا نزعج أنفسنا بشأنه الآن. لا يوجد ميراث على كل حال. لم نغشه في شيء ولا شيء لينازعنا عليه».

- «المسألة ليست مجرد ميراث». ألا ترين أنه أمر غريب أن ثمة شخصاً أباه هو نفس أبونا يمشي على الأرض طوال تلك الفترة من دون أن نعلم عنه شيئاً؟

- «هذا هو بابا. كان مدرَّباً جيداً على إبعاد ماما عن جميع المسائل شديدة السرية. ثم تسأل فجأة من باب الفضول رغم كل شيء: «وأين يعيش قريبنا الجديد هذا؟».

- «في كارلين. في مكان يبدو أنه قريب من النهر، بالاستناد إلى اسم الشارع».

- «قد أغنّي في مسرح كارلين، إن سار كل شيء على نحو جيد».

- «لم تشك أمي في شيء قط». أقول متجاهلة الخبر المهم بإنها ستغني في براغ.

- «أو لعلها لم ترغب في معرفة شيء. هكذا أفضل لها».

- «لا. الأرجح أنها صدّقت كل خزعبلاته عن الأخلاقية الجديدة».

نتجادل لفترة بشأن ما صدّقته ماما وما فعله بابا. ثم تعلّق قائلة إن كل النساء يفضلن إغماض أعينهن عمّا يحدث في الحقيقة. وأنني أنا من تصرفت بغباء.

- «ماذا يجب أن يعني هذا؟».

- «حين اكتشفتِ أن كارل يخونك لم تفكري في أي شيء آخر غير الطلاق. فيمَ نفعك هذا؟ تُركتِ وحدك».

أمسكت نفسي عن الرد بأنني تُرِكت وحيدة لأنني أبيت العبودية، ولم أخبرها بأن على المرء أن يتصرف كما تملي عليه أحاسيسه وأن الصواب هو أن تفعل ما تحسه وليس ما هو متعارف عليه.

- «أنت أيضاً وحدك».

- «هذا كلام فارغ، أنا لدي دائماً رجل أو آخر ولست مثقلة بابنة».

- «أنتِ دائماً مختلفة، وبخصوص جانا، أنا سعيدة أنها لديّ».

- «بالمناسبة، لست راضية عن منظر ابنتك هذه».

- «ربما لا يعنيها إن كنتِ راضية عن منظرها أم لا».

- «ثمة شيء غريب في عينيها، لقد لاحظتها ونحن في المقابر. الناس في العادة لديهم عين قاسية وأخرى رقيقة لكنها ليست هكذا».

- «أنتِ عيناك الاثنتان قاسيتان، ولا أظنك غير طبيعية».

تؤكد لي قائلة:

- «عيني اليسرى أكثر رقة من اليمنى». ثم تردف: «لكننا لا نتحدث عن عينيّ. عينا ابنتك ليستا رقيقتين ولا قاسيتين إنهما في مكان ما آخر، وهذا شيء يجب أن تلاحظيه أنتِ بصفتك أمها».

- «ما الذي تحاولين قوله؟»

تعلن قائلة:

- «ابنتك هذه تتعاطى المخدرات. أراهن بحياتي على هذا».

أصيح فيها:

- «جانا لا تتعاطى المخدرات. أنتِ تبحثين عن أي طريقة لتؤذينا».

تضع يدها على كتفي وتقول:

- «كريستيانا، أنا لم أرغب في إيذائك قط، أنتِ دائماً من تؤذين نفسك بالاكتئاب لأي سبب. أنا فقط أعرف جيداً تعبير الوجه الميت هذا، وهذين البؤبؤين الواسعين». تستجمع نفسها ثم توضح: «كان اثنان من أعضاء فرقتي يتعاطيان البيكو وآخر يتعاطي الهيروين. لو تجاهلت الأمر سيكون ذلك أسوأ ما يحدث لابنتك، الأمر لا يعنيني».

«أعرف أن الأمر لا يعنيكِ. أنتِ لا تهتمين بنا قدر ذرّة». لا أسترسل لأخبرها أن حميتها الغذائية هذه قد تكون نزعت السموم من جسدها لكنها ما زالت تسري في عقلها.

حين تنصرف شقيقتي أتذكر خطاب المجهول وأُخرج رسالة جلّادي الأخيرة من حقيبة يدي.

يخبرني أنه يتتبع كل خطواتي وأن اللحظة قد حانت لتنغلق بوابات الجحيم خلفي.

2

يود جان أن نتقابل يومياً. نتقابل ونمارس الحب. يريدني أن أتصرف على نحو مناسب لعمره. لكنني لست في العشرين بعد. أشعر بألم في جسدي كله وأنا عائدة للبيت من العيادة في المساء: قدماي، ظهري، ذراعاي وذهني. لكن حتى وإن رغبت في رؤيته، أنا أم لفتاة مراهقة، وأموت قلقاً عليها.

بالرغم من أن شقيقتي لا تضيع فرصة لتكديري، لكن تحذيرها لا يبرح ذهني.

أراقب عينيّ جانا، هل نظرتها ساهمة؟ هل بؤبؤاها واسعان؟ ربما عليّ

أن أفحصها بكاملها كل مساء بحثاً عن علامات تعقّب، لكنني أخجل من هذا لأنه سيكون إذلالاً لي ولها.

- «جانا أين كنتِ طوال النهار؟».
- «في الحديقة العامة، بالطبع».
- «لماذا تذهبين هناك طوال الوقت؟».
- «لا شيء، الناس هناك منتعشين».
- «وماذا تفعلين هناك؟».
- «ماما، لا داعي للتحقيق معي طيلة الوقت. لن تفهمي أبداً على كل حال».

تتصرّف بتحد متزايد، بقناعة أن حياتها شأنها الخاص؛ ليس من شأني كيف تقضي وقتها أو ماذا ستكون أو كيف تستمتع بحياتها. كلما سألتها بصراحة هل تتعاطى الحقن تتصنع تعبير المجروحة: كيف لشيء خبيث كهذا أن يخطر لي؟

اتصل بي جان اليوم مرتين ليدعوني إلى نادٍ ما، حيث يلعبون ألعاب البطولات تلك.

لم أخبره أنني وصلت بالفعل إلى السنّ التي لا يكون لدى الناس فيها، عادةً، لا الوقت ولا الرغبة للعب دور الأبطال أو حتى الجبناء. سألته كم تستغرق تلك الألعاب فأخبرني أنها غالباً ما تستمر لعدة أسابيع.

- «بلا توقف؟».

يقول ضاحكاً: «ثمة استراحات، لكن اللعبة كثيراً ما تستمر حتى منتصف الليل على الأقل».

سأقنع ماما أن تأتي وتقضي الليلة مع جانا. حتى وقت قريب كنت أطلب منها أنا تأتي وتجلس مع جانا في مناسبات أكثر من الآن إذ صرت أحس بأنها تنزعج حين تغادر شقتها. لكنها تحب حفيدتها الوحيدة، ولدهشتي تتصرف ابنتي المراهقة على نحو أقل وقاحة في حضور جدتها.

تصل ماما بعد السابعة مساءً حين أكون قد بدأت بالفعل ارتداء ملابسي.

تسألني:

- «أذاهبة للمسرح؟».

أهز رأسي نفياً.

تكمل: «موعد؟».

- «شيء ما كهذا».

تقول ماما:

- «حان الوقت أيضاً».

لكن ماما أنا لم أقل مع مَنْ الموعد.

- «بإمكاني أن أميز أنه رجل. هل الأمر جاد؟».

- «أنا دائماً آخذ الأمور بجدية ماما».

تقول ماما متحدثة عن الرجل الذي استنتجت وجوده.

- «قولي هذا له هو، وليس لي».

ليس لديّ أدنى فكرة عن الملابس المناسبة للقاء أشخاص يلعبون ألعاب الأبطال؛ لم أفعل شيئاً كهذا من قبل. جينز ربما، لكني أبدو أفضل في التنورة. سأرتدي بلوزتي الحمراء ذات الأكمام القصيرة وتنورة قطنية طويلة - سوداء كتوقّعاتي من الحياة، تغطي نصف سمنتي وعلى الأقل تخفي حقيقة أن ساقيَّ ينحفان بالفعل. لا مجوهرات. بل سأضع سلسلة ذهبية رفيعة لئلا أدع عنقي عارياً هكذا.

أفتح الدرج الذي أضع فيه أشيائي الثمينة، يجب أن تكون السلسلة في علبة ساعة يد، لكنها ليست فيها. أفتح علب المجوهرات القليلة الأخرى لكن السلسلة ليست فيها كذلك. واكتشف أثناء البحث أن الخاتم الذهبي الذي ورثته عن جدتي ماري مفقود هو الآخر. أشعر بالحنق. أنا حريصة على أشيائي ولا أضع منديل يد أو جورب في غير مكانه، فما بالك بمجوهرات ذهبية. مع ذلك أفتح جميع الأدراج الأخرى وأبحث فيها.

- «أتبحثين عن شيء؟»، تريد ماما أن تعرف.
- «لا. ليس مهماً».

لو كان لص قد اقتحم الشقة كان بالتأكيد سيسرق أشياء أخرى وكنا قطعاً سنلاحظ دخول غريب.

أذهب لحجرة جانا وآمرها أن تطفئ الضجة وأسألها ما إذا كانت قد استعارت شيئاً من مجوهراتي.

أحس بترددها للحظة. ثم تقول محاولة تصنع نبرة مزدرية:

- «لكن ماما أنا لم أرتد أشياء كهذه من قبل أبداً».
- «وماذا عن أحد أصدقائك؟».
- «ماما، ماذا تحسبينهم؟».

لا تعرف شيئاً عن مجوهراتي. تقترح عليّ:

- «قد أقرضك شيئاً من عندي؟».

لكنني لا أريد شيئاً من سلاسلها أو أقراطها.

تفزعني بشدة فكرة أن ابنتي قد تسرقني، إلى حد أنني أرفض التفكير فيها.

أذهب لأقول لماما وداعاً. تقول لي:

- «أنتم جميعاً مجانين». ثم تتمنى لي وقتاً طيباً.

سأقضي وقتاً طيباً شريطة أن أنسى أن ثمة احتمالاً أن تكون ابنتي قد سرقتني.

ينتظرني جان خارج محطة مترو هراتشنسكاي. يقبّلني ويقول إن ملابسي تناسبني. إنه سعيد لأننا سنقضي الأمسية كلها معاً. يقودني بين الفيلل في بابينك وهو يحاول أن يشرح لي منطق لعبة الأبطال. لعبة طفولية قليلاً، لكنه يرى أن الألعاب أفضل قطعاً من التحديق ببلاهة في شاشة التليفزيون حيث العصابات المتناحرة تطلق النار. أو شاشة الحاسوب حيث يمكن خلق عصابتين متناحرتين لتطلقا النار كذلك. هنا يمكنك المشاركة في كل شيء بشخصك؛ يمكنك مواجهة الأقزام والتنانين ومصاصي الدماء والوحوش،

يمكنك السفر إلى أي مكان تتخيلينه، أو السفر إلى الماضي ومقابلة إديسون أو يوهان زيسكا أو نابليون حتى. معظم أصدقائه يفضلون لعب شخصيات خيالية كفرسان أو أميرات العصور الوسطى أو مقاتلي الوحوش.

يخبرني ونحن نصعد سلم البيت الذي وصلنا إليه أن ليس عليّ أن أنضم لهم اليوم. يمكنني أن أشاهد فقط إن أحببت وأن أوجّه أسئلة لأعرف القواعد التي ليست بالكثيرة على كل حال.

لا أفهم اللعبة، حتى بعد أن بدأت؛ ثمة تشتيت كثير جداً. الحجرة فسيحة والحوائط مغطاة بصور كبيرة تنظر لي منها، شزراً، وجوه وحوش المجلات المصورة. هدوء، صوت موسيقى تأملية من سماعات مخبأة. ينثال الضوء من مرشح أخضر فنبدو جميعاً كالغرقى. توجد غيري أنا وجان فتاتان أخريان، وشاب له كرش ضخم قدّمه لي جان باسم جيركا، الذي ربما أعرفه من صوته، لأنه يعمل في إحدى المحطات الإذاعية الإخبارية. للأسف لا أسمع سوى الإف إم الكلاسيكية. إحدى الفتاتين، لها نظرة حالمة وأسنان سنجاب وساقان طويلتان، تدعى فيرا. لم تتجاوز العشرين. لا أستطيع تذكر اسم الأخرى؛ تزداد صعوبة تذكّري لأسماء الناس مؤخراً. لكن الأسماء ليست مهمة. لا أحد هنا يظل نفسه على كل حال، بل يصبح شخصاً ما آخر، من يريد أن يكونه ربما. يجب أن تروقني هذه اللعبة: لطالما أردت حياةً مختلفة عن حياتي. كتب كارل تشابيك روايةً عن هذا. يعيش البشر حياةً واحدة فقط من الحيوات الكثيرة الممكنة، وغالباً ما تكون الأتعس من بينها. المشكلة أن الحيوات المعروضة عليّ هنا لا تجذبني.

يوجز جان الموقف الذي عليهم جميعاً قبوله، وربما أنا أيضاً، قائلاً: «إنه عام 1437، قلعة سيون تحت الحصار. ظل جيركا - جان روهاك - يقاوم قوات هاينك بتاشيك لأربعة أشهر». يقف الشاب، الذي يبدو أنه بُعِثَ مرة أخرى كقائدٍ للقوات المحاصرة، وينحني. يواصل جان شرحه: «ماستر روهاك لا يعلم أن جنود بتاشيك يحفرون نفقاً تحت الأرض لاختراق القلعة».

ثم يشير للفتاة طويلة الساقين قائلاً: «إليسكا، التي لها شقيق في القلعة، تنجح في الوصول لماستر بتاشيك وتعرف خططه. كانت مهمتها آخر مرة أن تجد طريقة لدخول القلعة عن طريق هذه المعلومات المهمة».

يقول السمين:

- «لديّ سؤال واحد. ما هو حال المياه في القلعة؟ هل بوسعي إغراق الخندق؟».

يعلن جان أن الأمر مستحيل. إذ بالكاد توجد مياه للشرب. لكنه يُطمئن رفيقَه البدين إلى أن الخندقَ عميق ومنحدر بما يكفي لتوفير الحماية اللازمة.

يبدو لي أن حبيبي هو مُخْرِجُ اللعبة أو أياً كان من يُوكَل إليه خلق المشهد للمشاركين الآخرين ووصف الفترة التي سيدخلونها. يَعرض عليهم الأدوار ويسألهم ببراعة كيف سيتصرفون في مواقف معينة، ويقرر بناءً على هذا مدى نجاحهم. لذلك على الأرجح أتى بي إلى هنا، لأرى كيف يمسك بزمام الأمور وليستعرض معرفته. لقد تأثرت. لكن اللعبة تبتعد عن الواقع ببطء شديد، وبينما تفكر ذات الساقين الطويلتين في طرق لدخول القلعة المحاصرة، يعود ذهني لشقتنا وأحاول أن أعرف هل سرقتني ابنتي أم إنها فقط تركت أحدَ أصحابها يسرقني.

يعرضون عليّ مقبلات لكنني أرفض، لا أشعر برغبةٍ في الطعام. أدَعَهم يصبّون لي بعض النبيذ مع أنه صار مؤخراً يصيبني بالاكتئاب. الحقيقةُ أنني هنا خارج السياق. كل من هنا صغار، صغار جداً. في الحقيقة أكاد لا أعي شيئاً سوى سنّي، وعدم انتمائي إلى هذا المكان، جميعهم صغار بما يكفي ليكونوا أولادي، بما في ذلك حبيبي. يستمتعون باللعب. يجدون متعةً في العيش في عالم خيالي، حتى الآن لا شيء في الحياة الحقيقية يمثل لهم أي عبء، وحتى إنَّ كان ثمة عبء ما زالت لديهم القوة الكافية للتعامل معه.

أراقب الحالمة طويلة الساقين التي عليها أن توصّل الرسالة المهمة. لست مهتمة بما ستفعله، بل ألاحظ نظرتَها المغرمة لحبيبي، بينما تنظر لي من زاوية

عينهـا. أنـا لا أروقها، أنا لا أنتمي إلى هنا؛ لا أنتمي حتى لمن جاء بي إلى هنا. هـي بالطبع من يمكن أن تنتمـي إليه أكثر مني. وفي الطريق للخارج تنجح في الوصول إليه، تلقي بنفسـها في حضنه في الممر المعتم وتنحشـر بين ذراعيه. ولماذا عليه أن لا يأخذها بين ذراعيه ويقبلها في حين أنها هي من تدعوه وهي من تطلب منه ذلك؟

إن كان ثمـة شـيء يقال، فحياتـي الآن تتجه لنهايتها في حيـن بدأت حياته لتوها تأخذُ سـرعتَها. أنا ألهث وأنا أصعد السـلم وهو يطير ببساطة في الهواء، يرفـرف بأجنحةٍ لا مرئية وهو يُحلق أعـلاي. أحياناً أخرى يقفز للأمام ويقطع في قفزة واحدة عشرة أميال.

تلـك تخيـلات لا مبرر لهـا. إنه يحبني، لـم يكن ليأتي بي إلـى هنا إن كان مهتمـاً بمسـتذئبة هزيلـة، لا هنا ولا أي مـكان آخر. إنه رغم كل شـيء محاط بفتيـات كثيـرات لا أعلم عنهن شـيئاً، مثل السـكرتيرات اللاتـي لا بد يتعامل معهنّ عن قرب. لاحظت أنه نادراً ما يذكر عمله، كأنه يريد، أو عليه، أن يخفيه عني.

يقـول لي إنني عزيزة عليه، لعلني عزيزة تحديداً لأنني لسـت فتاة صغيرة. كانت والدة يوهاناس براخ[1] أكبر من زوجها بسـبعة عشر عاماً، كذلك يفصل عدد السـنين نفسـه بين إيزادورا دانكن[2] وإسنيان. حين التقيا لأول مرة كانت في الثالثة والأربعين وكان هو في السادسة والعشرين. تزوجا بالفعل. بحسب سـيرتهما الذاتيـة هي التي طلبت يده. لكنها رغم كل شـيء كانت الأكبر سـناً والأكثـر شـهرة. تُوفيـت في عامهـا الخمسـين، في حيـن انتحر هو فـي عامه الثلاثين. قبل أن يشنق نفسه في غرفة بفندق بتروجراد ذاك، كتب هذه القصيدة

---

(1) (Johannes Brahms 1833-1897) مؤلف موسيقي وعازف بيانو ألماني.

(2) (Isadora Duncan 1877- 1927) راقصة أمريكية ولدت في كاليفورنيا وعاشت في الاتحاد السوفياتي منذ كانت في الثانية والعشرين وحتى وفاتها.

بالدم النازف من معصميه المقطوعين:

«وداعاً: لا تصافح بالأيدي لتحمّله.

لا للحزن- الجبين المتغضّن.

لم يعد هناك شيء جديد في الموت الآن

لم يعد هناك شيء جديد في العيش أيضاً».

يقولون إنه فقدَ صوابه. أم تُراه قد وصل إلى الحقيقة؟ إن لم ينتحر كان سيُقتل على يد من حَكَمَ بلاده ومن توفّي يوم وُلدت.

لكنني لست إزادورا دانكن. لست مشهورة، أنا فقط في مثل عمرها وأعرف كيف أعالج الأسنان. حبيبي ليس شاعراً وأنا واثقة أنه لن ينتحر؛ أنه يستمتع بالحياة ويستمتع باللعب. الحياة بالنسبة له لعبة قَبِلَ بي فيها كشريكٍ في اللعب إلى وقت، ويأتي يوم ويتركني لحالي مرة أخرى.

تُكئبني كل هذه الحتمية الميئوس منها ووحدتي المستقبلية. كان عليّ أن أبقى في البيت مع ابنتي الصغيرة: إنها بحاجة لي لأنها في خطر. لقد أهملتها. كان يجب أن أكون معها. في اللحظة التي أجلس فيها هنا مرتبكة بين غرباء، قد تغرق في أي لحظة، تحاول الطفو على السطح بلا جدوى، تبحث بقدميها عن قاع، تستنجدُ وتلوّح بذراعيها. لا أحد يسمعها سوى مدمن يجلس في قارب ينتشلها وفي جيبه حقنة سمّ في انتظارها.

بوسعي أن أرى ذراعها الصغيرة تلمس ثديي المتخم باللبن؛ تلمس جلدي بأصابعها التي كأصابع دمية لكنها دافئة.

أراها فجأة، تلك اليد التي امتدت إلى درج مجوهراتي لتأخذ السلسلة والخاتم لتعطيهما لمن يجلس في القارب ويتظاهر أنه ينقذها.

ماذا عَمَّ قالته شقيقتي من أنني أعيش في خوف وأرفض رؤية ما أبْصَرته هي من أول نظرة؟

لا أتحمل البقاء هنا لأكثر من هذا؛ أنهض وأخبر جان أنه عليّ أن أعود إلى البيت.

يوقف اللعبة للحظات ويصطحبني إلى قاعةِ الاستقبال قائلاً:
- «أعتقد بأنكِ وجدتِ اللعبة مملّة».
أخبره أن اللعبة لم تكن مملّة بل أنا القلقة بشأن جانا. أطلب منه أن لا يغضب مني لأني غادرت. يقول: وكأني أستطيع أن أغضب منكِ.
أنا لست غاضبة منه لأنه لم يغادر معي؛ لا يريد إفساد اللعبة على الآخرين. يصحبني للخارج إلى بسطة السلّم، يضيء النور، يميل عليّ ويهمس أنه سرعان ما سيكون معي.
ماما ما زالت مستيقظة وتسألني بصبر نافد كيف قضيت وقتي.
أخبرها أن الأمر كان مسلياً.
- «وأين كنتِ بالتحديد؟».
ترغب في الثرثرة. لذا أذهب لأجلب زجاجة فرانكوفكا وأصب كأسين لكلتانا قبل أن أحاول أن أصف لها ما خبرته لتوي، رغم علمي أن الأمر لا يهم. أخبرها عن مَنْ كنت معه هناك. وأنه يحبني ربما. أخبرها أيضاً كم هو أصغر مني وأنه شاب نموذجي: لا يشرب ولا يدخن، ما خلا رشفة أو رشفتين من كأس نبيذ مشاركة لي فقط، ولا يحلف، ويجلب لي زهوراً. لا أخبرها أنه يحقق في الجرائم التي ارتكبها من قضى أبي حياته في خدمتهم.
تتصرف أمي كأنها لم تنتبه لمعلومة سنّه، تريد أن تعرف ما إذا كنت أحبه.
أشعر بسخف أن أقول نعم مثل فتاة صغيرة، لكنني لا أستطيع إنكار حبيبي فأجيبها:
- «لكنني تجاوزت الخامسة والأربعين ماما».
تعلن:
- «وأنا أيضاً، ومنذ وقت طويل».
- «لكنكِ كان معك بابا».
أحاول تذكر الأوقات حين كانت في الخامسة والأربعين. كنت أنا في الثالثة والعشرين. كان لديّ أخوان، أحدهما لم نكن نعلم عنه شيئاً: ماما وأنا

وشقيقتي. كنت في الجامعة، أتسكّع في البارات، أثمل بين الحين والآخر ولا أهتم بالبيت قط. لا أستطيع تذكر شكل ماما وقتها. ليس بوسعي تخيّل وقوعها في غرام أحدهم، حتى وإن لم يكن أبي موجوداً. كنت وقتها أظن أن الخامسة والأربعين هي السن التي تستيقظ فيها في الصباح فتحسب أنك تسمع بالفعل قرع ناقوس الموت آتٍ من بعيد.

أسألها لتغيير الموضوع:

- «كيف حال جانا؟».

تجيب متقبلة الموضوع الجديد:

- «إنها نائمة، لكنها تبدو غريبة، أهي مريضة؟».

- «هل اشتكت من شيء؟».

- «لا. إطلاقاً».

- «لماذا إذاً تظنينها مريضة؟»

- «أخبرتني أنها تشعر ببرد، ارتدت سترة وكانت ترتعش كأنها محمومة. هذا ليس طبيعياً في هذا الجو الحار أليس كذلك؟»

- «هل سألتِها لماذا تشعر ببرد؟»

- «لقد قالت إنها فقط تشعر بالبرد وجلست على المقعد ذي الذراعين وحدّقت أمامها، كأنها ترى شخصاً ما غير موجود. حتى إنها غمغمت بشيء ما لنفسها. ربما تكون مرهقة».

- «مرهقة! ممَّ بحق السماء؟».

- «إنهم يحمّلونهم فروضاً كثيرة جداً هذه الأيام في المدارس. سمعت هذا في الإذاعة».

- «قد يكون الأمر كذلك لكنها لا تهتم على الإطلاق».

تجيبني عازفة على النغمة نفسها:

- «إن الإجازات قريبة وستنال بعض الراحة. أنتما الاثنتان بحاجة لبعض الراحة».

نعم الإجازات قريبة. لقد ادّخرت لها بعض المال. سنذهب إلى الشاطئ. لقد حجزت بالفعل لإجازة في كرواتيا. سآخذ فتاتي الصغيرة بعيداً جداً عن هنا. سأعبرُ بها البحر إلى جزيرة صحراوية حيث لا يستطيع تاجر مخدرات أن يجدها، وإن وجدنا أحدهم سأخنقه وألقي بجثته في البحر، وليحكموا عليّ بالإعدام.

3

بحثت في الشقة كلها لكنني لم أجد مجوهراتي في أي مكان. لأسبوع الآن ظللت أتحقق من حقيبتي صباحاً ومساءً. اكتشفت هذا الصباح اختفاء ثلاثمائة كرونة منها. بين ليلة وضحاها.

تعود جانا للبيت متأخرة قليلاً. تلقي حقيبتها أسفل مشبك تعليق المعاطف وتتجه صوب غرفتها لتشغّل ضجّتها المعتادة.

- «جانا!».

نبرة صوتي توقظ حَذَرَها.

- «نعم ماما؟».

- «أريد أن أتحدث معكِ بجدية».

- «لكنكِ دائماً تتحدثين معي بجدية».

- «كفّي عن تمثيل دور البلهاء. أنتِ تهربين من المدرسة...».

- «لكننا تحدثنا في هذا منذ فترة طويلة. لقد توقفت عن الهروب منها الآن».

- «وتسرقين».

تمر لحظة ذعر ثم تقول:

- «هذا غير حقيقي».

- «هذا حقيقي وأنتِ تعرفين».

- «لم أسرق منكِ شيئاً قط».

- «لا أعرف هل سرقتِ من أحد غيري أم لا، لكنك سرقت مني. إنك تظنين أن ما لي لك».

- «أنا لا أفكر هكذا».

- «وماذا عن مجوهراتي؟»

- «أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين. أظن أنك وضعتها في مكان ما».

- «جانا أنت تعرفين تمام المعرفة ماذا حدث لها».

تصيح قائلة:

- «ليس لي شأن بمجوهراتك ولا بأي مجوهرات لعينة أخرى». تمثل دور المجروحة بشدة فتجعلني أرتبك تقريباً.

- «الليلة الماضية اختفت من حقيبتي ثلاثمائة كرونة».

- «لم آخذها».

- «أتعرفين من أخذها إذاً؟».

- «أنتِ فقدتها في مكان ما، ليس لي شأن بنقودك».

- «لم تقولي نقودك اللعينة. ليس لكِ شأن بها، لقد أخذتِها فقط».

- «هذا ليس حقيقي».

- «وتكذبين لتخفي الصفقة».

- «هذا ليس حقيقياً!».

- «يبدو لي واضحاً لماذا تحتاجين إلى النقود».

- «لم آخذ نقوداً».

- «سآخذك إذاً إلى عيادة التحاليل ليجرون لكِ فحص دم ونجد حلاً لما يجب أن نفعله معك».

- «لن أذهب لأي عيادة».

- «ستأتين معي لحيث آمرك».

- «لن أذهب».

- «جانـا، أنـت لا تدركين ماذا تفعلين. ما إن تتورطـي في هذا لن يمكنك التخلص منه وستدمّرين حياتك. من أجل مصلحتك ستذهبين».

- «لم أتورَّط في أي شيء».

- «فيمَ احتجت النقود إذاً؟».

- «لم آخذ لا النقود ولا أي شيء آخر».

- «أنـا متأكـدة أنـك سـرقتِ مني. سـيكون عليّ أن أكتشـف بنفسـي بقية التفاصيل».

- «لن أذهب لأي مكان».

- «أوتظنين حقاً أنني سأجلس هنا مسترخية وأنا أشاهدك تدمّرين نفسك؟»

- «أنت أيضاً تدمّرين نفسك».

- «جانا، أنا لن أتحمل هذه الوقاحة».

- «كان بابا يقول دائماً».

- «لا أريد سماع كلمة واحدة عن أبيك».

- «لن أذهب معك إلى أي مكان».

- «سأجعلهم يأخذونك إذاً».

- «سأهرب قبل هذا».

ثم فجأة أخذت تصرخ بهستيريا:

- «أنتِ كريهة. أنتِ تلعبين معي دور الشـرطي. تتصلين بالمدرسة اللعينة لتعرفي إن كنت هربت أم لا. وتتهمينني الآن بسرقة نقودك، وتملين عليّ دائماً ما يجب أن أكونه وماذا سـيحدث إن لم أكن كذلك. إنها حياتي أنا، وليسـت حياتك. لقد خرّبتِ حياتك على كل حال، فما شأن حياتي بحياتك؟».

تسـري في جسـدي قشـعريرة وأهاجمها مع أنهـا أكبر وأقـوى مني، لكن فـي نفس اللحظة تضعف ركبتـاي وتأخذ يدي- التي تبقـى بحزمها حتى وأنا أصارع جذراً معقوفاً أثناء خلع الضرس - في الارتعاش كورقة شجر.

تسـتغل ابنتـي لحظة.ضعفـي وتنزلق من أمامـي وبعد ذلك بلحظة أسـمع ضربة عنيفة لباب الشقة.

استدير وأركض في عقبها، ألمحها قبل أن تختفي عند ناصية الشارع. أعرف أنني لن ألحقها، لكنني أواصل الجري. تدمع عيناي وأنا أركض في الشارع والسيارات تمر بي مسرعة، أمر ببشر لا أعرفهم ولا يعرفونني ولا تعنيهم أزمتي، ولا وجودي.

لكنني موجودة حقاً. وحدي تماماً. ليس لديّ من أتوجه إليه للنصح أو العون. إن هُرعت لذلك الشاب الذي يخبرني أنه يحبني مراراً وتكراراً ويلعب دور حراسة قلعة سيون من الدمار، فقد يجزع لأنني أحاول الإثقال عليه بما ليس من شأنه. إنه ليس والدها، ووالدها آخر من يمكنه مساعدتي.

قد أتصل بلوسي صديقتي؛ في الغالب ستحاول التسرية عني بطريقة ما. لكنني لست بحاجة للتسرية، أنا بحاجة لأخذ إجراء.

غداً صباحاً سألغي العيادة وسآخذ جانا للمركز الطبي. هذا إن عادت إلى البيت هذا المساء وإن استطعت جرّها إلى هناك.

4

عادت ابنتي العزيزة للبيت بعد نشرة الأخبار في التلفزيون. قبل أن تتسنى لي الفرصة لأقول أي شيء كانت قد دخلت غرفتها وأوصدت بابها. ظهرت في الصباح التالي وأعلنت باقتضاب أنها ذاهبة للمدرسة. قد أصارعها لكنني في الغالب سأخسر. على كل حال لم أستطع أن أقرّ عزمي على جرّها لمركز استشارات مدمني المخدرات. لا جدوى من مقابلتها لمدمني المخدرات الحقيقيين فتستنتج من ذلك أنها نقية كندفة ثلج. عليّ أن أستشير أحدهم أولاً.

ثمة واحد فقط أعرفه يمكنني أن أسأله المشورة. لم أتحدث معه لعشرين سنة وحين التقينا مصادفة في ذلك البار ذاك اليوم لم أكن لطيفة معه.

لا تسعدني فكرة التحدث معه، لكنني مع ذلك أتصل به من العيادة.

لدهشتي أصل له مباشرة ويبدو مسروراً للقائي، سيقابلني على الفور في مكتبه بوزارة الصحة إن شئت.

المسافة من البيت للوزارة قصيرة، لكنني مثل معظم زملائي أحتقر تلك المؤسسة تحديداً وليس لديّ أدنى رغبة في دخولها، فأوافق على مقابلته في بار.

نلتقي في المساء مبكراً. لا بد أنه يظنني افتقدته منذ أن قابلته مجدداً ذاك المساء. ربما سمع عن كيف سارت أحوالي، يعرف أنني وحدي، يرى طريقاً ليتسلل إليّ كدودة لفترة من دون أن يلزم نفسه. يخبرني مرة أخرى أنني أجمل مما كنت منذ تلكم السنوات، ويطمئنني أنني الأجمل من بين كل البنات اللائي عرفهن- بالطريقة نفسها التي يطمئن بها كل الأخريات. لكنني لم آتي للغزل، هذا شيء لا أفتقده؛ أنا هنا لاستشارته حول ما يجب أن أفعله مع ابنتي.

يستمع لي باهتمام زائف، كل ما أخبره به بالنسبة له عادي جداً كما أكون أنا حين يخبرني أحدهم عن وجع ضرسه.

يشعر بأنني بحاجة للاطمئنان. يتذكّر أيام شبابنا: هل كنا أحسن في شيء؟ ألم نكن ثائرين على آبائنا أيضاً؟ يخبرني أن الأمر يحتاج إلى هدوء وصبر مستخدماً وصفة التهدئة التي يستخدمها لتسكين مخاوف وهلع الآباء.

ثم ينصحني أن أكتشف ماذا تتعاطى ابنتي. إن كان شيئاً صعباً حقاً سيكون علينا التحرك فوراً. مع ذلك، إن كانت تدخن الحشيش فقط في مناسبات عرضية، ينصحني أن آخذ الأمور ببساطة. الشيء الأساسي بالنسبة لي أن أعرف أصحابها. إن كانوا أصحاب سوء عليّ أن أحاول أن أبعدها عنهم، مع أن ذلك أصعب شيء في الغالب. من حسن الحظ أن الدراسة ستنتهي خلال أسبوع وينصحني أن آخذ جانا إلى مكان بعيد جداً حيث يمكنني ملاحظتها طوال الوقت.

يسأل أيضاً عن شعور جانا وهي في البيت. لأن الأهل عادة ما يقومون بما يدفع بأطفالهم في الاتجاه غير المرغوب فيه، من دون أن يدركوا. أحياناً يكون ذلك بالصرامة المفرطة، وأحياناً بالتدليل المفرط. يسرد بسرعة قائمة

بتوصيات أَعدّها لهذه المناسبة: يجب أن أحاول أن لا ألعب دور ناظرة المدرسة مع ابنتي وأن لا أعظها؛ أن أحرص أن لا تبيت خارج البيت من دون أن أشعرها بأنها سجينة، بل أشعرها بأنها محبوبة.

تغزو عيناه جسدي وهو يتحدث، كما كان يفعل منذ سنوات؛ ربما هذا هو كل ما يهمه. لم يكن ليهتم بابنتي على أية حال، بالطبع. ولماذا يهتم وقد رفض الطفل الذي حملته منه في الماضي.

ربما بوده أن يسمع أنني حزينة، متروكة ووحيدة. وأنني عاجزة عن التعامل وحدي مع ما تخبئه لي الحياة، ونتيجة لذلك تعاني ابنتي. حينها سيمد لي يد العون، ويضيف همومه لهمومي.

يستمر في سرد توصياته المعلّبة لوقت أطول قليلاً. وتوصيات ربما كان بإمكاني التوصل لها بنفسي، مع ذلك يريحني قليلاً أن أعرف أن حالة جانا ليست خارج نطاق العادي.

أشكره. يطلب مني أن أتصل به في ما بعد لأخبره بما جَدّ وفي أي وقت آخر قد أحتاج فيه لمشورته. يقول ونحن نقترب من الباب:

- «سأسافر إلى لندن الأسبوع المقبل، أتفكرين في المجيء معي؟ سأهتم بشأن تذكرتك».

لا أقول له: «لن أذهب معك حتى ولو دفعوا لي». بل أقول

- «لكن لديّ ابنتي هنا».

- «وماذا عن هذا المساء؟».

- «لديّ ابنتي هذا المساء أيضاً».

أسير إلى البيت وكلما اقتربت من بنايتنا يتنامى قلقي. لكن ابنتي في البيت تجلس على المقعد ذي الذراعين بقطعة قماش مبللة على رأسها.

- «صداع؟».

- «قليلاً، لكنني سأكون بخير».

تبدو شاحبة.

- «هل تناولت عشاء؟».
- «لم أكن جائعة. بسبب دماغي».
- «ماذا عن المدرسة؟»
- «لقد حزم المدرِّسون أمتعتهم، نحن نتجول هنا وهناك فقط الآن».
صمت. عليّ أن لا أشعرها بأنها سجينة. أشعرها بأنها ملكة.
- «ستبدأ إجازتك الأسبوع المقبل».
- «أعرف».
- «سآخذ إجازة الصيف في تموز. لقد حجزت لنا شاليه في هافار للأسبوعين الأخيرين من الشهر».
صمت. ثم تعلن في النهاية:
- «لا أريد الذهاب لأي مكان».
- «لا تريدين الذهاب لأي مكان أم لا تريدين الذهاب معي؟».
تتردد لحظة قبل أن تجيب:
- «أفضّل البقاء في البيت».
- «أتحبين أن تبقي حبيسة البيت طوال الصيف؟».
- «إما هنا، أو قريباً من هنا».
- «لكن أنا لا أفضّل هذا. أنا أقضي العام كله في انتظار بعض الراحة».
- «لا شيء يمنعك من الذهاب إلى الشاطئ».
ردودها المتغطرسة تثيرني لكنني أحاول الحفاظ على برودي.
- «وأتركك في البيت؟».
- «ولم لا؟».
- «لأنني لا أنوي أن أتركك وحدك هنا».
- «ماما يجب أن تدركي أنني لم أعد فتاة صغيرة».
- «أنا يجب أن لا أفعل شيئاً. وأنتِ فقط من يجب أن تضعي في اعتبارك أنك لست بالغة تماماً بعد».

- «أنا أكره التسكع على الشاطئ، إنه إهدار للمال».

- «ليس لك شأن بالمال. ماذا تريدين أن تفعلي؟».

- «أن أبقى هنا».

- «وتعودين للبيت عند منتصف الليل كل ليلة؟».

- «نعم».

- «مُغيبة عن وعيك؟».

- «أريد أن أقضي أجازتي مع أناس أحبهم».

- «أشكرك على هذا».

تنظر لي بدهشة فأقول لها:

- «كل الناس يفضلون أن يكونوا مع أناس يحبونهم. ألا تظنين أنني كذلك؟»

- «ها أنتِ تتفهمين».

- «الكنك ستأتين معي لأنني لن أتركك هنا تتجولين ليلاً مع عصبة من البونكس تعتقدين أنك تحبينهم فقط لأنهم يتركونك تفعلين ما تشائين، ولإنهم يقضون وقتهم في التسكّع هنا وهناك مثلك».

- «ماما، هذا لا داعي له. لن أذهب معك للمصيف على أية حال».

- «وهو كذلك، لن نذهب للمصيف إذاً».

- «لكنني لا أريد الذهاب لأي مكان».

أسلوبها متحدٍ. لم تعد البنت الصغيرة التي كانت تأتي لفراشي صباح يوم الأحد وتنكمش في حضني. أعرف أني ملومة جزئياً. لقد تجاهلت سير أمورها على نحو خاطئ لوقت طويل. أردت لها طفولة مختلفة عن طفولتي؛ أردت لها أن تحظى بمزيد من الحرية.

لكن ما هي الحرية؟ إنها بوابة لفضاء غير معروف يُضِلّ فيه كل من يدخله حتى الكبار أنفسهم. وابنتي الصغيرة لم تتم السادسة عشرة بعد. تائهة

في مشـهد يُغريها، لكنه في الحقيقة مستنقع سـتظل غارقة فيـه حتى يأتي يوم وتختفي تماماً.

أشعر بالدموع تنزلق من عينيّ. أمسح وجهي بسرعة، لكن ليس بمقدوري التوقف عن البكاء.

تنظـر لي تلـك المخلوقة للحظة ثم تدفع برأسـها المتألم فجأة في حضني وتقول:

- «لا تبكي مامي، لم يكن قصدي. سنذهب معاً إن شئتِ».

5

دعوت كريسـتيانا للعبة كنت مخرجها. لم تكـن لعبة مجنونة، ولا طفولية حتـى. لم يكن فيها وحـوش. دعوتها لأننـي أردت أن أعرِّفها على أصدقائي. لا بـل أردت أن أثبـت لنفسـي أنهـا ملكي أمام النـاس أيضاً وليـس على نحو شخصي. أردت أن تراها فيرا معي.

لكن لم يكن ذلك تصرّفاً صائباً مني. كانت مضطربة طوال اللعبة، أو ربما لم ترقها اللعبة. كان عليّ أن أدرك أنها واقعية وليست ممن يحبون اللعب. لقد بذلـت جهداً لإرضائي، لكن قلقها لم يخف عليّ. لم أحاول اسـتبقاءها حين قررت أن تنصرف بعد ساعتين.

واصلنـا اللعـب حتـى منتصـف الليـل، تصرفـت فيـرا بكبريـاء بقـدر مـا استطاعت. حين كنا على وشك الانصراف لم تستطع كبح نفسها وسألت:

- «أين وقعت على تلك التحفة القديمة؟».

أجبتها بسرعة بديهة:

- «لم أقع عليها، بل عرفت عنها من السجلات، لها أصول مَلكية».

- «لا أعرف شيئاً عن الأصول لكنها بالتأكيد لها ظَهر ضخم».

قلت لها إنها مثيرة للشفقة وإنني أتعاطف معها. أجابت أنها لا تعرف من منا المثير للشفقة أكثر من الآخر لكنني بالتأكيد المغفّل الأكبر.

عدت إلى البيت وقت طلوع الفجر. كان ينتابني شعور بأن شيئاً ما مصيرياً في حياتي قد حدث.

حين انصرفت كريستيانا هذه الليلة وواصلنا اللعبة أدركت فجأة أنني لم أعد استمتع باللعب وأنني فقط أضيّع وقتي. كأنني أرى نفسي في عينيها: فتى صغيراً ما زلت ألعب بدلاً من استكمال دراستي مثلاً.

قد يكون لدى البعض شغف بالقمار، لكن حالتي مختلفة. في ألعاب الأبطال لا تأمّل في عائد مالي قد يغير حياتك. يتطلب التظاهر بأنك وسط مخلوقات من الحكايات. قدر من الخيال بطبيعة الحال، لكنه يتطلب أيضاً طفولة لا تناسب سني هذه ولا مساري الوظيفي.

يلعب الناس هرباً من رتابة عملهم. أنا لا شيء رتيباً في عملي. لا شيء مضجراً في التحقيق في ملف بعد الآخر يُبيّن نبل الروح وخستها وخبثها بنسب متفاوتة. أحياناً أشعر بأنني متلصص. كنسر يطير في حلقات أعلى الصحراء بحثاً عن جيفة أخرى. أحياناً أحلم في نومي بأشخاص لم يسبق لي رؤيتهم قط، مع أن حياتهم الخاصة قد وقعت على كاهلي، وعلى نحو منحرف أيضاً. بالمقارنة بهذا يصير التحرك في عالم خيالي زاخر بالأرواح أو السحَرَة أو حتى مصاصي الدماء والتنانين ذات الرؤوس المتعددة، باعثاً على الراحة. كان ثمة شيء ما فاتن في دخول عالم متخيل حيث يمكنك وضع القواعد بنفسك والتأثير على مسار الأحداث. قام بعض المخبرين ممن قرأت ملفاتهم بتنفيذ ما أُمروا به للسبب نفسه بلا لف ولا دوران: مجرد الرغبة في التأثير على مسار الأحداث التي لا يعلم الآخرون شيئاً عنها. اعتقدوا بأنهم يمتلكون قوى سحرية تمكّنهم من السيطرة على مصائر البشر، في حين لم يكن معظمهم سوى أدوات، مجرّد دُمى في أيدي آخرين لديهم أيضاً الاعتقاد نفسه. وهكذا دواليك، إلى ما لا نهاية.

كان المهم عندي أن أستطيع الوصول باللعبة إلى خاتمةٍ ميمونة أو على الأقل مقبولة، شيء لم أنجح قط في تحقيقه في حياتي الخاصة أو في عملي. بيد أنني كنت بالكاد قد بدأت مؤخراً في الوصول بمسائلي الشخصية لنهاية مقبولة أيضاً، لكن يبدو أن هذا ليس مقدراً لي.

بطبيعة الحال لم يحضر السيد روكافيشكا هادك الذي كان مسئولا عن قمع مناصري الكشافة للتحقيق معه. أرسل اعتذاراً مرفقاً بشهادة طبية تفيد بأن حالته الصحية لا تسمح له بالسفر. لم تكن تلك الشهادة لتجدِ بشيء حين كان هو المحقق. إذ كان إذا أراد التحقيق مع أحد يُرسل تابعيه المخلصين ليسحبوه ولو من على فراش بالمستشفى إن اقتضى الأمر.

لذلك ذهبنا نحن لنعثر عليه بأنفسنا.

كانت دار المسنين التي يقيم فيها في ميستك عبارة عن قصر قوطي حديث محاط بمتنزه إنجليزي. رعاية مجانية ومكان مريح ليقضي فيه شخص سلب الناس حرياتهم أيامه الأخيرة.

أخبرتنا مشرفة الدار أنه يسعدها أن تترك لنا مكتبها لنستخدمه في القيام بمهمتنا. حتى إنها أتاحت لنا استخدام آلتها الكاتبة التي أصابتها الشيخوخة. سألها مديري ما إذا كانوا في الدار راضين عن سلوك السيد روكافيشكا، فأجابت بترحاب أيضاً أنه عجوز هادئ، حسن المعشر، وأنه أحضر معه عصفوره الكناري حين جاء إلى هنا. بدا واضحاً أن الطائر هو مصدر سعادته الوحيد. كانت زوجته متوفية وأبناؤه لا يزورونه. ليس له أصدقاء كثر هنا، لكنه يتصرف بود مع الجميع والممرضات يتحدّثن عنه بشكل جيد.

ثم جاءت إحدى الممرضات بالرجل الذي كان يحمل في ما مضى اسمين اثنين على الأقل. وقف أمامنا متكئاً على عكازين: عجوز عادي مكتنز البنية بوجه متغضّن وجمجمة مصفرّة تبزغ منها شعراته الرمادية المتبقية. أسند عكازيه على الحائط، جلس في مقعد بذراعين وسألنا كيف يمكنه مساعدتنا.

عرّفه أوندريج بشخصينا وأضاف أننا ليس في نيتنا أن نستجوبه لوقت طويل. أخبره أوندريج أن بوده أن يطرح عليه عدداً من الأسئلة بصفته شاهداً؛ وأنه بلا شك يعرف موضوع الاستجواب.

لم يكن لدى العجوز أدنى فكرة، أو على الأقل أصر على أنه لا يعرف شيئاً. مع ذلك ناولني بطاقته الشخصية لأدوّن البيانات اللازمة في المحضر.

فتح مديري التحقيق قائلاً:

- «سيد روكافيشكا، لقد عملت منذ العام 1949 باسم هادِك كمحقق في أمن الدولة».

تصنع العجوز تعبير المُهان. لا بد أن ثمة خطأ سخيفاً.

- «لكننا لدينا ما يثبت هذا»، قال أوندريج وهو يخرج مجلداً من حقيبة أوراقه. «لقد أتينا بها معنا. أتود النظر فيها؟».

يُخرج السيد روكافيشكا هادِك نظارتيه من جيبه لكنه بعدها يهز رأسه نفياً. إن القراءة ترهقه وليس لديه اهتمام بوثائقنا.

- «لا أحسب أنك تريدني أن أُعلمك بحقوقك؟».

أجاب العجوز ضاحكاً:

- «يسعدني دائماً أن ازداد علماً، وخاصة من شابين لطيفين مثلكما».

يقرأ مديري بصوت عال الفقرات القانونية الخاصة بحقوق الشهود ويسأله:

- «لكنك لا تنكر عملك في جهاز أمن الدولة».

- «خدمت فيه لفترة»، يقر العجوز، «منذ خمسين عاماً، كنت صانع خزائن، لكنهم أعلنوا عن حملة تعيينات، وفكرت أن العمل سيكون أكثر متعة».

- «وهكذا عملت كمحقق في أمن الدولة تحت اسم هادِك؟».

يوضح أنه كان يُطلب منه أحياناً استخدام اسم معين وأنه لا يستطيع تذكره بعد مضيّ خمسين عاماً.

يسأله أوندريج:

- «وماذا عن أسماء مَنْ حقّقت معهم؟».

- «لم أحقق مع أحد».

- «هل تريد إلقاء نظرة على أقوال من حققت معهم؟».

- «الناس يثرثرون بكل شيء، ولتوي أخبرتك، وليس لدي اهتمام بوثائقكما. إنها لا تعنيني في شيء». بدا العجوز منزعجاً ومد يده إلى أحد عكازيه. ربما أراد أن يخيفنا، أو أن يلفت نظرنا إلى أن بإمكانه الانصراف وقتما يشاء. «أنا من أعرف ماذا فعلت وماذا لم أفعل».

- «ماذا فعلت إذاً؟».

- «جلست في مكتب. ماذا في هذا؟».

- «حسناً، ماذا كنت تفعل في ذلك المكتب؟».

- «أيها الملازم.. أتظن أنك بعد مرور خمسين عاماً من الآن ستتذكر اليوم ما فعلته حينها؟ أنك مثلاً جئت لترى رجلاً عجوزاً في دار قديمة للمسنين واتهمته باتهامات سخيفة؟»

- «نحن حتى الآن لم نصدر ضدك اتهاماً واحداً. نحن نتحدث ببساطة عن عملك والاسم الذي كنت تستخدمه فيه. أتجد هذا اتهاماً؟

- «المرء لا يعرف أبداً هذه الأيام».

يقول مديري متجاهلاً قدح العجوز:

- «سأتلو عليك عدداً من الأسماء أريدك أن تخبرني بشيء ما عنها».

أخذ يتلو أسماء مسؤولي الكشافة الذين أدينوا، ومن بينهم أبي.

هز العجوز رأسه منكِراً. لا. لا يمكنه تذكر ولا حتى اسماً واحداً من هذه الأسماء، وسأل:

- «من هؤلاء؟».

أجابه أوندريج إنهم جميعاً أُدينوا بتهم ملفَّقة، وأن من قدم الأدلة المزيفة ضدهم شخص يدعى النقيب هادِك.

- «ليس لدي فكرة، ربما كانوا قد فعلوا شيئاً ما إن كانوا قد أُدينوا، لكنني ليس لي شأن بهذا. لا اسم من هذه الأسماء يعني لي أي شيء».

تدخلت أسأله:

- «وماذا يعني لك اسم روباس؟»

نظر إلي كأنه يقول: وما دخلك أنت بهذا، إن عملك أن تكتب أنني لا أتذكر أي شيء. ثم بدا فجأة، لدهشتي، أنه تذكّر.

- «أظن أن شخصاً ما بهذا الاسم كان مدرِّبا في البوهيميانز».

- «من المثير للدهشة أن تتذكر اسم مدرب كرة قدم في حين لا تستطيع تذكر اسماء من حققت معهم.

- «قلت لك من قبل إنني لم أحقق مع أحد». ثم أردف: «من المؤسف أنني لن أكون هنا بعد مرور خمسين عاماً لأرى إن كنت ستتذكر اسمي بعد كل هذا الوقت».

- «سيكون الأمر أصعب علينا لأن لك أسماءً كثيرة فعلاً على رجل واحد. سيد روباس».

ابتسم كأن تعليقي أسعده. ثم قال:

«ما زلت صغيراً، ليس لديك فكرة عَمَّ تعنيه خمسين عاماً. فما بالك بثمانين. حينها لن تعي ما حدث، ولا ماذا كان الأمر حقاً. لقد أردنا أن نبني شيئاً، ليس كهذه الأيام، حيث لا يعنى أحد بشيء غير المال».

حاول أوندريج أن يطرح عليه أسئلة أخرى، لكننا أدركنا أن لا جدوى من ذلك. اختبأ العجوز منا خلف أعوامه الثمانين، وخلف القرن الذي يفصلنا عن الفترة التي تعنينا؛ تظاهر بأنه لا يتذكّر شيئاً، ولا حدثاً، ولا اسماً واحداً من أسماء من سبق وحقق معهم، ولا اسم واحد من أسماء معاونيه. لم يتذكّر سوى اسم مدرب كرة قدم. كان جميع من يمكنهم الشهادة ضده قد ماتوا أيضاً وما لدينا ضده حقاً قد سقط بالتقادم.

لم يكن من داعٍ لهدر المزيد من الوقت مع الرجل وإعطائه الفرصة للفرح

بانتصار آخر على أعداء الشعب وهو في عامه الثمانين. لم يكن بأقواله التي دوّنتها حقيقة واحدة تقود لأي شيء.

قلت ونحن في طريق عودتنا لبراغ:

- «عجوز لطيف حقاً، من المؤسف أنه لم يرينا ببغاءه».

يصحح لي آندريه:

- «كناري.. ربما يكون مغرماً به حقاً. تحت حكم نظام عادي لم يكن ليحقق مع أحد ولا ليعذّب أحداً. بل كان سيقضي حياته في صناعة طاولات أو توابيت. حقيقة أنه بلا ضمير لا تعني أحداً، لا أحد يلحظها حتى. ماذا سنفعل بشأنه الآن؟ لقد وصلت رسالة من الوزارة مؤخراً تفيد بأننا نهدر المال. بدأت أظن بأنهم على حق. نحن نُبذّر المال ونضيّع الوقود هباءً. وفي المناسبات القليلة التي نُحكِم فيها قضية ما، لا تصل بنا لشيء البتة. يعيد لنا مكتب النائب العام كل شيء، معلنين بسرور أن هذا لا يكفي لاتخاذ إجراءات. يظنون أن بإمكاننا بعد مرور خمسين عاماً أن نجد النوع نفسه من الشهود والأدلة كأنها قضية حدثت منذ شهر».

أعارضه قائلاً:

- «إنهم فقط يستخدمون هذا كذريعة».

ثم سقط كلانا في الصمت. تسلطت عليّ الكآبة. فكرت أن هذا الرجل تحكّم بسلطته في أبي ذات مرة. لقد ضربه بالفعل، وعذّبه لأسابيعٍ، أبي وكُثُر غيره لن نعرف عنهم شيئاً ولن نحصّيهم عدداً أبداً. ونحن لا حولَ لنا ولا قوة معه لأننا، على النقيض منه، نعرف التسليم بالبراءة. لأننا، على النقيض منه، محترمون.

ربما كنت شخصاً محترماً، لكن هذا، في تلك اللحظة، كان عائقاً. شعرت بأنني فشلت مرة أخرى؛ شيء ما آخر لم استطع الوصول به لخاتمة؛ بسبب قانون أعلى كنت أحترمه بينما يُحقِّر هذا الوحش من شأن ضحاياه. لو كنت فقط أخبرته برأيي فيه!

يبدو أن أبي لن يحظى بإنصاف في جميع الأحوال. وماذا عني أنا؟

شعرت بهذا الخواء في مواجهتي إلى حد أني أحسست فجأة بعدم الرغبة في الحياة.

ماذا سأحقق؟ علام سأعلق آمالي؟

في طريق عودتنا فكرت بقلق أيضاً في كريستيانا. سأخسرها هي الأخرى يوماً ما. الحب مادة أخرى في حياتي لم أحقق فيها النجاح.

حين قابلتها في اليوم التالي، سألتها إن كانت تعرف في أي ساعة ولدت بالتحديد؟ فقالت بدهشة:

- «أتريد أن ترسم خارطة برجي؟ الأفضل لك أن تترك هذا الأمر فقد تكتشف عني شيئاً مريعاً».

- «أردت فقط أن أعرف إن كان لديّ فرصة».

أخبرتني بساعة ولادتها، لكنها كمعظم الناس، لم تكن تعرف في أي دقيقة بالتحديد، ومع ذلك فقد يتسبب فارق أربع دقائق في خطأ. لكنني حسبت برجها بجدية ما أمكنني، ونظرت جيداً في إمكانية نجاح علاقتنا. بالرغم من تضارب عنصرينا، نار وماء، إلا أنه ما زال أمامنا أمل في تأسيس بيتٍ معاً. وفقاً لعلم الفلك القديم نحن الاثنان نخضع لسيطرة المشتري الذي يحكم الحياة المنزلية.

كريستيانا أصيلة بلا شك تقريباً. إنها مثل بحيرة تحت أرضية. ثمة شغف خفي بداخلها لو اندلع قد يمنح الحياة، لكنه قد يدمِّر أيضاً، ليس مَنْ حولها، بل يدمِّرَها هي.

إنها حنونة ومراعية للآخرين، وتتمنى أن تريح البشر من آلامهم، ولهذا تقوم بما تقوم به، مع أن الحياة حملت لها إمكانات أخرى كثيرة. إنها سَمِحة لكنها أيضاً عُرضة للقلق. تتوق للزواج لكنها تخشى الخيانة. ما فرصي معها إذاً؟ لا أعرف.

نتفق معاً جيداً. لم ينتابني معها أبداً هذا الإحساس بالفراغ الذي كنت

أحسه مع الأخريات. يدهشني أنها تشعر بكل شيء لأقصى مدى، بما في ذلك كل حواراتنا، بطريقة لم يسبق لي رؤيتها من قبل. بالنسبة لها، كل شيء يقع على الحد الفاصل بين المرح والأسى، اللذة والمعاناة. إنها تتجنّب اللغو العقيم الذي تستمتع به غالب النساء اللواتي عرفتهن.

أحيانا تحدثني عن مرضاها وعن المراوغات القدرية والانقلابات المصيرية التي خبروها في حياتهم، لكننا نتحدث أكثر، بل في غالب الأحيان، عن المراوغات القدرية والانقلابات المصيرية في حياة هؤلاء الذين أقابلهم أنا في الملفات.

كنت أكثر تصنيفاً منها في أحكامي. أخبرتها عن أبي. حكيت لها أيضاً عن لقائنا بالزميل إياه في دار المسنّين القديمة، الذي أثق أنه هو من حقق مع أبي. أخبرتها عن قلة حيلتنا أمام المجرمين الذين يتظاهرون بفقدان الذاكرة. أكدت أن لا شيء تم فعله حقاً لمعاقبة هؤلاء الذين ساهموا في سلب الآخرين حرياتهم، وقلت لها إنني سأبذل قصارى جهدي لضمان إثبات جرائمهم بأثر رجعي ومعاقبتهم إن أمكن.

ترى كريستيانا أن ذلك لن يفيد أحداً. فعلى من سيصدر الحكم إن كان الجميع متورطين سواء طوعاً أو كرهاً. والحقيقة أننا نستمر في التورّط «مثلما قد تعتبر نفسك متورطاً معي».

لم أفهم قصدها، فأوضحت لي:

- «كان أبي عضواً في الميليشيا الشعبية ومسؤولا عن الرقابة السياسية، وربما كان سيَعتبر أباك عدوه».

- «وهل كنت ستتفقين معه؟».

- «لم أكن أطيقه». ثم كررت: «لم أكن أطيق أبي. ما إن بدأت أعي لم أعد أطيق التحدث معه ولا رؤيته حتى».

- «أترين؟ لقد فقدت أباك عملياً وهو ما زال حياً، ماذا تقصدين إذاً بالتورط؟»

- «فـي عينـيّ أبيك، أبي غير مقبـول أيضاً، ونحن الاثنين ننـام هنا معاً. لم يكن أحد منهما ليوافق على هذا، ولا أمّك أيضاً».

- «إنـه لشـيء رائـع أننا ننام هنـا معاً، بما أننـا نحب بعضنا، ولا تحشـري والدينا في هذا».

فـي مـا بعد، حين كنت مغادراً، أدركت أن أباها كان حقاً أحد هؤلاء الذين اضطهدوا أبي. هذا ليس ذنبها، كما أنه ليس ذنبي أيضاً أن أبي كان المُضطهد. وحتى مع ذلك، أفضل أن لا أفكر في مرجعيتينا المختلفتين. لا أبالي بهما ولا أريد أن أبالي بهما، تماماً مثلما لا أبالي بدخان سـجائرها مع أنني أشم رائحته حتى في شعرها.

الحقيقـة أن الطريقـة الوحيدة للبقاء هـي اللامبالاة بالأشـياء التي نكرهها والتي تزعجنا في البشر والعالم.

6

الساعة الثامنة مساءً تقريباً، وجانا لم تعد من المدرسة بعد.

ظهـرت اليوم نتيجـة الامتحانات. بالأمس بذلت ابنتـي جهداً لتخفف من وقاحتها وتسـترضيني بأن أعلنت لي أنها سترسب في الرياضيات وأنها تتوقع الدرجـة الأدنـى في خمس مواد أخرى على الأقل، وتقدير جيد في السـلوك. قررت في نفسي أن لا أنهرها أو أؤنبها بأي طريقة. لكنها لم تعد للبيت.

هاتفتُ ماما أولاً، لربما ذهبت إليها، ثم صديقتها المقرّبة. عثرت عليها في البيت، لكنها لا تعرف شيئاً عن جانا، أو هذا ما قالته على الأقل.

اتصلت أمي بعد ذلك بوقت قصير وأخبرتني أن عليّ فعل شيء.

- «أعرف، لكن ماذا أفعل؟»

تضغط عليّ:

- «أنتِ تعرفين الأمر، يحصل الأطفال على درجات سـيئة فيهربون خوفاً

مـن أهلهـم إمـا لأن ضميرهـم يؤنبهم، أو الأسـوأ من هـذا حتى قـد يضرون أنفسهم».

- «ممن ستخاف جانا يا ماما؟».

- «أنت تعرفين».

- «إنها لم تعد طفلة بعد الآن، لعلها ذهبت لمكان ما مع أصحابها».

- «كانت ستتصل بكِ على الأقل أليس كذلك؟ يجب أن تبلغي الشـرطة فوراً».

- «سـأنتظر قليـلاً». أدخّـن سـيجارة تلـو الأخـرى. أتصل أيضـاً بزوجي السابق، رغم علمي بلا جدوى هذا.

لا، لم يرَ جانا منذ ثلاثة أسـابيع. الأمر يؤلمه لأنه يشـعر بالخيبة ولا يعرف إلى متى سـيظل علـى قيد الحياة. يبدأ في إعطائي كشـف حسـاب مطول عن أمراضــه. لا يعنيه الآن سـوى نفســه. أُنهي المحادثة عديمة الجدوى وأُشـعل سـيجارةً أخرى. أصابعي ترتعش وبودي أن أنفجر في البكاء. ليس لديّ أحد فـي هذا العالم الواسـع غير ماما، وهي عجوز الآن. لا، يوجد شـخص واحد ربمـا يحبني، لكن كيف سيسـاعدني؟ في الغالب سـيظنني فـي نوبة جزع. لم أخبره بشيء عن جانا، كنت أتحرّج من قرب عمرها هي منه مقارنة بعمري أنا.

سـأنتظر نصف سـاعة أخرى ثم أذهب للشـرطة. الشـرطة هي كل ما لدينا جميعاً في العالم الواسـع. خطوط النجدة والشرطة، يأتون ويأخذون أقوالك وهذا كل شيء.

أخيراً يدق جرس الهاتف، لكنها لوسي تتصل لتخبرني أنها تعيسة ومشتاقة لحبيبها الأسـمر. وهي على وشـك أن تخبرني بكل ما لديها أقاطعها وأخبرها بمشكلتي الراهنة.

تحاول صديقتي طمأنتي قائلة:

- «لكنها ستعود للبيت».

حين أضع السماعة أكون على قناعة أن جانا لن تعود للبيت. وأنها تجلس

في مكان ما مع عصبتها يسكرون - آمل أن يكونوا يسكرون فقط - ويقضون وقتاً طيباً. أنا التي أرتعش خوفاً؛ فهي تعلم أنه لا يوجد ما تخاف منه. وبالنسبة لضميرها، فلم يزعجها حين سرقت المجوهرات والمال وحين كذبت عليّ. لماذا إذاً ستُزعج نفسَها من أجل نتيجة امتحانات؟

لم يكن عليّ أن أدع الأمر يصل إلى هنا، ما إن تصل سأجرّها على الفور إلى وحدة طوارئ المخدرات بمستشفى بوهنيك النفسي! سيُجرون لها تحليل دم وسأكتشف أخيراً ماذا تفعل بنفسها.

لكن ماذا لو كان قد وقع لها حادث؟ ماذا لو أن سيارة صدمتها وهي ثملة أو عالية، أو ماذا لو أن أحدهم اعتدى عليها.

يجب حقاً أن أذهب للشرطة، لكنني ما زلت مترددة. لا أريدهم أن يضعوها في قائمة ما ويبحثون عنها كأنها سجينة هاربة.

أملي الوحيد في جان، مخرج ألعاب الأبطال ولديه خبرة أيضاً في التحقيقات.. أهاتفه أخيراً وأشاركه هواجسي وأنا أعتذر لإقحامي إياه فيها.

يخبرني من دون أن ينتظر مزيداً من التفاصيل أنه سيأتي إلي على الفور.

يبدو الانتظار بلا نهاية مع إنه يصل في أقل من نصف ساعة.

يريد أن يعرف نتيجة الامتحانات التي كانت تتوقعها جانا، هل جانا كئيبة، هل تشرب الكحول، كيف هم أصحابها، وإلى أي البارات تذهب؟

أخبره بأمانة أنها تصاحب البونكس، وأنني لا أدري إلى أي البارات تذهب - فقد أخبرتني أنها غالباً ما تجلس في الحديقة العامة.

يسألني إن كنت بحثت عنها هناك من قبل.

لا، لم أفعل قط، لأنها غالباً ما تعود للبيت قبلي؛ تستمر عيادتي للسادسة مساءً ثلاثة أيام في الأسبوع.

ردودي لا تفيده بشيء بالطبع؛ أظنه يراني أمّاً مهملة لا تستطيع تحمّل المسؤولية.

يمعن فكره لدقيقة ثم يقول إن البونكس غالباً ما يتجمعون في جزيرة كمبة.

- «حتى وإن لم نجدها هناك، فقد نكتشف شيئاً على الأقل».

سأوافق على أي شيء يقترحه، طالما سنفعل شيئاً ما. نهبط ونركب سيارتي، لكني أطلب منه أن يقود هو لأنني مضطربة للغاية.

الشوارع في هذه الساعة من الليل مهجورة تقريباً، وسرعان ما نصل إلى سميخوف. يركن السيارة في أحد الشوارع الجانبية ونسير خطوات صوب كمبة. تتناهى إلى مسامعنا أصوات جيتار بالفعل، الظلام يخيم لكنني ما زلت أميز تسريحات شعر البونكس. هؤلاء هم من نبحث عنهم: أميّز ابنتي حتى من ظهرها. أركض نحوها:

- «جانا!».

تستدير لي:

- «أهذه أنتِ ماما؟ ماذا تفعلين هنا؟»

وجهها مطلي بسفاهة كملكة جمال بابونية[1].

- «ماذا تفعلين أنتِ هنا؟». لكنني هادئة لأنني وجدتها ولأنها ما زالت على قيد الحياة.

- «أنا هنا وهذا هو كل شيء. لقد بدأت الإجازة اليوم أليس كذلك؟».

تتصرّف باستكبار، لا تريد أن تفقد ماء وجهها أمام أصحابها الذين لاحظوني لكن معظمهم يبدون غير مهتمين.

- «لماذا لم تتصلي بي؟».

- «نفد رصيد بطاقة الهاتف».

- «ألم يخطر لكِ أنني قد أقلق عليكِ؟».

- «وفّري علينا هذا المشهد ماما».

- «حسناً، لن أقول شيئاً آخر. فقط احضري أشياءك، ستعودين معي».

تعطيني ظهرها كرد على ما قلته.

- «جانا، انهضي وتعالي معي!».

---

(1) بابون إقليم في أندونيسيا.

لا تنظر إليّ، لا تلتفت حتى. مع ذلك يميل عليها جان ويقول:

- «ألم تسمعي؟»

- «من أنت؟ ماما هل أحضرتِ معك شرطيًا؟».

للحظة يتجمد الدم في عروقي من فكرة أن كلمة شرطي قد تحث بقية الموجودين على مهاجمتنا. يقول لها:

- «لا. أنِت مخطئة، أنا فقط أحب أمك ولن أقف صامتاً وأنا أراكِ تعذبينها».

- «أنا لا أعذّبها»، تجيبه وهي مذهولة مما سمعته لدرجة أن نهضت والتفتت للآخرين وقالت: «سلام الآن إذاً، أراكم غداً، سأذهب معهما».

أراها لا تحمل سوى حقيبة قماشية صغيرة فأسألها:

- «أين نتيجة امتحاناتك؟»

تشير إلى النهر قائلة:

- «هناك».

- «هل رميتها؟»

- «نعم. كانت مقرفة!»، وتضحك ضحكة مختلفة وغريبة.

لا أقول شيئاً.

يُجلس جان كلتينا في الكنبة الخلفية بالسيارة، ثم يستدير لابنتي قائلاً:

- «أنتِ عالية كطيارة ورقية ألستِ كذلك؟».

تنظر له ثم تصيح فيه:

- «هذا ليس من شأنك. أنت لست بابا».

- «جانا!».

لكنها تضحك بهذا الصوت الغريب مرة أخرى، وتخبرنا:

- «أشعر بسعادة. ولا يعنيني ماذا ترون في هذا».

- «لكن أنا يعنيني ماذا يسري في دمك وسأكتشف قريباً».

تضحك. ثم تصرخ قائلة إنها لن تدع أحداً يأخذ دمها. وإنها لن تذهب معنا إلى أي مكان، وإن علينا أن ندعها تترجل من السيارة فوراً.

لا أجادلها. بل أخبر جان فقط إلى أين يتجه.

- «أتريدين حبسي مع المعتوهين؟».

- «أريد فقط أن أعرف ماذا بكِ».

- «لن أذهب معكِ».

تحاول فتح باب السيارة فيما يقود جان، أمسك بها وأحيط خصرها بذراعيّ محاولة السيطرة عليها بكل قوتي. نتصارع. تنجح في فتح زجاج النافذة قليلاً وتصيح طلباً للنجدة. حين تدرك أن لا أحد يسمعها، تحاول خنقي وضرب جان، تدفع مقعده وتصيح فينا أنه لا يعنيها إن متنا كلنا في حادث:

- «سأقتلكما. أنا أكرهكما. أنتما شريران! سأقتلكما».

أنجح في الإمساك بها. أرقد على ابنتي؛ أشم رائحة نفَسها، ينبعث منها نتن غريب. أرقد على ابنتي الصغيرة، التي تخدشني وتعض يدي وتلكزني في بطني. إنها أصغر وأقوى وعقلها أفسده سم ما أو آخر. أعلم أنني لن أستطيع الصمود طويلاً، ربما تقفز في أي لحظة وتدفع بي خارج السيارة؛ ثم تقفز على جان من الخلف وتحرف مقود السيارة من يده. ستقتلنا جميعاً حقاً.

ثم فجأة تستسلم. تهدأ. ألاحظ أن وجهها مغطى بالدم. أجزع للحظة، لكنه فقط دم الخدوش التي في يدي.

يلوح السور الطويل لمستشفى الأمراض العقلية في الظلام أمامنا ويوقف جان السيارة أمام البوابة. تسألني جانا:

- «أتريدين تركي هنا؟»

ثم تأخذ في العويل:

- «مامي، لن تتركيني هنا أليس كذلك؟».

لكن البوابة قد انفتحت بالفعل وأعرف أن عليّ أن أتركها هنا.

7

كل شيء هنا أبيض وبشع: الجدران، الأسرّة، مصابيح النور، والناس. ما

عدا الخفافيش السود التي تتدلى من اللمبة من وقت لآخر. كاد رئيس الأطباء يفقد صوابه حين رأيته أول مرة، ظننته معتوهاً متنكراً أو بائع مخدرات. حين جرّوني جراً لوحدة التخلص من السموم، هكذا يسمون العيادة الكائنة في الطابق الأرضي، قاتلتهم بعنف ما وسعني لكنهم كانوا مدرَّبين جيداً ويستخدمون حقن تحت الجلد وليس قيوداً وسياطاً، حقنوني بشيء ما فنمت لشهر تقريباً، كالجَمال النائم. حين صحوت بعد ذلك كنت في مزاج كريه وأخبرتهم جميعاً أن يبولوا بعيداً عن دماغي. أخبرني ذاك المعتوه المتنكّر بمرح أنني أعاني من أعراض انسحاب تقليدية. وأن دمي كان مليئاً بشتى أنواع القذارات وأنني يجب أن أكون شاكرة لأنني ما زلت على قيد الحياة.

لم أخلطها، كان رودا من يخلطها.

سأهرب من هنا على كل حال.

كنا تسعة في وحدة التخلص من السموم - شيء عظيم! كان هناك بعض مدمني الخمرة أيضاً. تحدثنا معاً عن حياتنا. كانت ريناتا في الخامسة والعشرين من عمرها لكنها بدت كأنها في الخمسين. قالت إنها ظلت تتعاطى المخدرات لثماني سنوات وأن هذه ثالث مرة لها هنا وأنها ستنتحر على كل حال. حاولَت الانتحار بالفعل مرات كثيرة لكن في كل مرة كان أحدهم يفسد الأمر. كانت آخر مرة حين رقدت على سكّة القطار، لكن القطار توقف قبلها بنصف ياردة تقريباً. ثم قفز السائق ورفعها، ولإنه كان مذهولاً من الصدمة فقد لكمها في وجهها وصرخ فيها أنه سيقتلها. لماذا إذاً أوقف المغفّل القطار؟

أخبرتني ريناتا أن عليّ أن أشكر أمي لأنها أتت بي إلى هنا.

- «أنا لا أحد يعنى بي إلا للنكاح، وانظري إلى حالي».

كان ثمة رفيقة أخرى اسمها رومانا وكانت رائعة حين حكت حكاياتها. قالت إنها ذات مرة نامت مع ثمانية رجال في ليلة واحدة وتقاضت ما يعادل مرتب وزير في الحكومة في شهر. قالت إنها وُلدت في صقلية حيث نصف

السكان جاؤوا أساساً من الهند، وأنها حين وُلدت بُعثت كالي للحياة فيها. كالي هي أشد الآلهة الهندية شراسة. حتى إنها هزمت زوجها الذي كان إلهاً أيضاً ثم رقصت رقصة النصر على صدره. تعلمت رومانا في صقلية السحر وتدمير الرجال.

تقول إن الأمر لا يستغرق منها أكثر من أسبوعين لتحوِّل أي رجل إلى جثة متحركة يظن أنه لا يمكنه العيش من دونها. كان ثمة ابن قس كاثوليكي حاول إصلاحها، وفي خلال أسبوعين صار كمن عاش مائة عام، ولم تعد حتى نفايات الهيروين لتجدي معه بعد ذلك. راح رجلٌ آخر، كان رجل أعمال، يتجول حول المقابر يحفر بحثاً عن جماجمَ ويضربُ رأسَه بالعِظام حتى مات. ثم أستاذ الجامعة ذاك الذي يدرِّس السحر في الجامعة؛ كان بعد أن عرفها، يصعد إلى سطح البناية كل ليلة عارياً ويجلس هناك لا يبالي بالطقس. قالت إنه «كان يجلس هناك حتى تجمَّد ذات ليلة على المدخنة واضطر رجال المطافىء أن ينزلوه». قفز حوالي دستة من عشاقها من النوافذ. وهزمت مصارعاً من الوزن الثقيل ورمت به من الشرفة بداخل خلاط أسمنت مباشرة.

كان واضحاً أنها تهذي، إما أنها تهذي أو أنها تذهب في رحلات مذهلة، لكنها كانت ممتعة.

أسوأ ما حدث لي أنهم حبسوني مع حقيبة قديمة كانت في الحقيقة إعادة تجسيد لخيَّال المآتة صاحبة بابا. تبدو كإنسانة تحولت منذ أزمنة لمصاصة دماء، وهي تريد مص دمي. أتوقع أنها تريد مصّ دم الجميع، لكنني كرهت رغبتها في مصّ دمي. أخبرت الممرضة بأمرها - تشبه إيفا مساعدة ماما قليلاً - فقالت لي أن لا أخاف، وأنها ستراقبني وأنا نائمة. لهذا كنت أغط في النوم فقط أثناء نوبات عملها وحتى حينها كنت أذهب للفراش خائفة وأربط وشاحاً حول رقبتي.

كان الجو جميلاً في الخارج - خارج النافذة أقصد، لأننا لم يكن مسموحاً

لنا بالخروج. هذا ما أغاظني بشدة: أهل الخارج في إجازات، والآخرون في جزيرة كمبة بينما أتعفّن أنا هنا كثمرة طماطم مهروسة.

سأهرب من هنا على كل حال.

كنا نقوم بجلسات علاج طوال الوقت، كانت تلك الشقراء البروكسيدية[1] تأتي في معطفها الأبيض وتبدأ في الطنين على رؤوسنا عن كيف أنه من الغباء أن نتعاطى المخدرات، مع أننا جميعاً نعرف جيداً أن تعاطي المخدرات شيء رائع. أخبرتنا تلك البقرة أنها تقول ما تقوله لمصلحتنا وأمرتنا أن نكرر وراءها، تماماً مثل بابا، أن المخدرات شيء غبي ولن نتعاطاه مجدداً. وسألتنا أيضاً عن ظروفنا. كانت سعيدة جداً حين عرفت أن ماما طبيبة أسنان.

- «أم كهذه وها أنتِ تجلبين لها الغمّ. لكنك لن تجلبي لها الغم بعد الآن. حاولي إذاً أن تكرري ورائي بصوت عالٍ أو على الأقل بينك وبين نفسك».

مذهل حقاً!

لم أكن أعرف أن بابا كان يعقد لي جلسات علاج.

أغاظتني ماما حقاً بوضعها إياي هنا. رغم أنها من كانت تردد دائماً أننا مهندسو أقدارنا الخاصة، حين كان بابا يفقد أعصابه عندما تتجمد بتأثير مخدراتها الخاصة.

أنا لم أكدِّرها بسبب مخدراتها. كنت حزينة عليها أكثر من أي شيء آخر. كانت في مزاج سيئ طوال الوقت تقريباً لأن عليها أن تذهب لتثقب أسنان الناس، كما تقول. لم تكن لتتخيل كيف يكون الأمر حين تغيب تماماً عن العالم في رحلة رائعة حقاً. لماذا إذن تركَتني هنا وحدي؟

ولديها صاحب. أغاظني هذا حقاً. نحيف جداً، يبدو كالسِلك سميك؛ أراهن على أنه يدخن الحشيش هو الآخر، لكنه يتصرف كأنه الحمل الوديع. ماما مجنونة به تماماً، أمكنني ملاحظة هذا على الفور مع أنني كنت مغيّبة

---

(1) مادة كيماوية تستخدم لتفتيح لون الشعر.

تماماً حينها. أنا أتمنى لها كل الخير حقاً؛ لعلها تكف عن القرف من الحياة طوال الوقت وتُخرجني من هنا.

جاءت لزيارتي لأول مرة يوم الأحد بعد أن أخرجوني من وحدة التخلص من السموم. جلبت لي كعكةً وبرتقالاً وكتاب قصص لكارل تشايبك. خبزت الكعكة بنفسها لهذا كانت محروقة قليلاً، ليتها جلبت لي علبة برومازيبام[1] أفضل - لكنني لا أتوقع ذلك منها. قالت لي إنني بالتأكيد لن أمكث هنا طويلاً لكن عليّ أن أبذل جهداً. وظلت تتحدّث بطريقة لا إنسانية حقاً عن أنها وضعتني هنا لمصلحتي، لأنها تحبّني ولا تريدني أن أدمّر حياتي.

تظاهرتُ أنني مقتنعة بكل ما تقوله ووعدتها أنني سأبذل جهداً حقاً لإصلاح نفسي.

سأبذل جهداً لأهرب من هنا في أسرع وقت ممكن.

لكنني لا أعرف إلى أين أذهب. إن عدت للبيت ستعيدني ماما إلى هنا مرة أخرى. رومانا قالت لي أن لا قلق؛ ستعتني بي.

لكنني «سيطلع ديني» إن ذهبت معها؛ هذا ما ينقصني: أن أقضي وقتي في النوم مع رجال لا أعرفهم حتى!

زارتني جدتي أيضاً وأخبرتني كم تبكي ماما عليّ، وكم تبكي هي أيضاً، لأنها تعرف أنني فتاة ذكية للغاية وأنها تعلّق عليّ آمالها لأنني حفيدتها الوحيدة. جاء بعدها مباشرة ذاك الشاب ذو الشعر الزنجبيلي، الذي خطفني هو وماما وجاءا بي إلى هنا. جلب لي زهوراً لونها بنفسجي، أظن أنها كانت زهور سوسن. سحقني هذا حقاً. في البدء يجرجرني لمقلب قمامة المخبولين هذا ثم يتسلل ويأتي لي بزهور. لم يحدث لي من قبل أبداً أن جلب لي أحد زهوراً، لكنه رغم هذا كان بعيداً تماماً في حديثه معي عن الهراء التربوي. ظل لوقت يخبرني بحكايات عن أنه كان يربي أفاعي سامة. يبدو أن إحداها كانت

---

(1) دواء مهدئ ومضاد للاكتئاب.

سامة جداً إلى حد أنها لو كانت لدغته لصرعته ميتاً في نصف ساعة. قلت له إنني أتمنى لو كان الثعبان قد لدغ أحدهم. وضحك بشدة إلى حد أن نظارتيه المستديرتين قفزتا لأعلى وأسفل على أنفه. أخبرني أيضاً أنه لاحظ جهاز طبولي وأن لديه طبلة أمريكية هندية، وأنه تعلّم إرسال الإشارات بالطبول والأعلام والدخان. كان يتفاخر بنفسه طوال الوقت، فأخبرته أنني ماهرة في إلقاء الخطابات في صناديق البريد وأن بوسعي تذكر كل أرقام التليفونات التي أحتاجها - وهي أربعة أرقام على وجه الدقة.

قبل أن ينهض بدأ يثرثر عن ماما وكم هي فاتنة جداً ولطيفة جداً وفريدة من نوعها، وكم تحبني.

لم أجادله. ليس لديّ شيء ضد ماما. أخبرته فقط أنها لو كانت لطيفة جداً فعليها أن تأخذني من هنا قبل أن تمص مصاصة الدماء دمي حتى الموت. فضحك مرة أخرى.

بالأمس جُنّت المعالِجة مجدداً وطلبت منّا أن نكرر وراءها، نحن لا نريد أن نتعاطى المخدرات مرة أخرى أبداً، لن نتعاطى المخدرات مرة أخرى، لن نحقن أنفسنا مرة أخرى. فقلت أنا بصوت عال: «نحن لا نريد أن نكون مخابيل عِبط، نحن نريد أن نكون مقدَّسين، نحن نريد أن تنمو من أردافنا أجنحة لنكون ملائكة». فأعادوني كعقاب إلى وحدة التخلص من السموم.

يبدو أن رومانا لن تعتني بي الآن؛ حاولَتْ بالأمس شنق نفسها بخرطوم الدش. كان أمراً مذهلاً. كنا جميعاً مصدومين. حين كانوا يأخذونها للخارج سمعت تلك الممرضة التي تشبه إيفا تقول لنفسها: «لو كانت ريناتا لكانت فعلتها... لكن رومانا....؟».

كان واضحاً لي أن رومانا لم تفعل شيئاً. أعرف أن الفاعل هي تلك الساحرة مصّاصة الدماء. لقد مصّت دم رومانا حتى الموت ثم جرحتها بخرطوم الدش حول عنقها لتخفي آثارها. سيأتي دوري لاحقاً، وإن لم أهرب من هنا سأموت بالطريقة نفسها.

يقولون إنهم يمكنهم إنقاذ رومانا. لكنهم إن تركوا خيَّال المآتة العنقاء هذه هنا معنا ستفعل بنا جميعاً مثلما فعلت برومانا.

الليلة الماضية كنت مرعوبة من الذهاب إلى النوم. ظللت أرقب الساحرة العجوز المخيفة وسرعان ما ظهر داخل الغرفة خفاشان وتدليا من اللمبة، وكان أكبرهما هي نفسها.

نهضت من فراشي وركضت أبحث عن الممرضة، وكانت عطوفة حقاً وعادت معي ثم قالت لي: «أترين، لا خفافيش هنا، أنظري جيداً فقط».

نظرت جيداً ولم يكونا هناك فعلاً - لأنهما طارا بعيداً، حتى إن اللمبة كانت ما زالت تتأرجح.

الفصل الخامس

1

تعطّـل كل شـيء في حياتـي على نحو ما فجـأة. ألغيـت أجازتي ورحلتي إلـى الشـاطئ. سـافر حبيبي الشـاب مع رفاقـه إلى جبـال أوري السـلوفاكية لأسـبوع - بخيمة صغيرة وحقيبة ظهر كبيرة. لو كان باستطاعتي لذهبت معه. لطالمـا أحببـت سـلوفاكيا. كنـا نذهب هناك كل عـام في السـنوات التي تلت زفافـي الوحيد: نمارس التجديف، نتزحلـق على الجليد أو نتجول بين التلال والوديان كما يفعل جان الآن، نسمع لغة كان وقعها على أذنيّ ناعماً ومنغّماً.

انهارت تشيكوسـلوفاكيا قبل انهيار زواجي مباشرة. بكيت عليها، لكن لم يكن بيدي شيء لأفعله لها، لم يكن بيدي شيء لأفعله لنفسي حتى.

ميكي ماوس حبيبي يتحدث السلوفاكية قليلاً. يقول لي: «عيناكِ لهما لون الفيرونيـكا». الفيرونيـكا هي زهرة الحواشـي بالسـلوفاكية. سـألته هل يحب كريستيانا أم فيرونيكا سلوفاكية؟

كنت سـأحب فيرونيكا السـلوفاكية لـو كان لها عينان مثـل عينيكِ ونهدان مثـل نهديـكِ، وأنف مثل أنفـك. ولو كانـت حكيمة ورقيقة وتمـارس الحب جيـداً مثلـك. لكـن لا يوجد مثل هذا لا في سـلوفاكيا ولا فـي أي مكان آخر. يبالغ في الإطراء، الكاذبْ، لكنه يعلم أنني أحب هذا.

عرض عليّ أن أذهب معه، لكنني خشيت أن أسافر وجانا في المستشفى. ماذا لو حدث لها شيء، أو لو هربت حتى؟ عرض أيضاً أن يبقى في براغ، لكنني رفضت أن أدعه عالقاً هنا من أجلي. قبل أن يذهب قال لي إنه حين سيعود سيكون لديه أسبوعان آخران إجازة، وسألني أن نذهب معاً لأي مكان.

ثمة موجة حارة والمدينة نصف مهجورة، مثل حجرة الانتظار في عيادتي. حتى إيفا أخذت إجازة. سأتعامل مع المرضى المتبقين من دونها جيداً، فعددهم قليل.

أقضي معظم اليوم في العيادة أدخن وأشرب مياهاً معدنية عليها قطرة نبيذ. لا أرتدي شيئاً تحت ثوبي سوى ملابسي الداخلية ومع ذلك أشعر بحرارة شديدة. لكنني سعيدة لأن لديَّ العيادة لأذهب إليها، لأنني في البيت أشعر باضطراب. الشقة خالية، أفتقد ضجّة جانا. أفتقد وجود من أرعاه. أفتقد ود جانا المحسوب ذي الوجهين. أفتقد وجود شخص قريب أتحدث معه.

- «لماذا تظنين حقاً أنك لن تنجبي أطفالاً ثانيةً؟»، سألني جان فجأة.

- «لأنني عجوز جداً».

- «أهذا هو السبب الوحيد؟».

- «إنه سبب كافٍ».

- «لستِ عجوزا للغاية. إحدى صديقات أمي أنجبت وهي في السابعة والأربعين».

- «ليس أمامي متسع من الوقت إذاً». قلت وأنا أشيح بوجهي عنه لئلا يرى الدموع التي تتجمع في عينيّ.

لعلني ما زال بإمكاني الإنجاب، العلوم الطبية تصنع المعجزات. لقد اخترعوا أطفال الأنابيب ونجحوا في استنساخ الذئب التسماني[1] المنقرض، وعن قريب سينجحوا في تخصيب مومياء مصرية صناعياً. لكن المسألة

---

(1) الذئب التسماني أو القط التسماني أو النمر التسماني حيوان منقرض كان أكبر لاحم جرابي في العصر الحديث عرف باسم النمر التسماني بسبب ظهره المخطط وكذلك باسم الذئب التسماني.

ليست في الحمل والولادة فقط، بل في التربية أيضاً. لا أعرف إذا كان ما زال لديّ القوة. ليس الآن، بل بعد خمسة أو عشر أعوام.

ليتني توقفت عن تدمير صحتي، أكره أن أفكر في ما سأكون عليه بعد عشر سنوات، وهذا الشاب الذي يقول إنه يحبني الآن، ماذا سيحدث له في عشر أعوام حين ستغزو وجهي التجعّدات وقد أتوكأ على عكاز حتى؟ سيختفي؛ سيذهب ليجد واحدة أصغر سناً وسيتركني وحدي مع طفلتي في عالم يحمل فيه تجار المخدرات المتجولون بضاعتهم في حقائب الظهر ليبيعوها على بوابات المدارس. وستسقط الأشعة فوق البنفسجية من ثقب طبقة الأوزون.

وماذا لو لم أعد موجودة على الإطلاق بعد عشرة أعوام - لو غزا رئتيّ المطليتان بالقطران وبقية أجزائي ورمٌ سرطانيٌّ في نهاية المطاف. عليّ أن أقلع عن التدخين على الأقل. لكنني حينها سأسمن أكثر من هذا وسينتهي بي الأمر ككرة قبيحة من الدهن. هذا ما لم أبدأ في ممارسة بعض الرياضة كما كان يلح عليّ دائماً زوجي الأول والوحيد. كنت حينها أمارس الرياضة، كنت مازلت أتمتع بالقوة.

خلال عشر سنوات ستكون جانا تركت البيت بالطبع. على الأقل سيكون ثمة شخص ما في انتظاري حين أعود للبيت من العيادة. على الأقل سيكون لديّ من أتطلع لرؤيته.

قال حبيبي حين رآني أكاد أبكي:

- «أنا آسف. أردت فقط أن أقنعك أنك لستِ عجوزاً بالمرة».

لم أقل له إن المرء عجوز بقدر ما يشعر به من عجز، بل حاولت أن أسخر منه.

ربما أؤثر فيه على نحو سيئ. ما زلت أقارنه أحياناً بزوجي السابق، مع علمي أنه مختلف. إنه رقيق ولا يؤمن بالعقل فقط.

أُقنعُ نفسي أنه مختلف. لكن الرجال جميعاً لديهم مسحة أنانية، ومسحة قلق أيضاً تمنعهم من البقاء مع امرأة واحدة. هذا ما لا يجب أن أنساه.

يجيء الأب كوستكا للعيادة. يريد خلع إحدى أضراسه القليلة المتبقية. أعطيه حقنة وأطمئنه أنه لن يتألم. ضرسه مخلخلة تماماً. أظن أنه لن يؤلمه حتى من دون الحقنة.

- «أنا لا أخاف الألم». يقول وهو يبتسم لي بعينيه كعادته.

يجلس على كرسي المرضى في انتظار أن يبدأ مفعول الحقنة. أقرر أن أخبره عن متاعبي مع ابنتي.

- «آنستي العزيزة»، هكذا يخاطبنا أنا وإيفا دائماً - «يتوقّع الناس من القساوسة أن يحيلوا كل شيء لنقص الإيمان. لكن الإيمان ليس الأمر الوحيد المهم. لقد تحدّث القديس بولس عن الإيمان والأمل والحب، وأعظمها، كما قال، الحب. ليس من السهل الإيمان برسالة الكتاب المقدس في هذه الأيام وهذا الزمن، لكن الشباب لا ينقصهم الإيمان فحسب - بل ينقصهم الحب. لا أقصد ابنتك تحديداً، لكن ثمة شباب كثيرون يحاولون الهرب من عالم لا يجدون فيه شيئاً من تلك الثلاثة. يمكنني أن أضيف أيضاً إننا نفتقر للإرادة أو للمهارة في التصالح مع الأشياء. يملأنا الكِبر إلى حد يُعجزنا عن التصالح مع أقدارنا أو مع من حولنا، ناهيكِ عن معرفة أبانا الذي في السماوات».

صار فكّه الآن خدراً، يضيف فيما أحضّر أدواتي، إن أطفالنا هم، ببساطة، مرآة لأنفسنا. ننظر لها فنرى عيوباً ونواقص لكنها في الحقيقة عيوبنا نحن ونواقصنا نحن.

يستغرق خلع ضرسه المخلخلة ثوانٍ قليلة فقط.

يبصق الدم، يغسل فمه بالماء ثم يشكرني ويضيف:

- «لكن ظني يا آنستي العزيزة أنك كنت تتوقعين سماع شيء مختلف تماماً مني. شيء ما محدد».

قلت له إن ما قاله هو ربما ما أردت سماعه، منه هو على الأقل. فقد أجد وفرة مما قد يُعتبر نصائح علمية في أي كتاب علم نفس قديم.

يخطر لي حين يذهب أنني لم أسأله أين يجد المرء الأمل وكيف نرعى

الحب ليدوم وكيف أكون بجانب ابنتي من دون أن أفسدها بالتدليل. هذا ما عليّ أن أكتشفه بنفسي.

بعد العيادة أذهب مباشرة لأرى جانا في عيادة علاج مدمني المخدرات. يحضرونها لي. شاحبة، وتبدو بدينة على نحو ما.

- «هاي ماما!».

أنظر إليها وأشعر بحسرة حارقة. إنه لأمر مريع أن أشعر بالذنب - أكثر منها هي حتى. أسألها كيف حالها وتبدأ على نحو مفهوم في تأنيبي على تركها هنا في هذا «السجن». مع ذلك تعترف بأن ثمة منطقاً لهذا لأن جلسات العلاج جعلتها ترى عدة أشياء. ثم تضيف سريعاً:

- «مع أنها أحياناً ما تكون في خبل تام». لا تريد التنازل لي كثيراً.

نذهب لنتمشى، لكن التحدث أثناء السير ليس سهلا، فنجلس على دكة. على مسافة قصيرة منا بعض المنفصمين أو مدمني الكحول يزيلون العشب الضار من حوض زهور. أفض غلاف كعكة الخوخ التي خبزتها لابنتي فتلتهمها بتلذذ. أسألها عن من تعيش معهم حالياً، فتقول بعجرفة إن جميعهم مخبولون وبلهاء. لا تعرف ماذا تقول عنهم ولا ماذا تفعل معهم.

أسألها:

- «جانا، أتذكرين ما قلته لكِ عن جدتي؟»

- «أيهما؟»

- «أم أمي. التي لم أرها حتى».

- «أوه، نعم، التي ماتت في معتقل».

- «سمموها بالغاز».

- «نعم. هذا ما قلتِه».

- «حين أخبرتك بهذا قلتِ إنه أمر فظيع، والآن أنتِ تسممين نفسك ببطء.

تنظر لي بشفقة كأنما لتجعلني أدرك مدى قلة معرفتي بالواقع الحقيقي.

- «لكن هذا شيء مختلف تماماً».

أحاول أن أوضح لها أن الفرق الوحيد أن في تلك الأيام كان أحد ما يزدري حياة الآخرين، بينما في حالتها، هي من تزدري حياتها.

تهز رأسها بغضب لا يتناسب مع الأداء الذي كانت تؤديه. تبدأ في محاولة إقناعي بأن ما قلته قد يكون صحيحاً إن كانت قد فعلت شيئاً من هذا القبيل، لكنها لم تتناول أي سموم قط، ولا يجب عليّ تركها هناك لوقت أطول من هذا لأن الظروف سيئة للغاية ولن يعالجوها في جميع الأحوال لأنه لا يوجد شيء لتُعالج منه.

- «أوه. لكن ثمة شيء جانا، لا تنسي أنني عرفت ماذا وجدوا في دمك».

- «كان ذلك لمرة واحدة فقط».

- «حاولي هذا مع شخص لا يعرف عن الأمر شيئاً. هذا لن يجدي معي».

- «كان ذلك لمرة واحدة فقط ولن أفعله مرة أخرى أبداً. لقد أدركت أنه حماقة».

- «هل يجب عليّ أن أصدقك؟».

تعدني أنها لن تفعل شيئاً من هذا القبيل مرة أخرى أبداً. وتقسم على ذلك حتى.

لا أقول شيئاً. لا أريد الاستخفاف بعهدها لكنني أعرف ضعف عزمها.

- «مامي. لا تتركيني هنا. سأفقد عقلي».

- «الأرجح أنك ستفقدين عقلك مما تعاطيتِه بنفسك. ستبقين هنا حتى يتم علاجك. وهذا سيستغرق أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، أنا آسفة».

- «هل تعنين هذا حقاً؟»

أومئ لها برأسي. فتلتقط ما تبقى من الكعكة وتلقي بها على الأرض ثم تنهض وتركض بعيداً.

أرغب بشدة في الركض وراءها لكنني أعلم أنني يجب أن لا أفعل هذا.

في المساء تتصل بي شقيقتي ليدا من الخارج لتسأل عن جانا.

- «ماما قالت لي إنك وضعتها في مستشفى المجانين».

أجيبها أنها بطبيعة الحال لن تُودع مع المرضى النفسيين.

لا تظن شقيقتي هذا، لكنها مع ذلك ترى أنني لم أختر لجانا المكان الأفضل.

- «إنه ليس المكان الأفضل لأي أحد».

- «لن نتجادل في هذا. لكنني سمعت أنهم لا يحققون نتائج جيدة، ولا يمكنك المخاطرة بعودتها لما كانت عليه بعد خروجها من هناك». ثم تخبرني عن عازف الجيتار في فرقتها الذي شفي من الإدمان عند جماعة بالقرب من بلاتنا. نجحوا في علاجه. إنها تعرف المُعالج الذي يدير الجماعة. تقول إنه رجل رائع وإن بإمكانها إقناعه بضم جانا.

لست متأكدة، لست معتادة على مساعدة شقيقتي لي، ليس طوعاً بالقطع.

- «لكنني لا أعرف شيئاً عن المكان».

- «حسناً، بالطبع ستذهبين وترينه أولاً!»

- «سأفكر في الأمر».

- «كريستيانا، ستفكرين في الأمر لكنك لن تجدي حلاً أفضل».

تملي عليّ اسم المعالج وعنوانه وتطالبني بأن أتصرّف على الفور. ثم تعرض عليّ:

- «إن مررت عليّ لتقليني سآتي معكِ».

ربما كانت شقيقتي تهتم بي حقاً، أو بجانا على الأقل. أخشى أن أصدق هذا، لكنني مع ذلك أقدّر اهتمامها. أخبرها إنني سألغي عيادتي يوم الأربعاء وسأمر لأقلّها.

2

اتصل صاحبي من سلوفاكيا، قال إن الجو رائع هناك وإنهم يودون الذهاب لفيلكي وسوكولِ وبيبيلا دولينا، قلت له إنني أعرف روعة الجو هناك، وإنني سعيدة لأنه يقضي وقتاً طيباً، ولم أسأله كيف يمكنه أن يقضي وقتا طيباً

بدونـي، إن كان يحبنـي بقدر ما يقـول. واصل يقول إنه آسـف لأنه ليس معي لكنه لا يطيق صبراً ليراني مرة أخرى.

لـم يكـن يتطلع لرؤيتي بقـدر كافٍ ليجعله يعـود، لكن ولمـاذا عليه أن لا يتسلق جبال فيلكي وسوكول؟ ألأنني أفتقده فقط؟

لا أعرف ماذا أفعل نهار السبت.

سـأزور مامـا، على الأقل ظلت دائمـاً تريحني، ليس بسـبب كلامها الذي يبعث على الراحة فحسـب بل لأنها تنجح دائماً في وضع متاعبي في سـياقها السـليم. أو على الأقل دائماً ما تَسـمعني وتعزّيني بحكاية من حياتها لـم تيأس فيها حتى وهي في حال أسوأ من حالي الآن.

لقـد تقبّلت مـوت بابا، لكنها تزور قبـره في المدافن المجـاورة مرتين في الشـهر على الأقل، وتضع زهوراً نَضِرَة في الإناء الذي اشـتريته. تنظّف أيضاً، من دون داعٍ، شـاهد القبر الرخامي الذي لا تشوبه شائبة. على الجانب الآخر بدأت تنعشُ تواصلها الاجتماعي برفاق قدامى لها لـم يكن لديها وقت لهم من قبل؛ حتى إنها تذهب للمسرح معهم، لـم تفعل هذا من قبل قط.

عرضـت أن أشـتري لها كلبـاً أو قطاً أو ببغاء على الأقـل لئلا تبقى وحدها تمامـاً في الشـقة بـلا روح معها، لكنهـا رفضـت، لا تريد رفيقاً حياً، سـتكون العنايـة بـأي شـيء عبئاً عليهـا الآن، مع ذلك فقد اشـترت حمولة مـن نباتات الظل، صبار ومعمرة - لتملأ كل حيز فارغ في غرفة نومها.

وعـادت تضحـك مـرة أخـرى، مـن نفسـها كالعـادة. تضحـك حتـى في المواقـف التي قد ينزعج فيها الآخـرون أو يفقدون أعصابهم. تحب أن تقصّ علـيّ حكايـات العجائز والجـدات غريبي الأطوار وشـاردي الأذهـان الذين يعيشون هنا.

لكننـي مهتمة بحالتها الصحية، أحياناً يصيبها نزيف من أنفها يتعذّر إيقافه، ومؤخـراً اضطررت لأخذها إلى المستشـفى، عليها أن تتناول منشـطاً للقلب وشيئاً ما لضغط الدم المرتفع لكنها دائماً «تنسى». وحين أؤنبها لهذا تقول إنها

ليست بحاجة لأية أدوية؛ وإنها على ما يرام وإنني أنا التي أثير ضجة لا لزوم لها على بضع قطرات دم.

حين جلست كانت قد شغّلت غلاية الماء لتعد قهوة وأتت لي بقطعة من كعكة ساخنة خارجة لتوها من الفرن. ثم راحت تريني نبتة جديدة لها زهور أرجوانية تصفها بخبرة أنها سيكاد وتريد أن تعرف أخبار جانا.

نثرثر لوقت عن ابنتي الشقية وآمال شفائها، وتدهشني برغبتها في تحمل جزء من المسؤولية أو اللوم حتى. تقول لي:

- «رفضتِ دائماً قبول معتقدات أبيك، ولم يكن لديّ ما هو أفضل منها لأقدمه لكِ».

- «لكننا نتحدث عن جانا وليس عني».

تعظني قائلة:

- «فاقد الشيء لا يعطيه، لذلك أعطيتِها أشياء أخرى بدلاً من ذلك».

لا أسألها ماذا كان عليّ أن أعطيها. تبدأ ماما في التذكر:

- «كانت جدتك ما زالت تذهب للكنيس، أو هكذا أخبرتني». هي في الحقيقة لا تعرف هل كانت الجدة المقتولة تؤمن بالرب وفقاً للعقيدة اليهودية أم لا، لكنها إن كانت كذلك، فلم يكن إيمانها صارماً لإنها تزوجت من رجل ليس يهودياً. مع ذلك فقد نقلت ما ورثته عن أسلافها. ولم تكن قد فرغت من نقله كله حين قُتلت، كان كل ما خلّفته هي ابنتها، أمي، لكن أمي لم تكن قادرة على نقل أي شيء. إذ بدا لها أن كل ما يستحق الدراسة أو الشعور أو الإيمان قد مات في تلك الحرب الرهيبة، لذلك لم تنقل لي شيئاً.

- «لكن ماما لقد أعطيتني أهم شيء».

- «وماذا يكون ذلك؟»

- «أنكِ أحببتني».

- «نعم، هذا شيء أفتخر به - إنني لم أكن أماً قاسية القلب. لكنكِ ما زال ينقصك شيء، أنت تعرفين هذا بقدر ما أعرفه أنا».

- «نحن جميعاً ينقصنا شيء. ومن ذا الذي يذهب للكنيس هذه الأيام؟ وكم عدد من يذهبون للكنيسة أيضاً؟»

- «لم أقصد هذا». توضح أن ما يدور في ذهنها هو سلسلة الاستمرارية التي انقطعت بمجيء النازيين والتي لم تحاول هي إصلاحها بعد ذلك. ربما كان ذلك بسبب بابا، أيضاً. إذ لم يكن ليفهم ذلك.

معها حق في هذا. كان أبي يرفض الأشياء التي لا يفهمها. ويعتبر أن ما لا يقبله خطأ.

تنتظر أمي رد فعلي، لكنني لا أقول شيئاً. حقاً ينقصني شيء. ليس لديّ سوى الرفض. إن سألني أحدهم عن ما لا أريد، ستكون لديّ إجابة، أو أكثر، لكنني أجد صعوبة أكبر في تحديد ما أريد. أن لا أكذب وأن لا يكذب عليّ أحد، ربما. أن أكون نافعة للناس. أن أعيش في حب، كل شيء مبتذل إلى حد ما، لا أهداف سامية.

تقول أمي بندم:

- «أنا أدين بهذا لماما وكل خالاتي وأخوالي وجدتي الذين لقوا جميعا الخاتمة نفسها».

- «تدينين لهم بماذا ماما؟»

- «هذا ما أحاول شرحه لكِ. لقد تصرفت كأن ما حدث كان مصيبة فظيعة، لكن ماذا فعلت حقاً غير قطع صلتي بأبي؟».

تخبرني أنها فشلت في الحفاظ على الاستمرارية؛ قطعت كل صلاتها بكل ما كان عليها أن تحافظ على صلتها به. لم يكن لديها رغبة في الانتماء لهؤلاء الذين لاقوا تلك الخاتمة المرعبة. تخلصت من حياتها، وفي ما عدا هذا لم تفعل شيئاً سوى أن تركت الأمور تمر مرور الكرام لئلا يسوء مزاج أبي كثيراً. وتركتنا نكبر من دون صلات أيضاً، لم ترد لنا أن يكون لنا أدنى صلة بهؤلاء الذين قتلوا.

- «لا حاجة بك لحَمل هذا الهَمّ ماما».

- «أنا لا أحمل الهَمّ. أنا فقط أفكر فيكِ وفي جانا قبل كل شيء. لعلها إن كانت قد عرفت لمن تنتمي كانت ستصير إلى حال أفضل.

أقول بيني وبين نفسي إن المشكلة هي لِمَن ننتمي حقاً؟ ستة مليارات من البشر، على وشك ختام الألفية الثانية، في عالم مُعولم. مسمّى أنيق أطلقوه على موقف تضاءلت فيه الآمال وصارت الإنجازات العظمى الوحيدة هي المتاجر الكبرى.

كان زوجي السابق ليقول إننا ننتمي إلى عالم ما بعد الانفجار العظيم بأربعة عشر مليون سنة. عالم قد يستمر لأكثر من عدة طرفات لعين الرب كما هو الأمر في العادة. لكن هذه ليست سوى طريقة لأجد لنفسي الأعذار، لألهي نفسي عن التفكير في ما تحاول ماما قوله لي، عن التفكير في سبب فشل أشياء كثيرة جداً في حياتي.

تقول ماما لتغيّر الموضوع:

- «زرعت نبتة العسل عند قبر أبيكِ، هل لاحظتِها؟ لا أظنك ذهبت إلى هناك، لا؟».

أخبرها إن وقتي ضيق جداً هذه الأيام لأذهب للمدافن. أفضل زيارة جانا أو زيارتها هي.

تلح عليّ:

- «يجب أن تذهبي من حين لآخر مع ذلك. إنه أبوك رغم كل شيء».

أعدها أنني سأذهب في وقت ما، وأتذكر أنه لم يكن أبي وأبا ليدا فقط. لكنها لحسن الحظ لا تعرف شيئاً عن هذا.

أخرج للشارع الحارق، الخالي تماماً. كل من استطاع مغادرة المدينة غادرها. أتجه صوب المدافن، لكنني لا أصلها. أهبط نحو مترو الأنفاق عند فلورا، حيث الجو رطب على الأقل.

كما أنني في وعييّ الباطني أعرف وجهتي. أترجّل من القطار في شارع

كارلين[1]. عنوان المدعو فاسيلاف ألوايز فاسيلي الذي قد يكون أخي محفوراً في ذاكرتي بالفعل. لا أعرف ما إذا كنت سأغامر وأزوره أم لا. لا أعرف ماذا سأقول. ليس بإمكاني طرق باب رجل غريب لأسأله: عذراً، هل صادف أنك أخي؟

قد يشبهني شكلاً. إن كان كذلك سآخذه في حضني بالتأكيد. مرحباً أخي، هذه أنا كريستيانا، أختك غير الشقيقة.

لكنه بالتأكيد سيجفل من امرأة غريبة تحيطه بذراعيها فجأة وتعانقه.

ليس عليّ أن أدخل بيته حتى. يمكنني فقط أن ألقي نظرة على مسكنه، إن كان ما زال يقطن هناك.

أنعطف نحو الشارع الذي يخون اسمه جيرة النهر، مع أن النهر قد اختفى تماماً الآن خلف المصانع والمستودعات القميئة وتيه من الأسوار وساحات انتظار الشاحنات. أسير على الرصيف المقابل مارة ببنايات سكنية داكنة محشور بينها وفرة من المحلات الصغيرة. بعض أطفال الغجر يلعبون على أحد جانبي الطريق ذي الأربع حارات.

البيت الذي أبحث عنه بطابقين. ثمة رقع من الطوب على الجدران زال عنها الطلاء بالفعل. ينبعث ضجيج تليفزيون من نافذة مفتوحة. الباب الأمامي الرث مفتوح. أتردد لوهلة، لكنني لن أقف في الخارج بعد أن قطعت تلك المسافة. تنبعث من الممر النتن رائحة طحالب وملفوف مخلل. لا يوجد قائمة بأسماء السكان، بل صناديق بريد معلقة على الجدار في الركن خلف الباب. أجد على أحد الصناديق اسم أخي المجهول. مكتوب بحروف كبيرة ضخمة مائلة لليسار وأسفلها مستدير بزخرفة. اندهش لإنها مألوفة لي. أفتش في ذاكرتي وأكاد لا أصدق، أو بالأحرى أتردد قليلاً في أن أصدق ما أدركته لتوي. لم أكن الوحيدة التي انطلقت للبحث عن أخيها غير الشقيق. لقد سبق وبحث عني واختار أن يرسل لي خطابات تهديد نسي أن يوقّعها.

---

(1) كارلين هو اسم الزوجة الرابعة لإمبراطور النمسا فرانز الأول.

هكذا وجدت من كنت أبحث عنه، ولم يدعوني لزيارته. قد أستدير وأعود أدراجي، لكنني أمضي قدماً في الممر بحثاً عن الباب الذي يحمل اسمه.

الشقة اليمنى في الطابق الأرضي. أميّز الحروف حتى قبل أن أقرأ الاسم. أدق الجرس وانتظر.

لوقت طويل لا أحد يجيب. ثم ينفتح الباب فجأة مع إنني لم أسمع صوت خطوات تقترب. لذعري أجدني في مواجهة أبي جالساً على كرسي متحرك، أبي كما أتذكره حين كنت طفلة. حاجبان كثان أشقران، شعر غزاه الشيب بالفعل، عينان زرقاوان باردتان وذقن كبيرة ناتئة. يتفرس فيّ، أنا المرأة الغريبة، بريبة.

أقدم له نفسي وأضيف:

وجدتك أخيراً.

ماذا تقصدين؟

لطالما كنت أتمنى أن يكون لي أخ. لم أكن أعلم بشأنك إلى أن وجدت اسمك في مذكرات بابا، أنت تعلم إنه مات أليس كذلك؟

الأفضل أن تدخلي كريستيانا. يقول وهو يستدير بكرسيه، فأدخل شقته بدلاً من أن أهرب.

باب غرفة المعيشة مفتوح على وسعه، أظن أنها الغرفة الوحيدة في الشقة. الأثاث من خشب داكن من عصر ما قبل الألواح. ثمة جهاز تليفزيون على طاولة واطئة وعلى طاولة أخرى في ركن الغرفة موقد كهربائي بشعلتين. الجدران مغطاة بلوحات بألوان صارخة وتكوينات ملتوية بطريقة غريبة. أجساد بشرية وحيوانية مشوهة وجذوع أشجار. تحمل جميعها حروفاً مكتوبة بنفس الخط المائل لليسار. تقبع عدة طيور جامدة بلا حراك في قفصين يتدليان من كلابة مثبتة في السقف. يتتبع نظرتي ويقول:

- «إنها محنطة كريستيانا». ثم يردف: «لقد أخبرتني أمي عنكِ». ثم يدفع كرسيه نحو الطاولة ويلتقط بعض الأوراق ويكومها ويلقي بها في سلة

القمامة. ربما كانت خطابات سيرسلها لي في ما بعد. ثم يقترح: «سأعد بعض الشاي».

أعرض أن أشغّل غلاية الماء.

- «لا. لا. أنا معتاد على فعل كل شيء بنفسي. لكن يمكنك جلب بعض الماء. الصنبور في الممر.

يناولني الغلاية وأخرج إلى الممر لجلب الماء. لا أعرف لماذا أنا هنا ولا عن ماذا سأتحدث معه.

حين أعود يسألني:

- «مِمَّ مات بابا؟».

- «ورم سرطاني».

- «وأنتِ طبيبة!».

أجيبه بما أقوله عادة حين تُذكر مهنتي:

- «مجرد نصف طبيبة».

- «أعرف. أخبرتني ماما. لكنني لم أر أبي قط». ثم يضيف: «لهذا لا تنزعجي لأنني لست حزيناً لموته. أظن أنك قضيت معه وقتاً أطول».

بالطبع قضيت معه وقتاً أطول، لكن ليس بالطريقة التي قد يفكر بها. مع ذلك ينتابني فجأة الشعور بالذنب نحوه. يقول:

- «أنا أيضاً أردت أن أكون طبيباً». ثم يشير لكرسيه: «لكن حدث لي هذا. فتخليت عن الفكرة».

- «كيف حدث هذا؟»

- «قفزت في النهر واصطدمت بصخرة».

- «أنا آسفة».

- «بدأت أرسم». يقول وهو يشير إلى اللوحات. «هذه كلها أعمالي».

- «عرفت أنها أعمالك. إنها... مثيرة».

- «كنت أصمم ألعاب أطفال لورشة تصنيع، ومنسوجات أيضاً، لكن

ليس بإمكاني الحصول على عمل هذه الأيام. عالم بشع مليء بالأوساخ. سيتخلصون عن قريب من المعوّقين في غرف غاز! لتوفير المال وتخفيض الضرائب عن الأصحّاء».

يعلو صوت صفير غلاية الماء. يدفع كرسيَّه صوبها، يضع بعض الشاي في مصفاة ويصب عليها الماء. الكوبان اللذان أحضرهما ضخمان وليسا نظيفين تماماً. لكن لماذا عليه أن يحتفظ بأكوابه نظيفة هنا؟

- «سكر أم رَم؟»

- «لا أتناول السكر».

يتجه صوب خزانة المطبخ ويُخرج منها زجاجة رَم. يصب بعضاً منها في كوبي ثم في كوبه. يصب لنفسه رَم أكثر من الشاي.

- «أنا آسفة لما حدث لك. هل لديك من يعتني بك؟».

- «أنا أعتني بنفسي». ألمح في صوته نبرة التصميم الشرس لبابا. «كانت ماما تعتني بي قبل موتها. هذه صورة لها هناك». يشير ناحية الطاولة التي تنتصب عليها صورة فوتوغرافية في إطار.

أنهض وأتجه إليها لأراها. المرأة في الصورة قد تكون في سني، ربما أصغر قليلاً، الصورة قديمة بالطبع، في وقت ما من أواخر الستينات، بالحكم استناداً إلى تصفيفة الشعر. أحدق في وجهها لكن لا شيء مثيراً فيه. لا أعرف ماذا أقول عن المرأة التي كان أبي يحبها في السر.

يقول أخي غير الشقيق:

- «كانت صاحبتي تزورني أيضاً. لكنها تزوجت ولديها أطفال الآن». ثم يضيف بسرعة: «لديّ أصدقاء آخرون، يمرون عليّ في زيارات من حين لآخر ويقومون لي بالخدمات الغريبة، لكن ليس لديهم وقت للعناية بي. لم يأت بابا أبداً، ولا حتى بعد الحادث. لقد حطّم حياتي وحياة أمي. لقد قفزت في هذه المياه فقط لأثبت أنني شخص مهم، حتى وإن كنت بلا أب. أحياناً تؤثر حركة واحدة بسيطة على مستقبلك كله». فرغ من شايه وبدأ يصب لنفسه رَم فقط.

إنه يُكئبني. أرشف شايي وأنا أفكر في حقيقة أن هذا الرجل أخي. يجب أن أشعر نحوه بشيء ما، لكنني أشك في قدرتي على هذا.

يقول فجأة:

- «تخيلتك مختلفة عن هذا».

- «كيف تخيلتني؟».

- «أقبح. على ما أظن»، يقول بصراحة غير متوقعة. «لديكِ ابنة إذاً؟».

- «نعم». لكنني لن أخبره بشيء عنها. لن أدعه يحشر أنفه في معاناتي، أو في أفراحي بالمنطق نفسه.

- «أحضريها لزيارتي في وقت ما».

ألزم الصمت.

- «هذا إن أردت زيارة أخيك المقعد مرة أخرى».

- «هذا ليس مهماً - أقصد الكرسي المتحرك. سآتي وقتما تريد، أو إن احتجت لشيء».

لا يقول نعم، لكنه لا يرفض أيضاً. يسألني:

- «كيف هو عملك؟ مرضى كثيرون؟»

أخبره أنهم بالقدر الذي يمكنني التعامل معه.

- «وتكسبين؟»

الأمر ليس مبالغ طائلة، بل ما يكفي للعيش.

- «كنت في حاجة لجسر»، يقول ثم يفتح فمه قليلاً وهو يشير له كأنه يعرض عمل طبيب آخر ثم يضيف: «وأراد طبيب أسناني خمسة عشر ألفاً. مقابل عمل يستغرق دقائق قليلة! وكان عليَّ أن أدخر المال لعامين لأدفع له».

أخبره إن أجري ليس باهظاً هكذا. إن جاء لي سأصنع له جسره مجّاناً. لا أخبره أن ذلك سيكون أفضل كثيراً من إرسال خطابات تهديد لي.

- «لم أكن أعرف كيف ستتقبلين الأمر. لم أكن أحد أفراد أسرتك. أليس كذلك؟»

- «لم نكن نعلم بشأنك».

- «اسمعي»، يقول الآن، «كان عليّ أن أحذرك منّي. أنا غريب الأطوار أحياناً. أتخيل أشياء غريبة. مثل أنني ديكتاتور عظيم. أو قائد معتقل للنساء. بين يديّ آلاف النساء بوسعي أن أفعل بهن ما أشاء. أتعرفين ما أعني؟ ما أشاء بكل ما في الكلمة من معنى: يمكنني أن آمرهن بخلع ملابسهن أو أعذبهن ليعترفن بجريمة، هكذا أتخيل الأمر كله».

- «أنت تقول هذا لتخيفني، وأنا بالفعل أشعر ببعض التوتر، مع أنه قرف أكثر منه توتر».

- «لا، إنها مجرد أشياء أتخيلها. أنا لم أؤذِ أحداً قط، ولا حتى ذبابة. ربما حدث لي شيء حين اصطدم رأسي بتلك الصخرة. تلف في المخ مثلاً. بحق السماء، قائد معتقل على كرسي متحرك، هذا غير معقول». يضحك باقتضاب ثم يردف: «لكنها مزحة رائعة في مسلسل رعب. هل تتخيلين هذا؟ القائد على كرسي متحرك يحمل بيده مذكى نار محمرٌّ من السخونة يسير نحو النساء العاريات اللواتي يقفن في صف طويل و..».

- «لا تستمر في المزيد من التفاصيل»، أوقفه، «لا أريد أن أسمع».

- «تظنينني مجنوناً أو منحرفاً أليس كذلك؟

أتذكر عمتي فيندا فأقول:

- «ربما كان وراثة، شيء ما في جينات عائلة بابا».

- «لم أكن أعرف هذا، ظننته كان طبيعياً أو على الأقل ليس مجنوناً».

- «لا، لم يكن مجنوناً. لكنه كان يعرف جيداً كيف يؤذي الآخرين. أنت من دون الجميع عرفت هذا بنفسك».

- «نعم. بالطبع عرفته. أتريدين المزيد من الشاي؟ أو بعضاً من هذا؟». يسأل وهو يرفع زجاجة الرَم.

- «لا. لا مزيد، شكراً. أردت فقط أن أكتشف أنك موجود حقاً. إذ لا شيء على وجه اليقين في مذكرات بابا».

- «واضح أنني أشبهه».

- «بالفعل. كثيراً».

«كنت أخشى هذا».

- «أفهم هذا». أقول وأنا أنهض.

يصحبني حتى الباب وحين أمد له يدي ألاحظ الدموع في عينيه. ربما كان متأثراً بالعثور على أخته غير الشقيقة بعد كل هذا العمر. لكنه كان يعلم بشأني من قبل؛ لقد عثر عليّ منذ وقت طويل. الأرجح أنه حزين لفقدان صورة عدوه التي كانت في خياله.

لا أستطيع وأنا أودعه، أن أكرر دعوتي له بأن يتصل بي إن احتاج لشيء. إنه يعرف عنواني جيداً على أية حال. لو لم يكن على الكرسي المتحرك لأخبرته أن لا يرسل لي المزيد من تلك الخطابات! لأعرّفه أني عَرفته. لكن أظن أنه لن يرسل المزيد منها على كل حال. سيجد منفذاً آخر لممارسة خيالاته السادية.

لا أعـود لمترو الأنفاق، بل أنطلق فـي الاتجاه المعاكس. لا أريد أن أكون بيـن الناس. ضفة النهر ليسـت بعيدة مـن هنا، لكن بيني وبينها مسـار ذو أربع حارات محاط بسـياج. أعبر الطريق وأغذّ السـير بجانب السـياج بسـرعة، مع ذلك يبدو السـياج كأنه بلا نهاية. تمر بي العربات مسـرعة. أعلى السـياج ثمة لوحات إعلانات بشـعارات تافهة، وأعلاها جميعاً سـديم ضارب للزرقة من دخان ساخن.

ها قد وجدت أخي الصغير، الذي يُسـيء لي لأن والدي لم يزره قط. أظن أنه تخيلني أقف عارية في معتقل التعذيب وهو يحرقني بمذكى نار محمرّ من السخونة لأنني استمتعت بحنان والده.

يجـب أن لا أغضـب منه. لقد ورث نفسـية أبي الخبيثة، وفـوق هذا وذاك نزلت به مصيبة أقعدته على كرسي متحرك.

أخيراً فجوة في السياج: طريق اسمنتي من أجزاء مركَّبة يعد بتوصيلي لمتجر ضخم، أبدأ رحلتي عليه وأجد نفسي فجأة في عالم مختلف - صامت - ينعطف الطريق حول جدران يستر اللبلاب تداعيها. ثمة إطارات سيارات عملاقة وأكياس بلاستيك وبراميل صدئة منثورة على الحواف هنا وهناك. أنا الوحيدة التي أسير في هذا الاتجاه، المستودع المجيد للمتجر مغلق، ربما لأننا عصر السبت، لكن الأرجح أنه لا يفتح أبداً، لأن لا أحد يتجوّل هنا. أمضي في سيري للأمام: لا صريخ ابن يومين. لكن يتناهى لسمعي من على بعد صوت صفارة قارب نهري، لعلني سأجد طريقاً إلى النهر رغم كل شيء. حريٌ بي أن أخاف، لكنني أشعر بنشوة، كأني أسير في حلم موحش؛ في الأحلام لا أخاف، أخاف فقط في الصحوة التامة. ينعطف الطريق بحدة حول بعض العوارض الحديد الطويلة المطعوجة وأجد في وجهي فجأة شيئاً ما مميزاً جداً. وسط مستودع قمامة، حيث ينتهي الطريق، ينتصب مبنى غريب: برجان يبدو أن قمتيهما قد تآكلتا بمهارة. كديناصورين متحجّرين برأسين متداخلين. يخطر لي أنهما ربما كانا خيمة معرض قديمة انتفخت بهواء ساخن، أو ديكور فيلم مهجور، لكنني حين أقترب أجده انهياراً اسمنتياً لجدران عملاقة، قد تكون أطلال مستودع عسكري شُيد قبل الحرب التي لا أتذكرها.

تنبعث من مستودع القمامة رائحة نتنة ويئزّ أعلاه سرب من الذباب. أسير حوله وتلتقط عيناي أخيراً مشهداً لفرع من نهر الفيلتافا، بتياره الكسول من مائه القذر. أسند ظهري على جذع صفصافة قديمة نصف ميتة وأحاول إشعال سيجارة بأصابعي المرتعشة. لا يوجد كائن حي. إن ظهر أحد قد يقتلني. يحلّق الموت هنا على الماء واليابسة بلا هوادة. أتخيل جانا تتعثر الخطو هنا في هذا المكان. أدرك فجأة أنني أفهمها؛ أفهم افتتانها بمخدرات تجعل العالم يبدو مختلفاً وربما أفضل، أو على الأقل أكثر قبولاً مما هو عليه حقاً.

3

اليوم الأحد، يمكنني أن أنام إلى وقت متأخر لكنني أستيقظ في الخامسة وأدرك أنني لن أعود إلى النوم مرة أخرى. يجثم هذا اللقاء مع من هو أخي وليس بأخي على صدري. ويبدو كأنني أدركت تماماً الآن فقط فظاعة ما حدث لجانا. أفكر فيها وأعود إلى الماضي لأنقّب عن اللحظة التي بدأ فيها سقوط ابنتي الصغيرة. إن كانت تلك اللحظة موجودة حقاً.

ربما كانت شقيقتي على حق في قولها إنني تصرفت بغباء حين طُلِّقت من زوجي الخائن. ربما كانت الأمور ستسير بشكل أفضل مع ابنتي الصغيرة لو كنت قد تحكّمت في نفسي وتصرفت كأنني لم أر شيئاً أو رأيت، لكنني على استعداد للانتظار بصبر حتى يعود جلالته لصوابه ويعود إليّ. أو ربما سارت للأسوأ، إذ كان قد بدأ يتصرف معي بوقاحة حتى أمامها، وكنت أحياناً أفقد أعصابي في البكاء أو في الشجار معه.

حين يذهب الحب، يذهب الرضا أيضاً. وكذلك التفاهم. لكن لماذا عجزت عن الاحتفاظ بهذا الحب؟

ومع ذلك كانت ابنتي الصغيرة بحاجة للحب. حاولت حين تركني كارل أن أمنحها هذا الحب، لكن مواصلة العطاء مستحيلة؛ أو استحالت عليّ أنا على الأقل. كانت ثمة لحظات حين تشتد وطأة وحدتي عليّ؛ فأشعر بالعطش وبرمال تنحسر من تحت قدميّ. كنت أتوق إلى رجل محب؛ كنت من فرط توقي له أحلم بعشاق يهمسون في أذني بكلمات رقيقة ويقبلون نهديّ ويدخلونني، وكنت أرتعش من النشوة في أحلامي. لكنني في الحقيقة لم أتعامل سوى مع رجل واحد وقد انتهى تعاملي معه على نحو مأساوي. بعد ذلك كنت أخشى الخيبة مرة أخرى؛ ماذا أتوقع من الرجال بعد هذا؟

مع ذلك أغواني الغرام مرة أخرى، أعلم أن لا مناص من الخيبة، لكنني أحاول أن لا أفكر فيها، أن لا أفكر في المستقبل.

تخيلت قبل أن أغفو الليلة الماضية من أغواني يتجول في مكان ما في الجبال. أخبرني أنهم مجموعة من الرجال، ربما كان صادقاً. كن لي يا عزيزي، توسلت إليه. كن لي ولا تتركني ولو إلى نهاية هذا الصيف فقط، مجرد جزء من طرفة عين للرب، لا تتركني.

كما قالت أمي، شيء ما ينقصني. بُعدٌ أعجز عن النظر إليه، باب أعجز عن فتحه. بابٌ أوصده أبي عليّ وأضاف عليه زوجي السابق والوحيد قفلاً آخر. ماذا خلف هذا الباب؟ ربّنا؟ حبٌّ ما لا ينتهي؟ كالحب بين البشر؟ سلام القلب؟ سلام الحياة بدلاً من سلام الموت الذي أراه في كثيرٍ من الأحيان المخرج الوحيد من اكتئابي؟ سمو النفس الذي قد يجعلني أترفّع عن كل الاضطرابات اليومية؟ فراغ قد يجعلني أستغرق في نفسي وروحي، شيء ما لم يكن لديّ أبداً لا الوقت ولا المكان لفعله؟ أم صوت الموسيقى؟ يبدو أن عزف الموسيقى يعينني على النظر إلى ما وراء معاناتي وهواجسي ويملأني بحنين للصلح. لكنني لا أبقى مع الموسيقى، بل أنفي نفسي عنها، وأقصى ما أفعله الآن أن أدندن بيني وبين نفسي بأغنية من حين لآخر أو أستمع بسلبية لما ألّفه وعزفه الآخرون.

ماذا لو ذهبت وزرت ابنتي الصغيرة؟ إنها ليست مخطئة لمحاولتها بطريقتها الخاصة تعويض نفسها عما تفتقده. المشكلة أنني، كمرجعية، أطمئنها أنها في الطريق الصحيح. إنها هي من تحقن السم في أوردتها، وأنا من أحمل الحقنة.

بدلاً من زيارة ابنتي، أول ما أفعله في الصباح هو أن أزور والدها. ماذا في ذهني عن التصالح؟

حين يفتح الباب لا تبدو عليه الدهشة لرؤيتي مرة أخرى. يخبرني بعد جلوسي في المقعد ذي الذراعين:

- «بالأمس حلمت بكِ».

- «كيف حالك؟».

- «ربما أفضل قليلاً. لقد زاد وزني حتى».
- «هذا جيد». أفضّ غلاف بقية كعكة الخوخ وأضعها في طبق غير مألوف لي. بقيت أطباقنا القديمة معي حتى وإن لم يبق هو. أسأله:
- «ماذا كان في الحلم بي؟».
- «حلمت أنكِ أمسكتيني متلبساً».
- «ماذا كنت تفعل؟» كأنني لا أعرف.
- «كنت مع فتاة. كنا ننام في غرفة فندق بستائر حمر وسجاد فارسي. كان المصعد معطلاً والسلالم مغلقة، وفكرت أنكِ هكذا لن تستطيعي الوصول إلينا، لكنك تسللتِ على سقالة».
- «أنا آسفة لإزعاجكما».
- «الغريب أنني بعد كل هذا العمر ما زلت أخاف من أن تمسكي بي».

لا أقول له أن ثمة ذنوباً تبقى عالقة في ذهن المرء حتى النهاية، بل أخبره أن جانا في مصحة للعلاج من الإدمان.

يُدهشه الأمر بشدة. فكرة أن ابنته في مصحة للعلاج من إدمان المخدرات ثقيلة عليه، الرياضي المربّي الذي ظل دائماً مثال الاعتدال وعدو كل الرذائل، ما عدا الخيانة.

- «أكان ذلك ضرورياً؟».
- «لا تظن أنني كنت سألقي بها هناك لمجرد المتعة أليس كذلك، لن أتركها هناك على كل حال، سآخذها خارج براغ».

يؤنّبني قائلاً:

- «تتخذين قرارات مهمة كهذه ولا يخطر لك مناقشتي فيها؟»

أحاول أن أوضح له أنه كان عليّ أن أتحرك بسرعة. وعلى كل حال فقد مضى وقت طويل منذ أن ناقشنا شأنها معاً. لقد فقد اهتمامه بها ولديه الآن شؤون أخرى تقلقه، بالإضافة إلى أنني لم أرد إزعاجه بعد جراحته.

ينهض ويذرع الخطى في الغرفة جيئةً وذهاباً. هذا ما تعوّد أن يفعله قبل أن يبدأ في تعسيفي.

- «هذه مجرد أعذار وتحاملات ضدي. بالطبع كان عليكِ أن تستشيريني. ما زلت والدها رغم كل شيء. ولديّ بعض الخبرة في هذه الأمور».

يعاودني الشعور القديم بالتردد والخوف. لقد قمت بخطأ ما. لقد أفسدت شيئاً ما. أنا مذنبة في عينيه الصارمتين.

يقول إنه كان كلما رأى جانا، خلال السنوات الماضية، يلاحظ كيف تزداد شبهاً بي شيئاً فشيئاً، لا بد أنها ورثت جيناتي وليس جيناته. يتذكر أنني كنت مثلها تماماً حين قابلني أول مرة. كنت أتسكع مع زمرة أصحاب في البارات لنشرب حتى نسكر، كانت المخدرات نادرة وقتها. لكنني لم يكن لدي أدنى حس بالنظام أو بالاحترام.

أشير إلى أنني تغيرت منذ ذلك الحين. لكن الحس بالاحترام من وجهة نظره أمر فطري.

- «خطأي أنني وُلدت من الأساس إذاً».

يطلب مني أن أتوقف عن التهكم ثم يبدأ في إلقاء محاضرة عن التربية السليمة للأطفال. يحدد بالطبع كل ما فشلت فيه، كلها أشياء أعلمها تمام العلم: لم أحب الطبخ، أضيق بالتسوّق، لا أدبّر أمر المال جيداً وأنفق الكثير على ملابسي، ناهيك عن التدخين أو المرات الكثيرة التي كنت أسهر فيها مع صديقات وأعود للبيت في مزاج عالٍ. ماذا ستظن بك ابنتنا الصغيرة؟ ما القدوة التي أمثلها لها؟

أحفظ هذا المحاضرات عن ظهر قلب. كم من مرّة سمعتها بشعور الندم حين كنّا نعيش معاً. كنت أحياناً أدافع عن نفسي وعن حقي في بعض الخصوصية، مساحة قليلة لي ولمن أختار إدخالهم فيها. لكنني مع ذلك لم أنتصر عليه أبداً، ودائماً شعرت ككلب جبان ضربه صاحبه بالسوط. حاولت أيضاً أن أقلل من التدخين، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، ربما لأنه إحدى المتع القليلة في حياتي.

يواصل زوجي السابق: «وفوق كل هذا فالقدوة الجيدة أهم بكثير جداً من أي قدر من الكلام أو الحظر أو الفرض.»

يجب أن استجمع شجاعتي. إذ رغم كل شيء لم أعد تحت إمرته بعد الآن. يجب أن لا أجبن أمام رجل هجرني وهرب مني ومن ابنته. ليتعامل كل منّا مع مشاكله بأفضل ما يستطيع.

لا أجادله مع ذلك، بل أنهض وأغادر الحجرة ببساطة وهو في منتصف تقريعه المطوّل.

يخطر لي وأنا في الشارع أنه على حق في شيء واحد: إنني تصرفت مثل جانا. لكنني نسيت أن ألقي بكعكة الخوخ على الأرض.

4

المشفى في بيت ريفي مبني من الخشب، المادة الأسوأ بشكل ما من ناحية القدرة على التحمل، يقف وحده على حافة مرج مرتفع. الدرب الذي يقود إليه ضيّق جداً بحيث لو تقابلت سيارتان لن تمر واحدة منهما. نوقف السيارة أمام البوابة الخارجية مباشرة. تختلس النظر نحونا من البيت فتاة غجرية صغيرة ثم تختفي. ثمة حظيرة بجوار البيت، وفي المسافة بينهما يتحرك البط والدجاج هنا وهناك. نسمع قباع الخنازير الجائعة من زريبة قريبة.

تسألني شقيقتي:

- «الجو جميل، ما رأيك؟».

أقول بحرص:

- «الريف بديع، وفي الصيف على نحو خاص».

يستقبلنا المُعالِج في مكتبه الخالي من أي شيء ما خلا طاولة وكرسي وخزانة ملفات، وعلى الحائط صورة لسيجموند فرويد وصورة مطبوعة بالألوان لقديس ما أو آخر. لكل من فرويد والقديس والمعالج لُحى مطلقة،

لكـن الأخير له شـعرٌ أسـود خفيـف، وخلافاً لفرويـد والقديـس يرتدي تي - شـيرت عليه شـعار جمعيـة الشـبان المسـيحيين. يتعامل هو وليدا بالأسـماء الأولى. تناديه راديك.

يطلب مني أن أخبره عن جانا بالتفصيل. أبذل جهداً لأمدّه بكل التفاصيل، بمـا فـي ذلك تلك التي تُشْـعِرني بالعـار، وهي أن ابنتي كمـا يتضح لم تكذب عليّ فحسب بل سرقت منيّ أيضاً.

ثـم يريـد أن يعرف إن كان أحـد أفراد أسـرتنا يتعاطى مخـدرات أو مدمناً بطريقة ما أو أخرى.

أعتـرف لـه أنني أدخن وأشـرب نبيذاً يوميـاً لكن باعتدال مـع ذلك. كنت أسـكر أحيانـاً في صغـري، لكن هذا منذ وقـت طويل حقاً. لكـن والدها، من الناحيـة الأخـرى، مثـال الاحتـرام. أنا مقارنـة به أدمّـر صحتي وقـد اعتاد أن ينتقدني لهذا.

يسـجل ملاحظات في دفتره وهو يومئ برأسه من حين لآخر كأنما ليقول، نعـم، هكـذا الأمر دائماً. لكنه فـي الواقع لا يتفوه بشـيء ويدعوني فقط لرؤية البيت.

منـزل فسـيح ومتقشـف. يبـدو كل مـا فيه رثـاً، من الـوارد جـداً أن يكون الأثـاث من أحـد مخازن الخردة أو يعود لأشـخاص ماتوا. ألاحظ بعض أطر النوافـذ المكسـورة أو المدمرة. لكن في ما عدا هـذا، البيت نظيف - مازالت الأرضية رطبة بعد مسـحها. ولا توجد فوضى. لكنني أهتم أكثر بالناس الذين سـتخالطهم جانا هنا وليس بالأشـياء. مع ذلك كيـف يمكن لأحد الحكم من أول زيارة؟ شـاب- قد يكون في العشرين من عمره- يطحن شيئاً ما في رحىً عتيقـة، آخـر ينقل روثـاً في عربة يدويـة، الغجرية الصغيرة تُقطّع الخشـب مع شـاب آخـر. يذكرونني لوهلة بالأهداف في صالة رمايـة، ما عدا أنهم يرتدون جميعاً سراويل جينز وتي شيرتات.

فـي المطبخ فتاتان تحضران العشـاء. ثم نذهب لنـرى إحدى غرف النوم.

فيها ثلاثة أسرة، تجلس على أحدها شابة لها ملامح مسلولة تدخن؛ لا يبدو أنها لاحظت وجودنا. يسألها المعالج:

- «كيف حالك مونيكا؟».

تجيبه من دون أن تنظر إليه:

- «لا أريد مواصلة العيش».

يعدها:

- «ستجتازين الأمر، وسنتحدث بشأنه هذا المساء».

يخبرنا حين نترك الغرفة:

- «لم تقض هنا سوى أسبوعين فقط». كأنه يعتذر عن وجود شخص في المكان لا يرغب في مواصلة العيش. لا داعي ليعتذر لي أنا التي أشعر بهذا أحياناً كثيرة جداً حتى إنني أندهش أحياناً من أنني على قيد الحياة.

حين نعود لمكتبه يخبرني المعالج أن بوسع جانا المجيء إلى هنا إن شئنا، لكن يجب أن يكون القرار قرارها وحدها. لا أحد سيجبرها على الإقامة هنا. يقول:

- «نحن نعقد جلسات العلاج الجماعي يومياً، وكجزء من العلاج على الجميع أن يعمل. ثم حين تتحسن أحوالهم يمكنهم حينها الذهاب إلى المدرسة، لكنها على مسافة ليست بالقصيرة من هنا، ويصعب الذهاب إليها في الشتاء». يحذّرني من أن النظام صارم. المخدرات محظورة بالطبع، والخمر والجنس غير مسموح بهما أيضاً. ويمكنهم تلقي سجائر إن كانوا يدخنون. في البداية يجب أن يمكثوا هنا؛ لا نسمح خلال الشهر الأول لا بالمكالمات ولا الزيارات. وعلى من يخرق القواعد، أو يجد النظام قاسياً للغاية أن يترك البيت، كذلك لو حاول أحد الهرب عليه أن يترك البيت. والأحوال هنا قاسية في غالب الأوقات، لا سيما في الشتاء». يُذكِّر مرة أخرى بصعوبة الشتاء.

أعلّق على كلامه آملة أن يوافقني:

- «ما زال الشتاء بعيداً».

- «ليس بعيداً كما تظنين». ثم يضيف كأنما ليدمّر أية آمال زائفة قد تراودني: «مما أخبرتني به عن جانا، لا أظنها ستعود للبيت قبل الشتاء. معافاة، أعني. عليك بالطبع أن تتدبري أمر تأخرها عن الدراسة». ثم يواصل ليوضح أن نصف من استكملوا فترة العلاج لم يعودوا لتعاطي المخدرات بعدها أبداً. في النهاية يخبرني بمبلغ مساهمتي الشهرية. ثمة أشياء أخرى كثيرة جداً أود السؤال عنها لكنه يعتذر لأن جلسة العلاج الجماعي يجب أن تبدأ خلال وقت قصير ولن يسعه دعوتنا لحضورها، لسوء الحظ. لكن حتى وإن بقيت هنا لوقت أطول، بماذا سيخبرني غير ما أخبرني به؟ كل شيء يعتمد على جانا. لا يسعني تخيلها تقطع الخشب أو تنظف روث الخنازير، لقد دللتها كثيراً لتقوم بهذا.

في طريق العودة نتوقف عند بار في قرية. تطلب ليدا خبزاً وجبناً فقط، في حين أطلب أنا صحن حساء «جلاش». أنا أتضور جوعاً ولم آكل شيئاً منذ الصباح، وقبل هذا وذاك تتقلص أمعائي لفكرة أخذ جانا للبرية النائية حيث لن يمكنني زيارتها حتى.

تقول لي شقيقتي:

- «لا تقلقي. سيساعدها، إنه ممتاز. لأنه يعلم كيف يجد السبب، وهذا هو المفتاح الرئيسي». ثم تتردد لحظة قبل أن تضيف: «لقد ساعدني أنا أيضاً».

- «أنتِ؟».

- «مندهشة؟».

- «لم ألحظ أدنى شيء».

- «كان ذلك منذ ثماني سنوات، وكنت أُعالج كمريضة خارجية. لم أخبرك ولم أخبر العجوزين كذلك. لم يكن الأمر من شأنكم: كان شأني أنا. شأني أنا قبل كل شيء».

بودي أن أسألها ماذا كانت تتعاطى. لكن ذلك سيشعرني أنني أنصب لها فخّاً. فأسألها فقط: «وما السبب الذي وجده؟».

- «الفراغ. اليأس والفراغ».

- «لم يكن ليخطر لي شيء كهذا قط».

- «لإنك دائماً ما ظننتني مغرورة. لكن ذلك لم يكن سوى قناع أضعه أمامكم. لقد سافرت حول العالم مع فرقتي الموسيقية وأصدرت عدة أسطوانات، لكن ثمة الآلاف من الفرق الموسيقية الشبيهة وملايين الأسطوانات. سواء اشترى أحدهم أسطواناتك أم لا فذلك لا يغير شيئاً، لأنهم جميعاً سينسونها خلال عام واحد على الأقل. لا شيء أسوأ من المشاركة في أعمال فنية لا يعنى الناس بها قيد شعرة». ثم تضيف أنها تحسدني على عملي لأنه يحمل بعض أهمية - المساهمة في تخفيف آلام البشر - في حين كل ما تفعله هي هو الإضافة للضجّة التي تحيط بنا من كل حدب وصوب. يصفّق الناس لها، لكنهم يصفقون لكل من يساعدهم على التوقف عن التفكير للحظة في الحياة التي يعيشونها.

- «لم ألحظ أدنى شيء. لم يخطر ببالي شيء كهذا قط».

- «نحن نعلم القليل جداً واحدتنا عن الأخرى؛ نحن الاثنتين منهمكتان في متاعبنا وكل منا تضع قناعاً أمام الأخرى».

يخطر لي أن أسأل:

- «وكيف ساعدِك؟».

- «ساعدني في إدراك شعوري الحقيقي. وفي التصالح مع الواقع. أن أتوقف عن النظر لما وراء الأفق والمبالغة في تقدير قواي».

- «وهل أنتِ بخير الآن؟».

- «هذا يتوقف على ماذا تعنين. لم أعد نهِمة. أسكر بين الحين والآخر مع أصحابي، ثم تأتي لحظات، كمثل تلك التي تلي الحفلات، حيث أبدأ في البكاء بدلاً من الشعور بالسعادة. أظل أبكي حتى تتورم عيناي ثم تنتابني

الحازوقة. وثمة لحظات أخرى أذهب إلى بوتيك ما وأشتري حمولات من ملابس لا أحتاجها وينتهي بي الأمر لوهبها كلها لآخرين. لكن في ما عدا هذا أنا بخير.

أقِلُّ شقيقتي إلى بيتها. ونحن نقول وداعاً. نتعانق للمرة الأولى خلال سنوات.

5

رأينا سنّوراً برياً، وفي السماء طير جارح عرفت أنه صقر، لكن جيركا أصر أنه نسر، أيدتني فيرا، في حين أيّد الباقون جيركا لأنه يعمل في الإذاعة، الجميع يعتبر أن مذيعي الراديو لا يخطئون، مع أن العكس هو الصحيح.

كان بإمكاني الجدال لأنني طالما راقبت الصقور أنا وأبي، لكنني لم أشعر برغبة في إثبات وجهة نظري بشأن طير جارح.

ظللنا نصعد حوالى عشرين كيلومتراً يومياً. كان بوسعنا زيادة هذا المعدل لكن الدرب كان مرهقاً على نحو لا بأس به: يمر بوديان ضيقة وسلالم علوية أحياناً أو درجات حجرية شديدة الانحدار، وكان على جيركا أن يصعد بقنطار دهنه الزائد بالإضافة إلى حقيبة ظهر ثقيلة.

أظن أننا سنتصبّب عرقاً عند القمة لكن هنا في بطن الجبل بالأسفل لا تصلنا الشمس إلا نادراً والليل قارس البرودة حقاً.

لم أعد أتحدث مع فيرا أكثر من الباقين. ساعدتها ذات مرة على حمل حقيبتها حين كنا نصعد سلماً، ومددت لها يدي حين كنا نعبر جدولاً تياره سريع. في كل مرة تبعث لمسة يدها القشعريرة في جسدي؛ حين كنا نجلس في السينما أو في المسرح كنا دائماً نمسك أيدينا وكذلك حين كنت أزورها في مساكن الطلبة، حيث نكون وحدنا. كنا نشبك أصابعنا وكنت أحس بنبض دمها - كان ذلك استهلالاً لطيفاً لممارسة الحب.

حين تذهب ليلاً إلى خيمتها وحيدة أحاول أن لا أفكر في ممارسة الحب معها وأن لا أتخيل أننا نتعانق عاريين. ربما كانت تتوقع مني اللحاق بها. أعتقد أنها لن تطردني إن ذهبت. حاولت أن أفكر في كريستيانا، لكنها بدت بعيدة للغاية، إنها تسكن في العالم الآخر، عالم العمل والقضايا المهمة، عالم المديرين ورؤساء الأقسام ومأموري الشرطة والمؤتمرين بأمرهم، ناهيك عن محاضر الاتهامات - حيث ما زال الأوغاد أولاد الكذا والكيت الذين حرروها يتجولون هنا وهناك مستمتعين بإفلاتهم من العقوبة.

هنا نسير في دروب مهجورة. حين نعثر على طريق خارج الغابة، نتحمم في الشمس بجذوع عارية على النجيلة، نطهو طعامنا على النار في الهواء الطلق، نغني بعد الأكل، وحين يهبط المساء ننصب خيامنا، يرتبط البشر ببعضهم البعض حين يتشاركون شيئاً ما بحكم العادة. لقد أدركت أنه حتى المعاناة والظلم يربطان الناس بعضهم ببعض أكثر من رتابة الخمول السلمي.

هذا ما أخشاه - أكره أن أعيش هكذا؛ يثيرني كل ما يبدو متميزاً أو غريب الأطوار حتى. لهذا كنت مغرماً بالأفاعي السامة وسيَر أشخاص مثل هتلر وستالين. كانت أقدارهما محبوكة جيداً. تسلّق كلٌ منهما جبالاً تختفي قممها بين الغيوم، فيما سفوحها مغرقة بدماء، سقط كل منهما فيها في نهاية المطاف.

أنا لا أطمح لبلوغ قمم تصل إلى السماء لأن السقوط منها يكون مميتاً في العادة. لم أكن لأظل على القمة ولو للحظة واحدة حتى؛ لأنها دائماً موحشة. لقد تركوا ستالين راقداً على الأرض في سكرات موته لساعات لأنهم خافوا صعود القمة التي لم يزل يتربع عليها، في حين كان متمدداً على الأرض في بركة بوله. كان عدوه اللدود وتابعه في دربه كذلك قد سقط قبله حتى، سقط في غرفة محصّنة تحت الأرض مباشرة، حيث أطلق تابعوه عليه النار لئلا يُحاكم. لم يحظ حتى بالجنازة التي كان سيحضرها الملايين ممن كانوا يُبجّلون نصره. خاتمة تليق بالعمل[1].

(1) باللاتينية في الأصل..

المصير الوحيد الذي قد أطمح إليه أن أرتفع فوق مستوى المتوسط وفوق الفـراغ الذي يغمز لي الموت منه. المشـكلة أننـي لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل لأحقق هذا، ينتهي بي الأمر في العادة بأضغاث الأحلام.

مع مرور كل دقيقة عليّ هنا أشـعر أنني أبتعد شـيئاً فشـيئاً عـن الحياة التي كنت أعيشـها. شـعرت خلال الأيام القليلة الماضية أن ذهني قد صفا إلى حد مـا؛ صـار بإمكاني أخيراً أن أرى الخطوط العريضـة لكل ما مضى من حياتي. حتى إنني صرت قادراً على رؤية الخطوط العريضة لما هو آتٍ أيضاً.

أدركـت أن عملـي يسـمّم نفسـيتي. يجبرنـي علـى الاهتمـام بالتعاملات الخسيسـة للماضـي إلى حد أنني صرت عاجزاً عن رؤية أي شـيء آخر. لكل منا صلاته بها، سواء بشكل شخصي أو عن طريق أبويه. ينتابني الشعور بأنه - مثلما في سدوم[1]- لن يوجد في المدينة عشر رجال عادلين.

حاولـت قبل أن أغادر براغ أن أستكشـف طالع المدينـة للقرن الآتي. تنبأ الطالع بسـقوطها عام 2006. حاولت أن أكتشف هل سيكون سقوطها بسبب حـرب أم فيضان أم شـيء من أعلـى - مع أن الماء أيضاً يأتـي من أعلى. لكن مـا يفاجئني الآن أن الأمر لا يحتاج لمثل هذه الكوارث التي تدمر الأبنية، فقد يكون السقوط انهياراً أخلاقياً.

حيـن ذهبت إلى خيمتي فـي اليوم الخامس لتجوالنا لـم أسـتطع النوم. بدا أننـي تحـت سـيطرة هياج يتعذر شـرحه، نذير بأن شـيئاً ما حتميًّا على وشـك الحدوث.

ارتفعت طية خيمتي فجأة ولمحت فيرا في الضوء الخافت للقمر.

- «أهذا أنتِ؟» سألتها بالطريقة التي اعتدت أن أسألها بها حين كنا نمارس الحب، لكن السؤال اتخذ معنى جديداً الآن.

همست:

---

(1) مدينة قوم لوط.

- «إنه أنا، إن لم يذهب ميكي ماوس للجبل سيأتي الجبل لميكي ماوس».

- «لديّ الكثير من الجبال هنا». لكنها انزلقت بسرعة من بدلتها الرياضية ورقدت بجانبي.

كان القمر ساطعاً فانثال شعاع من ضوء شاحب علينا من نسيج الخيمة. كان بوسعي سماع خرير الجدول وصياح طائر ما بالقرب منا أو حتى إعلاناً مباشراً، مارسنا الحب وظلّت تتأوه كما لم تتأوه من قبل قط؛ لا أدري ما إذا كان تأوهها لذة أم نصراً أم حزناً.

- «هل تحبني؟»، أرادت أن تعرف. «قل لي إنك ما زلت تحبني».

لكنني بقيت صامتاً.

دفعتني بعيداً عنها فجأة وأخذت ترتدي ملابسها. خرجت معها من الخيمة. كانت النجوم تلمع فوقنا وبدا لي لمعانها غير طبيعي على نحو ما.

- «أنا آسف. لكن ليس من المعقول أن نعيد الكرّة. لن يثمر ذلك شيئاً».

أجابتني بعنف:

- «من أخبرك أني أردت إعادة أي كرّة؟ فقط أردت أن أعرف هل كنت ستأتيني زاحفاً إن أنا أردت».

- «لكنني لم آتيك زاحفاً، أليس كذلك؟».

- «أوه، لا؟ وتجرؤ على قول هذا في وجهي بعد ما فعلته لتوّك. أنت نذل ومقرف وكاذب ومتوحش».

ربما كانت على حق. يخطر لي أنني ظللت طوال الوقت في انتظار مجيئها لنمارس الحب.

في الفترة التي كنت أجاهد فيها لأصير مفسّراً للتاريخ، قرأت ذات مرة بعض أساطير من القرون الوسطى تتحدث عن الزهد المادي. كان هؤلاء الزاهدين يستغنون عن الملكية والطعام والشراب وبالطبع ما يسمونه الحب الجنسي أيضاً - الذي اعتبره مؤلفو الأساطير منبع الخطيئة الأصلية. بلغوا في رفضهم للرغبة الجسدية حداً اعتبروا معه أن أفضل الأزواج هم الذين يظلّون عذارى حتى مماتهم. نفاق هؤلاء المؤلفين يثير اشمئزازي. يهزأون بالرغبات

الجسدية التي لولاها لم يكونوا ليولدوا من الأساس. لكنْ ثمة شيء واحد أقرّ به لهم: إدراكهم بأن على المرء التركيز على شيء ما فوق مستوى تلك الرغبات وتحمل مسؤوليته عن تصرفاته وأعماله.

استدرت وعدت أدراجي إلى خيمتي. رقدت مجدداً وحاولت التفكير في أي شيء لطيف حدث لي في الماضي أو التطلع لحدوثه في المستقبل، لكن لم يرد على ذهني شيء كهذا.

توقفنا في الصباح التالي في بلدة روزنافا. سرعان ما تفرقنا وانطلق كل منا في الطريق الذي يعنّ له. تجولت في الشوارع والأزقة الحارقة حيث لم يكن سوى علامات قليلة على الحياة في الصباح المبكر الحار، أطفال نصف عراة، أو كلب بلسان متدل، يركضون هنا وهناك. محل حلوى ناء يعرض مثلجات إيطالية لكنني انجذبت أكثر للافتة محل قريب تعلن عن خدمات قراءة الطالع.

سمعت حين فتحت بابه أصوات عدة أجراس ترن معاً، لكن لم يظهر أحد ما عدا قِط فارسي بلون القرفة. قفز على المنضدة وحدق فيّ بعينيه الصفراوين الوحشيتين. تتدلى من السقف باقة أعشاب مجففة تملأ المكان برائحة توابل.

أخيراً صرّ باب في خلفية المحل وظهرت امرأة مبتسمة في عباءة بنفسجية طويلة. حتى ولو لم تعلن لافتة المحل ذلك، كنت سأتوقع أن يكون لها بعض الخبرة في أعمال السحر. تسألني:

- «أتود قراءة طالعك أيها الشاب؟»

لها شعر أسود طويل غير مصفف وعينان هنديتان داكنتان، وتحيط عنقها بسلسلة ثقيلة بدا أنها من الذهب مثل الأساور في معصميها الأسمرين.

سألتها كيف تقرئين الطالع؟ فقالت لي إنه وحي من الرب. يمكنها أن تنظر في راحة كفي لكن ذلك ليس ضرورياً. على كل حال سيكون عليها أن تنظر في هالتي أولاً قبل أن تكشف الحجُب عن مستقبلي. تومئ لي أن أتبعها إلى ظُلّة في حديقة حيث يقبع مقعدان بذراعين باليين وطاولة صغيرة منثور عليها قليل من زهور جافة. فاجأتني برودة المكان المذهلة.

أشارت لي بالجلوس على أحد المقعدين وجلست على المقعد المقابل لها. طلبت مني أن أضع يديّ على الطاولة براحتيها لأعلى، وأن أتوقف عن التفكير في أي شيء آخر، وأن أنظر صوبها. أمسكَت يدي للحظة لكن لم يبدو أنها تركز فيها. سألتني إن كنت أريد معرفة الحسن والسيئ على حد سواء فأومأت لها أن نعم. تركت يدي، حدّقت فيّ ثم غمغمت بشيء ما غير مفهوم. ثم قالت لي إن هالتي تتضح تدريجياً وأنني انبثق منها وأطفو لأعلى. بوسعها أن ترى أنني رجل صالح ذو قدرات كثيرة، لكنني مررت بأحزان كثيرة. تراني أبكي على تابوت وحول ساقي تتلوى أفاعٍ لكنني مطمئن أنها لن تلدغني.

- «ستعيش حياة طويلة أيها السيد الشاب والمرض الذي سيصيبك لن يكون خطيراً. أرى شرراً يتطاير من أطراف أصابعك، لابد أنك لامست بها بشراً كثيرين. احترس. احترس جيداً وإلا ستحرقك نار يدك».

تسلل القط بهدوء وقفز في حِجر المرأة التي بدا أنها لم تلاحظه وبدا جلياً أن تركيزها كله مُنصبّ على الرؤى التي تراها أمامها والتي تصفها لي. يُبهرني تركيزها وكذلك كونها لم تحاول خداعي بأدوات خارجية مثل ورق «كوتشينة» أو كرة كريستال.

تواصل كلامها معلنة أنها ترى عقبات كثيرة في طريقي في المستقبل القريب: عقبات صلبة وقوية، لكنني لن أتغلب عليها، بل سألتف حولها، سأصعد على مركبة ستأخذني إلى مرتفعات ملَكية ولن يستطيع عدو لي النيل مني. أخبرتني أن لديّ أصدقاء كثيرين، وأن صديقاً واحداً فقط على وجه الخصوص يتسم بالقوة والعطف سيقف إلى جانبي. وستمر بي الكارثة التي ستحل بجميع المدن مرور الكرام من دون أن يصيبني أذى.

أردت أن أسألها أي كارثة تعني، لكنني خشيت مقاطعة تدفق سيل رؤاها. واصلت تقول:

- «أرى امرأة أيضاً. أكبر منك سناً، بعيدة عن هنا للغاية وتنتظرك. لكنها ليست والدتك، نعم إنها تنتظرك لأنها في خطر. خطر محدق يمكنك أنت

إنقاذهـا منه. وسـيكون أجرك عن هذا عظيمـاً». تصمت ثم ترفـع يديها كأنها تمنحني البركة. ثم تنهض.

أعطيها مائتي كرونة وأخرج إلى النهار الحار الذي يعميني سطوعه.

في نوبـة قلق مفاجئة حاولت الاتصال بكريسـتيانا من مكتـب البريد لكن الاتصـال لا يفلح. حين ألتقي بالآخرين أخبرهـم أن عليّ العودة إلى براغ في القطار القادم. بالطبع ظنّت فيرا أنني أهرب منها، لكنني لم أكترث بما تظنه.

في القطار يزداد قلقي. أعرف أن ثمة مجهولاً يرسـل لكريسـتيانا خطابات تهديـد. وثمة احتمـال آخر أن أحدهم يخشـى الاعتداء عليّ مباشـرة فيعتدي عليها هي كوسـيلة لإرهابي.. فكرت في رقة كريسـتيانا، وفي أنها ليسـت رقة بقدر ما هي ضعف. يمكن لأي أحد أن يؤذيها. ثمة أشـخاص يؤذون البشر ما إن يكتشفوا أنهم ضعفاء.

كانت ثمة أوقات حين كانوا يبجّلون الضحايا بوصفهم شهداء، هذه الأيام يميلون لتبجيل الجلادين.

اتصلت بها ما إن وصلت براغ من أول كابينة هاتف أمام المحطة وسـألتها إن كان كل شيء بخير.

قالت إن كل شـيء كذلك وإنها سـعيدة لأنني لم أنسـها بعد. تود أن تراني لكنهـا وجانا على وشـك الخروج. سـتقلّها إلى مركز علاج آخر على مسـافة بعيـدة مـن بـراغ، لم تكـن متأكدة مـن اسـتطاعتها العودة فـي المسـاء، لكنها بالتأكيد سـتكون فـي البيت غداً. بوسـعي أن أذهب وأمكث معهـا هناك الآن وقد صارت وحدها.

سـألتها إن لم يكن عليّ أن أسـافر معهـا. ترددَت لحظة ثـم قالت إن ذلك ليس ضرورياً.

كان علـيَّ أن أوضـح لها أنها في خطـر وأصرّ على السـفر معها. لكنني لا

أعلم ما إذا كان خطراً محدقاً أم لا. بحسب ما يقول نوستر داموس الشهير « في المستقبل المجهول كل شيء حقيقة »[1].

شعرت بالندم لقطعي إجازتي من أجلها في حين بدا أنها ليست في عجلة لرؤيتي، وأخبرتها أنني قد لا أستطيع رؤيتها غداً لكنني بالتأكيد سأتصل بها.

6

يقترب الصيف من نهايته ببطء. خلت أشجار الليمون المقابلة لبيت أمي من الزهور بالفعل، وحطّت عليّ كآبة الخريف قبل الأوان، وكذلك الضجر. وصلت جانا إلى المكان النائي الذي لا يجب أن أزورها فيه لشهر كامل، وحتى مراسلتها بالخطابات لا تُعدّ فكرة جيدة.

بوسعي الآن أخذ إجازتي، لكنني أشعر فجأة بعدم الرغبة في الذهاب لأي مكان وحدي. تحدّث جان عن سفرنا معاً، لكننا إلى اليوم لم نخرج معاً حتى. أعتقد أن شيئاً ما يشغل باله إذ قلّ اتصاله بي. يقول إن لديه عمل كثير، عليه أن ينظر في أكبر عدد ممكن من الملفات قبل فصله عن العمل أو منعه من الوصول إلى الملفات السرية للغاية. لا أحاول محادثته في الأمر: أخشى قليلاً وجودنا معاً طوال الوقت؛ لأنه يزخر بالقوة وأنا أربعينية مرهقة. بالإضافة إلى تعوّدي على حالة عدم وجود رجل حولي طوال الوقت.

يخطر لي في إحدى الليالي أن أسأله عن أصحابه الذين سافر معهم إلى سلوفاكيا ولماذا لم يخبرني سوى بالقليل عنهم. سألته كما لو كنت أسأله كيف قضى يومه أو ماذا يقرأ حالياً أو إن كان يعرف نكتة جديدة. لكنني لاحظت أن السؤال لم يسرّه. يريد أن يعرف لماذا أسأل.

– «لأنني مهتمة بك بالطبع».

---

(1) باللاتينية في الأصل.

يقول إنهم من كانوا في اللعبة التي دعاني إليها حينذاك. ولم يخبرني عن الرحلة لأنه يعتقد أن الحديث عن السفر لا جدوى منه. يستحيل وصف الطبيعة إلا في الشِعر وهو ليس بشاعر. لا جدوى أيضاً من الحديث عن ناس لا أعرفهم. قال إنه حين حدث شيء مهم، كنبوءة قارئة الطالع، أخبرني بكل ما قرأته في طالعه، وإنه ما إن عاد امّحت الأشياء غير المهمة من ذاكرته. أتذكر أنه وصف لي ذات مرة كيف يتصرّف من ينكرون شيئاً في ضميرهم حين يستجوبهم زملاؤه في العمل. كيف يسهبون في شرح مطول لتبرير عدم تذكرهم أي شيء.

ينتابني قلق مفاجئ:

- «كانت ذات الساقين الطويلتين - تلك التي كنت تخرج معها - هناك إذاً؟».

يتردّد لحظة قبل أن يجيب، كأنه يفكر في أي إجابة يعطيني، أو حتى في ما إن كنت أعرف شيئاً أو أرتاب في شيء. ثم يجيب بأنها «كانت هناك أيضاً».

الوقت متأخر ولا بد أن ننام. مارسنا الحب منذ وقت قصير؛ كان رقيقاً معي. عليّ أن أهدأ وأكفّ عن طرح الأسئلة. لكنني أعجز عن فك شِباك القلق التي وقعت فيها. أسأله:

- «لم تحاول أغواءك؟».

يظل صامتاً قليلاً ثم يجيب بسؤال:

- «لماذا ستحاول إغوائي؟ لقد انفصلنا، أليس كذلك؟». يعتدل في جلسته وينهض من الفراش.

- «إلى أين ستذهب؟».

- «أشعر بالعطش».

يذهب للمطبخ. لا يمكنني الانتظار. أرتدي روبي وأذهب في إثره. يصب نبيذاً في كأسين.

- «هل ستشرب معي نبيذاً؟»

- «نعم. أرغب في بعضه».
- «لكنك لم تُجبني بعد».
- «أنا لا أفهم لماذا تريدين أن تعرفي الآن، فجأة».
- «الآن أو في أي وقت آخر».
يذكّرني:
- «لكنني سألتك وقتها إن كان بإمكانك المجيء معي».
- «لكنني لم أستطع». ثم تبزغ الفكرة في رأسي فجأة: «هل أردتني معك لحمايتك من صاحبتك السابقة؟»
- «لست بحاجة لحماية. أنا أحبك. أليس كذلك. لهذا أردت أن تأتي معي».
ما زال يتحاشى السؤال. فأجيب أنا نيابة عنه:
- «لكنكم كنتم ليلاً وكان الآخرون جميعاً نائمين وهي من جاءت إلى خيمتك».
أرى بوضوح أنني أفقدته صوابه:
- «إن كانت قد اتصلت بك وسممت أفكارك فلا تصدقيها».
- «لم تتصل بي. ولم يسمم أحد أفكاري. إنه خيالي. لو لم يكن حدث شيء لكنت أخبرتني منذ وقت طويل أنها أيضاً كانت معكم».
لا يقول شيئاً؛ لا يعارضني. لا يعترف بشيء ولا ينكر شيئاً. ليس بكاذب ولا يعرف كيف يكون مخلصاً أيضاً، مثله مثل كل الرجال. أقول له:
- «ها أنت ذا، لست بحاجة لقارئة طالع لتقول لي ماذا حدث ولا أي خطر يحدق بي».
- «أنا أحبك. لم أتوقف عن حبك للحظة».
- «ولا حتى حين كانت الأخرى بين ذراعيك؟»
لا يقول شيئاً. ثم يحاول شرح الأمر لي: ظلا يخرجان معاً لعامين تقريباً.

لـم يـرد أن يجرحها. ومع ذلـك فقد جرحها فعلاً لأنه أخبرهـا بعد ذلك أنه لا يريد أن يكون له أي علاقة بها بعد الآن.

- «لأن لديك كريستيانا الآن». أُكمل له فكرته. «لا حاجة بك لشرح شيء لـي. أنا سـعيدة لأنـك تخاف على شـعور صاحبتك السـابقة. هـذا يعني أنك ستخاف على شعوري بالمثل».

يكرر قوله إنه يحبني وما من أحد آخر. يحاول أن يشرح لي أن ثمة مواقف يفعـل فيها المرء أشـياء لـم يكـن ينوي فعلها وما إن يفعلها حتى يشـعر بالندم. يطلب مني أن أفهم هذا.

أخبره أن بوسـعي فهم كل شـيء - علّمتني الحياة هذا - لكن هذا لا يعني أن أقبـل بكل شـيء أو أن أتصالح مع كل شـيء. أنا أكره الخيانـة. طُلِّقت مرة بسببها وحرمت جانا من بيت فيه أب.

يسألني باستياء إن كان عليه أن يركع على ركبتيه ويطلب الغفران.

أخبره أنني لا أحب الرجال الذين يركعون، وأكثر منهم الذين يسألون عما يجب عليهم أن يفعلوه.

أشعر بحيرة ولدي الصغير - هل يشعر بالإهانة أم ينفجر بالبكاء. إنه ليس بـكاذب ولا يعـرف كيف يكـون مخلصاً. الأرجـح أنه الآن يشـعر بالندم لأنه لم يكذب. لكنه سـرعان ما سـيتعلم كيف يكذب. لعل عليّ أن أسـعد لأنه لا يعرف حتى الآن كيف يكذب - لكنني في هذه اللحظة لا أشـعر بشـيء سوى بالخذلان - والضجر.

يتوسل إليّ:

- «كريسـتيانا. لـم يحـدث شـيء. لـم يحـدث شـيء ذو أهميـة. بالتأكيد ستسامحيني».

- «لا أعرف ماذا تتوقع. هل تتوقع أن أنصحك؟ أو أعود معك للفراش».

يتردد لحظة ثم يسأل إن كان عليه أن يذهب.

أخبره أنني سأكون ممتنة إن ذهب.

7

سِـجني الجديـد يسـمى «الجانب المشـمس» ويخطـر لي علـى الفور أن الجانـب المظلـم قد يكون اسـماً أفضـل لـه، لأن أقرب مكان إليه ليس سـوى مقبـرة مهجـورة. مـع ذلك يجب أن أقرّ بأن الشـمس تسـطع في المـكان حقاً طوال النهار - اكتسـبت بشـرة برونزيـة رائعة خلال الأيـام القليلة الأولى من إقامتـي غير الجبريـة. أترى؟ يجب أن أقر بأنني اخترت هذا السِـجن طواعية. بالغت في التمثيل قليلاً في البداية لكنني كنت أعلم أنني سـأذهب لأي مكان للتخلـص من السـاحرات مصاصـات الدماء ومن هـراء تلك البقرة الشـقراء التي لا تريد سـوى مصلحتنا. لكنني قلت إنني سأشـنق نفسـي إن ذهبت لأي مستشـفى مجانين وسط غابة. حاولت ماما إقناعي أنه لمصلحتي وأن المكان مذهل هناك. ولد أبي في مكان قريب من هناك وعاش هناك حين كان في مثل سني، ويبدو أن شقيقة جد جد جده ما زالت تقطن قريباً من هناك هي الأخرى، كأننـي أكتـرث لأي من هذا. قالت إنني لن أبق هنـاك طويلاً وأن المكان ليس علـى حافـة العالـم، فلديهم كهربـاء هناك. قلت لهـا إن هذا شـيء مبهر حقاً. كهرباء. تسـري الرعشـة في جسـدي كلـه من الفرحـة. سـألتها إن كان لديهم شـيء مميز حقاً مثل الكراسـي الكهربائية، أم إنهم يأخذون صدمات كهربائية بعـد الإفطار من باب المرح. اغتاظت وقالت إنه لا سـبيل للتحدث معي وأن بإمكانـي أن أبقى هنا إن شـئت. خفت أن تتركني في مستشـفى المجانين هذا فعلاً فقلت لها أن لا بأس، يمكنها إن شـاءت أن ترسـلني بصاروخ إلى القمر، لمصلحتي.

كنا ثمانية نتخلص من السموم في الجانب المظلم بحسب ما أتذكر- بمن فيهـم أنا. بعضهم ظل سـجيناً هناك لسـتة أشـهر. مونيكا الوحيـدة التي كانت

تبدأ شهرها الثاني هناك وكانت تخطط للهرب.. أخبرتني أنها كانت تعمل في مستشفى قبل أن تأتي إلى هنا، وكانت المستشفى كالنعيم بالنسبة لها، حيث المخدرات هناك في كل مكان أينما نظرت. كانوا يحقنون أنفسهم بالروهيبنول [1] مثلاً ويعطون للمريضات العجوزات أدوية وهمية بدلاً منه، ثم يقومون برحلات رائعة. حتى إنهم كانوا من وقت لآخر ينجحون في الحصول على مورفين؛ مما كان رائعاً لأنهم لم يضطروا لشراء روث بثمن باهظ من تجار المخدرات العرب. كانت تنام مع طبيب متزوج كانت تحبه، لكن الوغد تركها حين اكتُشف أمرهما ولم يتبق لها سوى المخدر. أدركت أن الحياة من دون مخدرات لا غرض منها وأن البشر خبيثون بالفطرة.

هكذا أظن أننا سنهرب معاً.

بافيل، الذي أنهى خدمته العسكرية بالفعل ويذهلنا بخدعه التي يقوم بها بورق اللعب وبإخفائه للشاي من كوب أمام أنظارنا، يقول إن في هذا المكان العناء نفسه الذي لاقاه في الجيش: مهمات مرهِقة، ومناوبة المطبخ، والخنازير والماعز. والعقوبات أيضاً متشابهة. الحبس في الثكنات معظم الأحيان. لم أكن أحمل بطاقة خروج بعد على كل حال، لذلك لن يستطيعوا سحبها مني. حين كان عزيزنا رادِك، الذي يساعدنا لنعود أشخاصاً طبيعيين مجدداً، يلاحظ أن الأرضية ليست نظيفة تماماً، كنا نمسحها مرة أخرى. اضطررت خلال الأسبوع الأول فقط لمسح أرضية غرفتنا ثلاث مرات. أوكلت إليّ أيضاً مسؤولية دجاجاتنا الأربع وبطة لها بضع بطيطات. كانت تهرب مني على الدوام، وخاصة الصغيرات، أكلت عِرسة الصنوبر واحدة منهن الأسبوع الماضي، قال لي رادِك أن لا أحزن كثيراً لأنه القدر ولإن عِرس الصنوبر من مخلوقات الربّ أيضاً. لم أحزن أساساً، كنت سعيدة لأن عدد التافهات التي أعتني بها قد قلَّ واحدة. سميت الخنازير «كلاب السجق» لأنها

(1) دواء مثبط ومهدئ ويستخدم كمنوم في حالات الأرق.

كانت نحيفة للغاية وكانت حين تجوع، وكان ذلك على الدوام أيضاً، تُصدر قباعاً وتثير نباح جميع الكلاب المحيطة.

في ما عدا هذا فإن رادِك رائع، ولطيف بطريقة ما. لديه نحو ثمانية عشر طفلاً، وما زال لديه وقت ليزورنا في المساء. أحياناً يحدثنا عن حياته. لم يكن لديه وقت للدراسة لأنه كان يذهب إلى الكنيسة، كان في كنيسة سرية أو شيء ما من هذا القبيل، لذلك كان عليه أن يعمل لكسب عيشه وقد عمل في كل شيء تقريباً: التسقيف، تمهيد الأرصفة، توصيل الطلبات إلى المنازل، وعمل في مغسلة أيضاً حيث كانوا يغلون الملابس في نوع من الحمض لبخاره أثر مخدّر أقوى من أي مخدِّر آخر. كانت حياته تشبه أحياناً فيلم أكشن وهو يقوم بأعمال لتلك الكنيسة. ذات مرة ألقى الضباط الشيوعيون القبض عليه وحاولوا تلفيق تهمة السكر وصدم طفل بالسيارة له. أخبرهم أنه لم يكن ليدهس أي طفل بالسيارة لأن ليس لديه سيارة ولم يقد سيارة أبداً، فقال الطفيليون إن هذا أدعى لإثارة الشبهات حوله وألقوا القبض عليه. قالوا له إنهم يأخذونه للسجن حيث سيتم التحقيق معه، وفي الطريق إلى السجن كانوا يتحدثون عن كيف سيدّعون أنهم أطلقوا عليه النار أثناء محاولته الهرب منهم. لم يصدقهم لأنه كان يعرف أنهم إن كانوا سيطلقون النار عليه فعلاً فلن يتحدثوا عن ذلك أمامه، لكنه مع ذلك رفض حين وصلوا أن يتحرك من مكانه وكان عليهم أن يحملوه، وقد حملوه فعلاً، حملوه وألقوا به في زنزانة وتركوه هناك طوال الليل في البرد القارس بلا طعام، ثم أطلقوا سراحه في مساء اليوم التالي. أخبرنا أيضاً أنه لم يفقد أعصابه ولو للحظة مع هؤلاء الضباط لأنه كان يعرف أنهم لا يدرون ماذا يفعلون وأنهم كانوا معتوهين تماماً بسبب التدريبات التي تلقوها وبسبب التلفزيون أيضاً.

الأمر أن رادِك يعرف جيداً كيف يُعامل الناس بشكل منفصل، على نحو يتيح لهم تكوين موقف عن أنفسهم. لا يتهافت ويبدأ بالحديث عن بشاعة تعاطي المخدرات، بل يساعدنا فقط على أن نفكر بشكل إيجابي، وندرك

لماذا كنا، بخلاف الآخرين، بحاجة للمخدر. لقد أدركت بالفعل أنني تعاطيت المخدرات نكاية في بابا لأنه يعتقد أنه من بعد الانفجار العظيم صار لا بأس أن تفعل ما يحلو لك من دون أن تعير الآخرين أدنى اهتمام، وهذا ما فعله. شعر رادِك بأن ما كنت أريده هو أن أكون مختلفة عن بابا، ومختلفة عن ماما أيضاً.

أشعر بأنني أعرف الآن كل ما يمكن أن أعرفه عن نفسي، وكذلك عن بابا وماما. شيء مهم حقاً أن يكون لك موقف من نفسك ومن الآخرين من حولك.

أستمتع حقاً حين نجلس ونتحدث عن أنفسنا. أخبرنا بافيل مثلاً أنه ما إن غاب في رحلة حتى شعر فوراً بأنه يريد أن يضاجع أمه، فظلت تردد له: «بافيل، لا بد أنك تخلط بيني وبين واحدة أخرى؛ هذه أنا، أمك». شيء مذهل.

الأسبوع الماضي حين كان دوري في نوبة المطبخ نسيت أن أطلب المعكرونة التي كان من المفترض أن نتناولها على العشاء فكانت عقوبتي أن أعمل في المطبخ لليوم التالي أيضاً، وفي المساء كان عليّ أن أزيل روث الحيوانات. أردت أن ألقي بالخراء أسفل نافذة رادِك، لكن هذا لن ينفعني في شيء لأنه سيكون عليّ أن أزيله من هناك أيضاً ثم أغسل النافذة بخرقة. على الأقل كسرت طبقين وتظاهرت بأنني آسفة جداً وأنهما انزلقا من بين يديّ لأنهما كانا مبللين.

الصبيان هنا ظرفاء بشكل معقول ويبدو أنني أروقهم. ذاك النهار جلب لي بافيل بعض زهرات اللؤلؤ، وكنس المطبخ بدلاً مني. وعرض لوقا الذي سيعود إلى بيته قريباً أن يساعدني في الرياضيات. لكنني أخبرته أنني لم أصل بعد إلى مرحلة يمكنني فيها بذل أي جهد في الدراسة. عليّ في الوقت الراهن أن أركز قواي على مجاهدة نفسي والتغلب على عاداتي السيئة. قال لي في مرة أخرى إنه واثق بأنني سأتجاوز الأمر؛ وأن عليّ أن أثق بنفسي. لا أعرف ما إذا كنت سأتجاوز الأمر. ما أريده هو أن أخرج من هنا. لكن في ما عدا هذا أنا أثق في نفسي.

جاءنـا مغفَّلٌ صغير بعد أسـبوعين من قيامي بمحاولـة للهرب. كنت أتوق لمعرفـة مـاذا سـيقول رادِك عن الأمر، لكنه لم يقل سـوى أن من لا يرغب في البقاء هنا، عليه ببساطة أن يغادر.

تلقيـت أول خطـاب من ماما أول أمس. تقول إنهـا تفتقدني وإنها تحدثت مـع رادِك فـي الهاتف وإنه يقول إنه راضٍ عني بشـكل معقـول. هل تصدقون هذا: بعد أن نسيت طلب المعكرونة وكسرت الطبقين. وهو يعرف جيداً إنهما لم ينزلقا من بين يديّ وإنني كنت أُمثّل كل هذا. أرسلت لي أيضاً مائتي كرونة إلى حين يعطونني بطاقة إذن بالخروج، وتقول إنها ستأتي وإنها تتطلع لرؤيتي. ولا كلمة واحدة عن صاحبها ذي الشـعر الزنجبيلي؛ لم تعطه الخطاب ليوقع عليه حتى. ربما تركها فجأة هو الآخر كما فعل بابا؛ سأحزن عليها حقاً إن كان قد فعل هذا. وأنا أيضاً بدأت أفتقدها وافتقد رودا - أتذكر أوقاتنا الرائعة معاً، لكنني افتقد حجرتي الصغيرة أكثر من أي شيء آخر حيث لا يأتي أحد لحشر أنفه في شؤوني، ولا يصيح أحد في السادسة صباحاً «أصحوا! اصحوا!».

بالأمس حين ذهبت مونيكا للتسـوق شـربت في السوبر ماركت زجاجة بيرة بسـرعة ورأتهـا إحدى البقـرات اللواتي يعملن هناك فوشـت بها لـرادِك. لذلك أرسـل بهـا على الفـور للحبـس الانفـرادي وكان عليها فوق هذا أن تمسـح كل الممـرات والسـلالم. مذهـل! أخبرتني في المسـاء أنهـا فاض بها الكيـل وأنها تخطـط للهرب، وسـألتني إن كنـت أود أن أذهب معها. قلت لهـا إنني أفكر في الأمـر منذ اليوم الأول لوصولي هنا وإنني سـآتي معهـا، لكنني لا أعرف إلى أين سنذهب.

اقترحـت أن نذهب إلـى عمة لها بالقرب من بيسـاك. لـن تطردنا ويمكننا حتـى أن نسـاعدها فـي المزرعة إلى أن نقـرر الخطوة التالية. لـديّ خالتي في طابور لكنها تعرف رادِك لذلك أظن أنها ستطردنا إن ذهبنا إليها.

كان رادِك فـي اجتماع للمعالجين أو شـيء من هـذا القبيل وكان المراقب الوحيد مادلا، فتاة ليسـت أكبر منا كثيراً كانت قد بدأت التدريب لتوها، كانت

تلعب معنا في الأمسيات وتغني وتعزف على الجيتار، ثم كان علينا أن نوقظها في الصباح. كنت آسفة لأنها ستجد نفسها في مأزق بسببنا، لكن رادِك ليس من هذا النوع. سيقول إنه القدر وإن من لا يرغب في البقاء في جانبه المشمس، المظلم السماوي، عليه ببساطة أن يغادر.

هكذا تظاهرت تلك الظهيرة حين كان علينا أن نذهب جميعاً إلى الغابة لجمع الخشب أنني أعاني من صداع. وكانت مونيكا تغسل الصحون في المطبخ، وما إن غادر الجميع أخذنا نجمع حاجياتنا في حقيبتي ظهرينا وذهبنا نحن أيضاً، لكن في الاتجاه المعاكس.

كان يوماً رائعاً ولم تفهم واحدة منّا كيف استطعنا تحمل الأمر لفترة طويلة هكذا: إطعام الماعز وإزالة الروث، مسح المشمع والاضطرار للثرثرة عن أنفسنا. تمكنا حين خرجنا من الغابة أن نستوقف سيارة ترابانت يقودها أحد المغفلين من أبناء المنطقة يأخذ زوجته لطبيب الأسنان في بلاتنا.

قلت لهما إن هذه مصادفة، لأن أمي طبيبة أسنان أيضاً، لكن في براغ.

أحمر وجهاهما حين سمعا أن أمي طبيبة أسنان وأرادا أن يعرفا إن كنا عائدتين لبراغ ومن أين جئنا. أخبرتهما أننا في جولة لأن الجو رائع هنا إلى حد أننا لا نريد المغادرة.

ابتهجا بشدة وعرضا علينا تناول ما نريد من التفاح الذي أحضراه. بدأت أتحدث عن الجانب المشمس، قلت إنني سمعت عن مزرعة في الغابة يوجد فيها مدمنون. هل سمعا عن شيء مثل هذا؟ قالا إنهما سمعا عنه وأنه أمر مؤسف حقاً كَمّ الشباب الذين يتعلقون بهذا الشيء وأن الذين في هذه المزرعة هم الأسوأ، وأنهم يسرقون أشياء ويسكرون، وأنهم يقيدونهم معاً هناك. قلت لهما:

- «لا بد أن هذا شيء مريع بالنسبة لمن يعيشون هناك، لحسن الحظ أننا لم نقترب من ذلك المكان في جولتنا وإلا كنا أفسدنا ذكرياتنا السعيدة عن بقية جولتنا».

أنزلانـا فـي بلاتنـا أمام القلعة وقـالا لنا حتى إنهما سـعداء بمقابلـة فتاتين لطيفتيـن مثلنـا، وإنـه من حسـن الحظ أن ثمة شـباباً مـا زالوا يقـدِّرون جمال الطبيعة.

بعـد ذلك قالت لـي مونيكا إنني «حُقنـة». وما إن عرفت بأمـر النقود التي أرسـلتها لي ماما حتى سحبتني لأقرب سوبر ماركت واشترينا زجاجة فودكا، مع أنني لسـت من هواة الشـرب كثيراً. لكننا لا نملك ما يكفي من النقود لأي شيء يمكننا أن نغيب به في رحلة.

الفصل السادس

1

أفتقد جانا. حين ينتهي عملي في العيادة لا أشعر برغبة في العودة إلى شقتي الخالية. اتصل بي جان مرات قليلة. أتحدث معه لكنني لا أرغب في رؤيته. هكذا أقول له ولنفسي. لكنني حين أضع السماعة أشعر بانهيار ووحدة تامين فأنفجر في البكاء.

أحياناً أقابل لوسي، وأذهب يومياً تقريباً لزيارة ماما. أزور زوجي السابق أيضاً. أجلب له أشياء من المحلات وأطهو له عشاء، مثلما كنت أفعل منذ سنوات. لكنه لا يأكل شيئا تقريباً. سيشيخ سريعاً: إنه رجل عجوز بالفعل.

الحياة حزينة. يؤول الأمر بالجميع تقريباً وحدهم. ربما كان الرب مع الناس في الماضي، لكنه لم يكن معهم حقاً، بل كانوا على أقصى تقدير يضعونه في حسبانهم.

لا مانع لديّ من أن أكون وحدي، ما يزعجني هو فشلي في حياتي وفشل الآخرين من حولي أيضاً. أؤنب نفسي على تسليمي ابنتي لغرباء ليعالجوها، على عجزي عن التواصل معها بنفسي. أعنّت نفسي لأنني بدّدت الوقت القليل الذي كان لديّ لقضائه معها، حين كانت تحتاجني بشدة، على علاقة مغرورة ومتعجرفة.

لعلني أفهم في الأسنان، لكنني لم أفهم قط في قلوب الأشخاص الأقرب إليّ.

ظلت حجرة الانتظار مليئة طوال فترة الصباح، لكن ثمة قوة تدفعني للابتعاد عن هنا والذهاب إلى الغابة للجلوس وحيدة هناك. أكثف غابة ممكنة. المشكلة أنني في جميع الأحوال لن استطيع الابتعاد عن نفسي.

أعمل في صمت. لا أتحدث مع إيفا حتى. ويبدو أنه أحد تلك الأيام التي تأتيني فيها حالة خطيرة تلو الأخرى. حالة التهاب في اللثة وثلاث حالات خلع أضراس، ولختام اليوم كانت الأخيرة من الدرجة الثامنة، والأنكى من هذا أن الهاتف لم يتوقف عن الرنين.

تدبرت أمري حتى مع حالة الدرجة الثامنة. أمليت على إيفا تفاصيل المريض لإضافتها إلى ملفه والهاتف يرن مجدداً. أسمع إيفا تقول: «أخشى أن السيدة بيلينا لن تستطيع التحدث حالياً إنها تجري عملية خلع». ثم تصمت للحظة ثم تقول لي: «يبدو أنها مكالمة مهمة. بخصوص جانا».

أقول لمريضي: «اغسل فمك من فضلك». آخذ السماعة ويخبرني صوت فتاة ما أن جانا مفقودة. لقد هربت مع مونيكا. مونيكا من؟ أوه، نعم، أتذكر الآن. تلك الفتاة الجديدة التي لم ترغب في مواصلة العيش. تقول لي الفتاة:

- «إن لم تعد بحلول المساء سنضطر للجوء إلى الشرطة للبحث عنها. وإن عادت إلى البيت أرجوكِ أن تتصلي بنا».

- «هل تعتقدين أنها ستأتي للبيت؟».

- «لا أظن».

- «ماذا يجب أن أفعل إذاً؟».

يقول صوت الفتاة:

- «لا أعرف، أنا جديدة في هذا كله، ورادِك لن يعود قبل المساء». ثم تعد بأن تتصل بي إن ظهرت جانا مرة أخرى.

تفهم إيفا من حديثي فتسأل:

- «هربت؟»

أومىء لها برأسي.

- «ماذا ستفعلين؟ هل نلغي مواعيد اليوم؟»

أتصل بماما وأخبرها بما حدث وأطلب منها أن تذهب إلى الشقة وتبقى هناك إلى حين أصل أنا. يصعب إبلاغ المرضى بالعودة بعد أن جاؤوا على مواعيدهم بالفعل - وفي جميع الأحوال لا أعرف ماذا سأفعل في البيت غير الانتظار. أن أعلق في البيت منتظرة سيكون عذاباً أشد.

تحاول إيفا التسرية عني:

- «ستظهر بالتأكيد، سيتصلون بكِ. سترين».

لكن لا أحد يتصل فأواصل العمل. تقوم أصابعي بالحركات المعتادة. تُدخل المثقاب السليم وتضغط بالقوة الملاءمة. حتى إنني أتحدث: أسأل عن أشياء، وأصدر أوامر، وأتخيل طوال الوقت وكراً خافت الإضاءة ويعج بالمدمنين، أو سيارة يقودها منحرف أو قوّاد، وكلهم يأخذون صغيرتي منّي.

- «ألا يؤلمك هذا».

- «لا دكتورة. إن يدك خفيفة حقاً».

يدي خفيفة حقاً لكنني لم أنجح في شيء أبداً.

- «هذا هو كل شيء». تعلن إيفا فجأة وتغادر الحجرة تاركة الباب المؤدي إلى حجرة الانتظار مفتوحاً. «هل أتصل بمن لديهم مواعيد غداً لألغيها؟».

أرفع كتفيّ. ليس لدي أدنى فكرة عما سأفعله غداً أو هل سيكونون قد وجدوا جانا أم لا.

- «لا. لا تتصلي بأحد».

2

عودة إلى البيت. ماما تريد تفاصيل، لكنني لا أعرف شيئاً. يخطر لي:

- «ماذا لو ذهبت جانا إلى بيتك بدلاً من المجيء إلى هنا؟»

لكن ماما فكرت في هذا من قبل وتركت ملحوظة على بابها تخبر بمكانها.

تؤنبني:

- «لم يكن عليكِ إرسالها إلى مكان بعيد هكذا. إنها ليست معتادة على هذه الحياة».

- «هل كان عليّ أن أدعها تعيش الحياة التي كانت تعيشها؟». لا أعرف كيف سأقضي بقية اليوم. أدخن سيجارة بعد أخرى. لا يمكنني البقاء جالسة حتى. أندفع في الشقة أرتب الأشياء. يجب أن أفعل شيئاً. أتصل بالجانب المشمس مجدداً. يخبرني صوت الفتاة أنهم لم يسمعوا شيئاً بعد عن الهاربتين، لكن شباب الجماعة قرروا أن يذهبوا للبحث عنهما.

- «أتظنين أنهم سيجدونهما؟».

- «إنهم الوحيدون الذين لديهم فرصة للعثور عليهما. فهم يعرفونهما ويعرفون أين قد تذهبا».

أحاول الاتصال بصديقات لجانا أعرفهن لكنني لا أجد أحداً. لا أحد في بيته. بالطبع، ما زلنا في موسم الإجازات.

أطلب من ماما أن تبقى في الشقة فيما أذهب للبحث عن جانا.

- «أين؟»

- «لا أعرف. في كل مكان».

- «متى ستعودين؟».

- «لا أعرف أيضاً».

- «لكن ذلك عبث، أليس كذلك؟».

لا أسألها ما الذي ليس بعبث؟ بل أخبرها أنني سأدور حول نفسي إن بقيت هنا من دون أن أفعل شيئاً.

- «اعقلي قليلاً كريستيانا، وكُفّي عن الجزع هكذا. لن تجديها بل ستؤذين نفسك فقط، أنظري كم أنت عصبية».

- «لم أعد طفلة صغيرة ماما».

أقود السيارة إلى كمبة حيث وجدناها المرة الماضية لكن لا أجد سوى الكلاب الضالة تجري هنا وهناك.

أركض صوب جدول الطاحونة القديمة عند حافة المتنزّه كما لو كنت سأنتشل جانا من المياه. ثمة زوجان يتعانقان على أحد المقاعد، لكنهما لا يلاحظاني.

لا أسألهما ما إذا كانا رأيا ابنتي جانا؟ في الخامسة عشرة من عمرها، عينان زرقاوان، جبين شامخ، ساقان طويلتان، شعر بونك...؟ أنطلق عائدة للسيارة وأقود جنوباً، نحو أعلى النهر، خارج المدينة. أضغط على السيارة البانجر القديمة المسكينة حتى تنتحب. تومض أنوار الريف إذ تمر بي كلطخات ألوان.

إلى أين تذهبين كريستيانا؟ ليس لديك أدنى فكرة عن وجهتك، أليس كذلك؟

أنا ذاهبة لأعثر على ابنتي الصغيرة.

وكيف في ظنك ستعثرين عليها في هذا العالم الواسع؟ وماذا ستفعلين إن لم تعثري عليها؟ كيف ستبقين على قيد الحياة؟ أخرج من الطريق السريع وأقود عبر بريبرام وها هي فجأة: جدار المقبرة وكنيسة الصليب المقدس.

أوقف السيارة وأخرج منها. ساقاي بالكاد تحملانني وثمة ومضات أمام عينيّ.

ما زالت بقية من ضوء النهار. لا أعرف لماذا توقفت هنا. بالكاد ستذهب جانا لزيارة أحد أقارب والدها، فهي لا تعرفهم على أي حال. وحتى وإن جاءت من هذا الطريق، لماذا ستتجول بالقرب من هنا؟

توقفت هنا لأنني أخشى الذهاب إلى المكان الذي هربت منه. توقفت هنا من أجلي أنا. عند قبر جان جاكوب روبا مؤلف قداس عيد الميلاد الذي يجعلني أبكي كلما سمعته، مع أنني لا أؤمن برب رضيع يرقد في مزود.

للمؤلـف الـذي قـرر ذات يوم أنـه لا يقوى علـى العيش. كان وقتها أكبر سـناً منـي الآن، لكـن صبـره كان قد نفد منـه. وكانت لديه زوجـة مخلصة وأطفال صالحون.

وضع شـفرة حلاقة في جيبه وانطلق إلى غابة تسـمى «الشِـقّ». يقولون إنه جلـس هناك على جلمود، وحيث لم يكن ثمة شـق واحد ليتسـلل منه شـعاع أمل، نحر نفسه. هكذا حكى لي زوجي السابق على أية حال.

ليس لديّ شفرة حلاقة في جيبي، مع ذلك لست واثقة من رغبتي في البقاء على قيد الحياة. ما زال عليّ أن أجد رجلاً مخلصاً، وطفلتي الوحيدة هاربة.

النسـاء لا يستخدمن الشـفرة في العادة؛ بل الحبوب أو الغاز المنزلي في الغالب. ثمة حبوب مسكّنة للآلام في حقيبة يدي من شـأنها بالقطع أن تضع نهايـة لألمي وخيبتي في البحث عن الخير. ما زالت الغابة المسـماة «الشِـقّ» منتصبـة، فقط تغيرت الأشـجار. وضعوا نصباً تذكاريـاً حجرياً في البقعة التي أنهـى فيها المؤلف الموسـيقي حياته. اصطحبني زوجي السـابق والوحيد مع جانا إلى هناك ذات مرة حين كنا ما زلنا معاً.

لم نعد معاً الآن لقد انهار بنياننا.

يجـب أن لا أضيع الوقت. لابد أن أواصل القيادة بحثاً عن ابنتي الصغيرة. لكـن الآن قد تسـللت هذه الثالثـة إليّ من الخلف: الرضيعة الخالدة، رسـولة الـرب، وتهمـس لي أنهـا ابنتي الصغيرة أيضاً وبوسـعي أن أعثـر عليها في أية لحظـة وإنها سـتعانقني وسـتبقى معـي إلى الأبد وسنسـعد معاً وسـتزول كل المخاوف والآلام.

تَعِدُ الفتاة الصغيرة بإرشادي في الغابة، وهي حساسة للغاية، حتى حد إنها تشـجعني من الخلف بنفسها الخفيف. تتملقني قائلة: ستجلسين على صخرة وتبتلعين ما لديكِ ثم ترقدين على الطحلب وستشعرين بأنك بخير: لن يهرب منـك أحـد آخر أبداً، ما مـن أحد سـيؤذيكِ أو يخذلك ثانيةً أبـداً، لن يخونك أحد، ولن يرغب أحد في شـيء منك، ولا حتى أنا: فقط سأشـجعك برقّة كما تشائين في رحلتك هذه إلى دار السلام الأبدي.

للفتاة الصغيرة صوت رقيق ومشجّع ويخطر لي حين تُلوّح بيدها أن الضباب سيحيطني وسيغدو الأمر أسهل على كلتينا.

وهو كذلك، سأذهب معها.

في هذه اللحظة يصدر من الكنيسة صوت عزف أرغن وأميّز اللحن المألوف. من ذا الذي يعزف قداس عيد الميلاد في أوجّ الصيف؟ ربما كان الموسيقار الميت نفسه من اختار من أعماله العديدة أكثرها إنعاشاً للروح.

أشار زوجي السابق قائلاً لنا:

هنا ولدت، على حافة روزميتال. وهنا ذهبت إلى المدرسة. هل تسمعان جوقة الكنيسة هذه، كنت أغني فيها: أيها السيد هايي، قف أقول لك، تطلع إلى السماء، المجد في الأعالي. علام تبتسمين جانا؟

لأنك أنت أيضاً بابا كنت تذهب إلى المدرسة. لا بد أنك كنت عفريتاً صغيراً.

يا صغيرتي المسكينة، إن أمك مختلّة، إنها شخص حزين بائس وتدمر نفسها مثلك. تتأرجح على حافة الهاوية، ماذا سيحدث لكِ حين تسقط فيها وهي تصرخ؟

أعود للكنيسة وأقف منصتة، أتذكر الأوقات التي كنا نعيش فيها معاً في حب. فقدت الرسولة الصغيرة، تلك الفتاة الصغيرة، صبرها. واختفت بهدوء من دون أن تنتظرني.

أتجه صوب باب الكنيسة وأنا أزمع دخولها لتقديم الشكر لمن يعزف الأرغن، لكن بابها موصد. الرب وحده يعلم متى كانت آخر مرة دخل منه أحد. سكت الأرغن أيضاً.

ألاحظ الآن فقط غرفة هاتف بالقرب من الكنيسة.

نعم، وجدوا جانا ابنتي ومونيكا فعلاً. هربتا وثملتا. ستتعرضان للعقوبة ما لم يقرر الآخرون طردهما نهائياً.

- «هل تظنين أن بإمكاني المجيء؟ إنني قريبة بالفعل».

3

أصل إلى الجانب المشمس وقت الغسق

ليس مسموحاً لي بلقاء جانا على انفراد.

- «بحق السماء ماما، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟». تقول لي مندهشة حين يحضرونها: «رائع أنك جئتِ، بالتأكيد سيمنعون عني الزيارات، وقد يحلقون لي شعر رأسي أيضاً».

ابنتي الصغيرة لا تفكر إلا في نفسها. لا يدور في خلدها أن تسأل كيف شعرت حين أخبروني أنها هربت، أو كيف عانيت طوال الوقت الذي كانت تعذّبني فيه هكذا.

- «ما الذي كنت تفكرين فيه لتهربي هكذا؟».

- «نحن لم نهرب، لقد ذهبنا للمشي فقط».

- «لهذا أخذتما معكما حقائب الظهر»، يعلّق شاب من الواضح أنه أحد المقيمين هنا.

- «أخذنا حقائب الظهر في حال إذا أمطرت أيها الغبي»، تجيبه جانا.

- «أخذتما أشياء كثيرة في حال إذا أمطرت»، يتدخل رادِك «وفي جميع الأحوال لم يكن مسموحاً لكما بالخروج للمشي، كما تعلمان جيداً».

- «حسناً، أوكي»، تقر جانا. «لكننا فكرنا في الأمر مرة أخرى حقاً. سيكون القرار قرار الجماعة،» ثم تواصل وهي تلتفت لي: «هل سيحلقون لي شعر رأسي، أم سيطردونني، أم سأزيل الروث لمدة شهر».

يقول المعالج بنبرة تصالحية:

- «لن يطردوكِ، ستَرين، أنتِ ماهرة في الحساء والجيتار، سنفتقدك».

بودي أن أسألها ما إذا كانت مدركة لحقيقة أنها إن لم تنجح هنا، فلن تجد مساعدة في أي مكان آخر، لكن رادِك يصرفها.

- «سنحلّ كل شيء معها». يوضح لي ثم يصحبني إلى مكتبه.

يُجلسني أمام صورة فرويد العظيم مباشرة. حينها فقط أدرك أنني كدت أستسلم لغواية السلام الأبدي لأنني شعرت بأنه لم يعد من شيء جيد في الحياة بعد الآن. أشعر بالدموع تجري من عينيّ وليس بوسعي وقفها.

يأتي المعالج ويربّت على شعري وهو يقول:

- «لا تكدّري نفسك. كلهم تقريباً يحاولون الهرب، ونحن نسامحهم في أول مرة. بعضهم يختفي لشهر مثلاً ثم يعودون ليطلبوا منا ضمّهم لنا مرة أخرى. وبعضهم طبعاً يهرب ولا نسمع عنهم شيئاً».

أومئ برأسي لأوضح أنني أتفهم. بودي أن أسأله كم هو راضٍ عن جانا في ما عدا هذا، لكن ماذا بوسعه أن يقول وقد حاولت الهرب اليوم تحديداً. كل ما أقوله:

- «أنا حقاً آسفة لأن جانا أضافت لمتاعبك».

- «إطلاقاً، هذا هو واجبنا هنا. أترين. يظن الجميع أن شيئاً ما يجب أن يتحسن بعد أسبوع أو اثنين، لكن الأمر يستغرق شهوراً في الغالب. ليس لنا الحق في أن ينفد صبرنا. لسنا قديسين ولا ملائكة».

- «أعرف».

- «أخبرتني شقيقتك وجانا أيضاً أنك تعانين من الاكتئاب».

أومئ وأضيف أنني لا أرى أهمية هذا.

- «أوه، لكنه مهم لدى جانا».

- «لقد حاولت دوماً إخفاءه عنها».

- «لقد شعرت به على أية حال. لعلها لم تستطع تحديده أو شرحه. لكن حين تكون الأم غير واثقة فيم إذا كانت سعيدة بالحياة أم لا، يفقد عالم الطفل أحد ثوابته فيحاول الطفل الهرب منه. ما نريده لهم هنا أن يتعلموا فهم وتحديد ما يشعرون به ولماذا يشعرون به. هذه هي الخطوة الأولى قبل أن يصل بهم الأمر في النهاية إلى التوقف عن البحث عن وسائل زائفة للهروب».

أومئ برأسي. أدرك أن هذه إدانة لي وأحاول وقف تدفق الدموع من عينيّ.

يقول كأنه يقرأ أفكاري:

- «أنا لا ألومك على أي شـيء. إن عدم الاسـتقرار هذا شيء أعمق وأكثر عمومية ويشـملنا جميعاً. هؤلاء»، يشير للقامات التي أراها من النافذة تتجول في الخارج، ويضيف: «ليس لديهم إحسـاس بالأمان، ليس لديهم أدنى فكرة عـن الاتجـاه الذي يجب أن يتخـذوه بينما يبـدو كل ما يحيط بهـم فاقداً لأي اتجـاه. يمكنهم امتلاك كل أنـواع المتاع، لكن الممتلكات لا تفعل سـوى أن تضيف للإحساس بالفراغ. فراغ لديهم الوعي به. لأنهم ليسوا رعاعاً كأولئك الذين تعلّموا التكيف وتحمّل كل شـيء. إنهم ببسـاطة حساسون لهذا الفراغ الذي نغضّ عنه أبصارنا. ولن نعالجهم ما لم نستطع ملء هذا الفراغ.

أعـي انطباق كلماتـه عليّ كذلك. أنـا أيضاً محاطة بفراغ أحـاول ملأه بلا جدوى.

يضيف رادِك:

بالطبع نتشارك في جلسات العلاج. لكنْ ثمة أيضاً جهود تضمن أن يدرك كل منهم مسـؤوليته تجاه نفسـه وتجاه الحياة بصفة عامة. إن عنايتهم بالماعز والخنازير والدجاج ليست لتوفير نفقات الطعام، بل لدمجهم في نظام طبيعي ما. لتذكيرهم بأن الغرض مما يفعلونه ليس المتعة، بل المنفعة التي تتحقق من الحفاظ على الحياة. - لكننا قبل كل شيء نعلّمهم الصبر. لأنكِ قد تكتشفين في لحظة استنارة واحدة ما كنت تبحثين عنه طيلة سنين بلا جدوى. المهم أن لا ندمِّر أنفسنا قبل أن تحين تلك اللحظة.

4

صـارت الصباحـات بـاردة ومضببـة بالفعل والهـواء له رائحـة عفنة. غدا النـاس أكثر عرضـة للمرض - ولآلام الأسـنان. تزدحم غرفـة الانتظار يومياً

وأنـا إيفا ليس لدينا الوقت لتناول وجبة حتى. الأمر مرهق، لكنه، على الأقل، أفضل من المكوث وحدي في المنزل.

ليس بي طاقة لشيء. لا اقرأ، أشغِّل موسيقى لكنني ألاحظ بعد فترة أنني لا أستمع لها. أشعر كأنني تائهة في متاهة وليس بي قوة لأجد طريقي خارجها.

أزور زوجي السـابق يوماً بعد يوم تقريباً. إنه وحده أيضاً وأكثر وحدة مني بكثير. ويعلم أنه يحتضر ببطء. توقف الآن بعد أن علم بهذا عن طرح أسـئلته القلقة. لكن يمكنني ملاحظة سيطرة الخوف عليه. من ذا الذي لن يخاف؟ أنا أيضاً أخاف الموت مع أنه يبدو لي أحياناً طريق الخلاص.

أتسـوق لـه وأطهو له بعـض وجبات الحميـة التي لا طعم لهـا، يأكل منها لقيمـات قليلـة فقط. أقشـر له برتقالة وأقطّعهـا له كما لو كان طفـلاً. أتأكد أنه تناول دواءه. حين أراه وقد استولى عليه القلق آخذ يده - يد الهيكل العظمي - وأتحدث معه. أخبره عن انتخابات المجلس التشـريعي التي لم تكن لتهمه في شـيء بعد الآن أو عن الفيضانات في بوهيميا الشـرقية التي لن يزورها مرة أخرى. أو أقرأ له بصوت عال خطاب من جانا لا يفهم منه شيئاً.

قال لي المرة الماضية:

- «من الغريب أن تفكر في أن العالم سيسـتمر من دون أن تسـتطيع رؤيته مرة أخرى. لكن إلى أين سيستمر؟»

لم أعرف بماذا أجيبه، ظللت أحدق فقط في عينيه الغائرتين ولم أقل شيئاً.

ظـل صامتـاً هو الآخر. ثـم قال بعد دقائـق قليلة إنه يسـتحيل عليه التفكير في أن الناس سـيظلون موجودين لآلاف السنين، فما بالك بمئات الآلاف من السـنين. ليس للأمر علاقة بحقيقة أنه وصل لنهايته وأن العالم ما عاد يعني له شـيئاً بعد الآن. يبدو له أن الناس سيعجزون عن اللحاق بمعدل السرعة الذي وضعوه. سـيدمرون الأرض أو أنفسهم. سـيمضي الزمن قدماً والكون كذلك ولن يبقى أحد هنا ليعي الأمر، وبدا له هذا حزيناً.

أغمَض عينيه. أرهَق نفسه بهذا الخطاب. اعتذَر عن تلك التأملات الفارغة لرجل يحتضر.

حيـن عدت إلى البيت شـعرت بضجـر مختلف عما اعتدت الشـعور بـه من حين لآخر. كأن كل الهموم التي حملتهـا والإحباطات التي عانيت منها والنبيـذ الذي شـربته والسـجائر التي دخنتهـا والليالي التي سـهرتها بلا نوم قد ذابت جميعاً معاً. أسـتيقظ ليلاً بتوتر شـديد ولا أسـتطيع معـاودة النوم. أنهض وأذهـب للنافذة. أقف هناك أدخّن وأحدّق في الشـارع الخالي. أحاول التفكير في شيء يجلب السرور، لكنني لا أرى سوى أطفال بعظام ناتئة يتوسلون طعاماً علـى الرصيف. رجـال بوجه أبي يجوبـون المدينة بكـراسٍ متحركة ويلوّحون مهددين بمذاكي نار حمراء من السخونة. يومض المعدن المحمر من السخونة فـي الظلام كالمصبـاح. أرى جدتي تقف في حجرة واسـعة بأرضية من البلاط تحت دوش ينبعث منه غاز. تصرخ جدتي ويُغشـى عليها. يحيط بها أشـخاصٌ من كل صوب. يصرخون ويُغشـى عليهم. أرى سـيارة شـبح بداخلها شـخص يـوزّع من نافذتها أكياسـاً بيضاً صغيرة وحقناً. أرى صاحبي السـابق يرقد عارياً بين ذراعي تلك العاهرة طويلة الساقين وأسمع تأوههما من اللذة. أرى لصوصاً يتسـلقون الجدران ويقيسـون بهدوء جدران المنازل. أتذكر كيف سرقت ابنتي الصغيرة مجوهراتي ونقودي. تتزاحم عليّ الصور وتخنقني. أسـمع وقع أقدام رجال المليشيا وأرى أبي يمسك ببندقيته ويصوبها نحوي كأنني العدو.

ربما كنت أظلمه، كانت علاقتنا متوترة وفقط.

قرأت في آخر مذكراته كيف صنع لجانا هدية عيد ميلادها الخامس.

صنعـت لهـا توربينة صغيـرة، حين تفتح عليهـا الماء يعمـل دينامو دراجة فيضيء مصباحاً صغير. استغرقني صنعها أكثر من شهر لكنني لم ألحظ فرحة جانا بها وحتى كريستيانا قالت باستهزاء إن هذا غير معقول، أليس كذلك بابا؟ إنها لعبة لولد صغير وليس لفتاة. سأظل دائماً مغفلاً في عينيّ ابنتي المتعلمة، وهي تربّي جانا على التفكير هكذا أيضاً. يحزنني هذا جداً.

أراد بابـا أن يُسـعِد ابنتي الصغيرة، ويُسـعِدني أنـا أيضاً ربمـا. صنع اللعبة بنفسه بدلاً من شراء واحدة وأنا استهزأت به.

لم أكن ماهرة في التواضع. لم أعرف كيف أعقد سلاماً مع بابا أو مع زوجي بعد أن خانني، مثلما لم أستطع التصالح مع نزوة حبيبي. لم أنجح في التصالح مع أبي حتى وهو على فراش الموت. لم أستطع التصالح معه، تماماً كما لم أستطع رؤية أبانا الذي في السموات.

رأسي يؤلمني وأشعر بغثيان. نوبة صداع نصفي تلوح تباشيرها. أتناول حبة لكنني أتقيأها على الفور.

في اليوم التالي أقابل لوسي. بذلت جهداً لأطلب مساعدة صديق: خذي بيدي، تحدثي معي!

لديها صديق جديد، يبدو واضحاً أنه شاب طويل أصم وأبكم. حين يجلسان معاً في البار يكتب لها رسائل على لوحة سوداء صغيرة يقول فيها كم هو سعيد ويستمتع بالنبيذ ويريد أن يقبلها. يقيم في شقتها الآن. لقد أكّدت عليه أن يظل محتفظاً بغرفته ليكون له مكان يعود إليه. لكنه ما زال معها حتى الآن. تقول إنه يمارس الحب بشغف لم تعرفه من قبل قط وحين يصرخ عالياً لن تصدقي أنه أصمّ وأبكم. أسألها:

- «ولا تخشين أن تجرحيه؟».

- «أجرحه؟ لكنه سعيد معي».

- «وماذا سيحدث له حين لن يعود معكِ».

تضحك. ثم تسأل عن جان:

- «لماذا لا تقيمان معاً ما دمتما تحبان أحدكما الآخر؟ أم إن الأمر انتهى؟».

لا أعرف بماذا أجيبها. ستعتبر لوسي خيانة عرَضية واحدة - ومُعترَف بها- أمراً تافهاً لا يترتب عليه شيئاً. أخبرتها أنني مرهقة فقط. جانا في مركز العلاج من الإدمان، زوجي السابق يحتضر، وصحة أمي ليست بخير مع أنها تتصنع البهجة.

- «لكنني أسأل عنكِ أنتِ».

- «ليس لدي طاقة كافية لكل شيء، فما بالك بالعيش مع أحد».
لم تستطع فهم هذا. تزداد طاقتها حين تحب.
قلت لها إن الناس مختلفون. ربما لم أعد مغرمة به. أنا محبطة فقط.
- «وماذا يريد هو؟» هل يحبك؟».
- «لا أعلم ماذا يريد، لكنه في جميع الأحوال سيتركني يوماً ما، حتى وإن قال إنه لن يفعل».
- «أنتِ مجنونة. لماذا تفكرين فيمَ قد يحدث يوماً ما؟».
- «لأن هذا يهمّني، يوماً ما سيهمني».
- «كريستيانا، أنتِ بحاجة لأخذ الأمور ببساطة. نحن أحياء الآن ولا نعرف ما إذا كنا سنظل أحياء حتى الغد».
أشرب ماءً لكنني أتقيأه أيضاً.

5

لا أعرف ماذا أفعل.
ليس بوسعي التركيز ولا التفكير في شيء سوى استعادة كريستيانا. في العمل أحدق في شاشة الحاسوب أو أتصفّح ورقة تلو الأخرى من دون أن أسجل في خاطري شيئاً مما أقرأه.
ألغيت موعد المساء حيث كان من المفترض أن نستكمل اللعبة. ربما لأنني لم أرغب في رؤية فيرا لكن تقريباً لأن اللعب آخر ما يمكن أن يخطر ببالي الآن.
جيركا، الوحيد الذي أثق فيه لأحكي له ما حدث. قال لي:
- «لم أكن أظنك بهذا الغباء. لماذا بحت لها بما لم تكن لتعلم عنه أدنى شيء؟»
أوضّح له أنني خشيت أن تتصل بها فيرا وتخبرها بنفسها.

لا يظن أن بوسعها فعل شيء كهذا. «إن عملك يجعلك مجنوناً بالشك. الجميع واشون مُحتملون. وحتى لو كانت قد أخبرتها، عليك دائماً أن تنكر. فالإنكار هو ما تقضي يومك كله تفكر فيه وحتى حين تلعب. أنت تعرف جيداً أن عليك أن لا تعترف بأي شيء، حتى وإن عذّبوك».

قلت له إن الأمر ليس كأي تحقيق قديم. فقد فكرت أنه سيكون إخلالاً بالشرف أن أكذب على كريستيانا وأنا أحبها.

- «ثمة طرق أخرى كثيرة لإظهار حبك أيها الغبي».

أنا غبي إذاً ولا أعرف ماذا أفعل.

حلمت مرة أنني ذهبت إليها وتوسلتها أن تحبني مجدداً. قالت:

- «لكنك خذلتني».

وعدتها أنني لن أخذلها مرة أخرى أبداً. وأنني سأفعل أي شيء تطلبه. فوافقت قائلة:

- «أوكي. أمسح كل منهما إذاً». فهمت أنها تريد مني أن أجد ملفات أبيها وزوجها السابق وأفرمها. رَاعني طلبها هذا لأنهما كانا في الحلم عميلين مهمين للغاية وقد يترتب على فرمي للملفات عواقب وخيمة. لكنني لفرط اشتياقي لها وعدتها بتنفيذ طلبها، ثم سألتها:

- «الآن هل تحبينني مجدداً».

أومأت برأسها ثم أخذت تخلع ملابسها بأسلوب داعر ووقح، كنجمة أفلام إباحية. ثم مارسنا حباً مسعوراً.

حين استيقظت كنت حزيناً. كأن المرء قد يكسب حب أحد بمسح بيانات تافهة من ذاكرة حاسوب.

هاتفت كريستيانا هذا الصباح وسألتها عن حالها.

كانت إجاباتها مقتضبة وباردة. جانا بخير، هي مرهقة. تقرأ رواية أمريكية فيها فتاة تتعاطى البروزاك[1]. ومن باب الأدب فقط سألت كيف حالي.

---

(1) Prozac الاسم التجاري للفلوكسيتين، مضاد للاكتئاب.

أخبرتهـا أنني أفتقدها، واقترحت أن نلتقي لكنهـا اعتذرت قائلة إن مزاجها لا يسمح وقد أخبرتني على كل حال كم هي مرهقة ومجهدة من العمل.

سألتني ماما عن فيرا مرات عدة. لا أحب حين تسألني عن حياتي الخاصة، لكنني في لحظة ضعف أخبرتها أننا انفصلنا.

- «هل ترى واحدة أخرى؟».

أومأت لها. كنت أخجل من الاعتراف بأنني لا أرى واحدة حالياً.

طلبت مني أن أدعو تلك الأخرى إلى البيت في وقت ما. بودها مقابلتها.

لم أعدها بشيء. فليس بإمكاني ذلك على أي حال. حين حاولتْ الحصول على المزيد مني صِحتُ فيها أنني لا أطيق تدخلها في حياتي الخاصة.

غضبتْ مني ولن تتحدث معي الآن.

ثمـة إشـاعة تدور فـي العمـل بأنهم إمـا سـيوقفوننا عـن العمل تمامـاً أو سـيجدون طريقة تجعل عملنا مسـتحيلاً. تقصّي الحقائق في الجرائم القديمة لا يعني سـوى القليل فقط من المثاليين المتشـددين. وهـم على أقصى تقدير شـخصيات محل سـخرية من الباقين. أخبرني أوندريج أنه قرر الاستقالة لأن عملنا يبدو له لا جدوى منه. شعرت بأنها خيانة تقريباً. لا أعرف من سيضعون مكانه لكنني أعرف أنني لن أعمل تحت إمرة شخص لا أعرفه.

أول أمـس كنت وحدي تماماً في العمل طـوال اليوم، فقضيت الوقت كله فـي قـراءة طالع برجي على الحاسـوب. لدهشـتي لم أصل إلى شـيء له وقع الزلـزال. الأمر منطقي في ما يخص العمل. أشـعر مثل أوندريج وأعرف أنني سـأضطر لترك العمل عاجلاً أو آجلاً. لكن كيف أفسر تشكيل النجوم الهادئ في ما يخص كريسـتيانا؟ إما سـتعود لي وتستمر الأمور، أو أن علاقتنا لم تكن ذلك الحدث الجذري الذي ظننته. بدأت وانتهت لتُمهِّد لما لم يأت بعد.

بالأمس اشتريت باقة ورود حمر كبيرة وانتظرتها خارج عيادتها.

جفلت حين رأتني، شـعرت بأنها ستستدير وتبحث عن مكان تختبئ فيه. لكنهـا جاءتني مباشـرة وحيتنـي. رفضت الزهور ورفضـت أن نجلس معاً في

مكان ما. فسرنا معاً مسافة قصيرة من الشارع وأنا أحمل باقة الزهور كعريس مرفوض.

حاولت أن أشرح لها أنني لم أقصد خيانتها؛ لقد حدث الأمر وفقط. فيرا من جاءت إليّ ولم يكن لديّ القوة وقتذاك لأطردها. لم أدّعي أبداً أني قديس أو راهب، لقد استسلمت للّحظة فحسب. أعلم أنني تصرّفت بضعف؛ لو كان أبي مكاني لتصرف على نحو أفضل بكثير، لكنني أعدها أنني لن أتصرف هكذا مرة أخرى أبداً.

قالت لي إنني قد أكون غبياً أو ساذجاً، لكنها لا تحب الضعفاء، ومع ذلك فهي تعرف من خبرتها أن أغلب الرجال كانوا سيفعلون مثلما فعلت. والمرء بالطبع لا يثق بوعود الضعفاء، الذين هم أغلب الرجال بكلمات أخرى. إنها تعلم أنها لن تستطيع الوثوق بي مرة أخرى أبداً وما الجدوى من الحب إن لم يكن مبنياً على الثقة؟

سألتها إن كانت ستظل على حبها لي إن كنت قد أنكرت كل شيء. قالت:

- «كنت سأستطيع ملاحظة الأمر على كل حال وحينها كنت سأعتبرك كاذباً علاوة على كل شيء آخر».

أنا لست كاذباً، أنا غبي. وهكذا أنا الآن وحدي.

6

كلما رن جرس الهاتف أشعر بوخزة ألم في قلبي. أخشى التنفس قبل أن يتكلم المتصل.

في طريق عودتي إلى البيت من العيادة أرى الأطفال يركضون خارجين من المدرسة وأحاول أن لا أفكر في حقيقة أن ابنتي متأخرة دراسياً ولا أعرف ما إذا كانت ستعود للدراسة أو ستنجح في العودة للحياة الطبيعية حتى. لكنها حتى الآن لم تحاول الهرب مرة أخرى. بل على العكس من ذلك، كتبت لي

خطابيـن بدت فيهمـا تائبة، ووعظتني عن كيف كنا نقوم بكل شـيء على نحو خاطئ في الماضي. كنتِ غير صبورة مع نفسـك بشـكل مريع ماما ـ لذلك لم تكوني راضية عن نفسـك ولـم تستطيعي حب نفسـك. أسمع صوت المعالج فـي كتابتهـا. لكن لعلها علـى حق. لعلهما همـا على حق. علـيّ أن كون أكثر صبراً مع الآخرين ومع نفسي.

عندمـا يأتي المسـاء يـرن جرس الهاتف وأسـمع على الطـرف آخر صوتاً أنثوياً. اسـمها لا يعني لي شـيئاً. لكنها ليسـت من مركز معالجة الإدمان. إنها جارة زوجي السـابق. تعتذر وتوضح لي أن عامل البريد حاول تسـليم زوجي السابق خطاباً مسجلاً لكنه لم يجده.

- «لم يعد زوجك للمستشفى مرة أخرى، أليس كذلك؟»

لا أخبرها أن زوجي لم يعد زوجي منذ وقت طويل، ولا أعرف ما إذا كان أحدهم قد نقله للمستشفى أم لا، لكنني لم أكن لأعرف بالضرورة إن كان هذا ما حدث، لم يكن أحد ليخطرني.

تطمئنني قائلة:

- « إن كان أحدهم قد نقله إلى المستشفى لكان أحد سـكان البناية لاحظ مجيء سـيارة إسـعاف. أنا فقط أتسـاءل إن كان بإمكانك تكبّد مشقة المجيء وفتح الشقة في حال حدث شيء له».

- «لكن ليس معي مفاتيح».

- «ليس معك؟ ظننت أن..».

- «عليـك الاتصـال بزوجته السـابقة، الأرجح أنها هي من سـيكون معها مفاتيح».

- «أنا لا أعرفها. لم أسـمع عنها من قبل أبداً. إنه يتحدث عنكِ أنتِ فقط. وأنا أيضاً رأيتكِ أنتِ فقط».

زوجي السابق يتحدث عنّي مع جيرانه إذاً. ماذا عساه يخبرهم؟

- «ماذا أفعل إذاً إن كان ليس معكِ مفاتيح؟».

- «لا أعرف ما إذا كان لدى أي شخص آخر نسخة من المفاتيح، لم أرد مفاتيح شقته أبداً مع أنه عرض عليّ نسخة منذ وقت طويل».

- «ألا يجب علينا أن نتصل بالشرطة؟ لإنه مع كل شيء كان مريضاً جداً، كما تعرفين».

أعد أن أتصل بالمستشفى التي يُعالَج فيها، وأعدها بإعلامها إن لم يكن هناك.

- «لكن ربما يمكنك المجيء دكتورة. أنتِ طبيبة ولعلك الشخص الأقرب..».

زوجي السابق ليس في المستشفى ولم يسمعوا عنه.

زرته منذ ثلاثة أيام. كان واهناً بشدة. رشف قليلاً من شاي مُحلّى ورفض تناول شيء. قال لي:

- «لن أبقى هنا لوقت طويل. أعلم هذا، لم تعد عندي القوة لأقاتل من أجل حياتي. وفي الحقيقة صار الأمر سياناً سواء مُت اليوم أو بعد أيام».

شعرت بالحزن عليه. أعلم كم يحب الحياة والفوز. جلست إلى جانبه، أخذت يده الهزيلة وربّتّ عليها.

أنفجر بالبكاء. ثم قال إنه آسف لأنه عاملنا هكذا.

- «كنت أنانياً مغفلاً. تركتكما وحدكما في مهب الريح، لكنني دفعت الثمن الآن».

- «لا تكدِّر نفسك. ليس بإمكاننا تغيير شيء الآن على أية حال».

- «هل تظنين أن بإمكانك أن تغفري لي؟».

قلت له إن ألمي لما حدث قد زال بالفعل وإنني ممتنة له على كل الأوقات الطيبة التي قضيناها معاً وعلى جانا أيضاً. وأن أغفر أي شيء أمر لا يعود إليّ. الرب وحده من يغفر. فقال:

- «الرب! كنت أفكر فيه في الأيام القليلة الماضية. الرب ليس كما يظنه الناس. الرب هو الزمن، أو الزمن هو الرب. خلق الشمس والأرض والحياة. إنه أزلي، سرمدي، ولا يُسبر غوره».

أذهب إلى شقته سيراً وأدقّ جرس بابه. لكن لا صوت يأتي من الداخل.
تفتح الجارة التي هاتفتني بابها.
- «أتظنينه بالداخل يا دكتورة؟».
كأنني أعرف.
- «ربما مرض بشدة ولم يعد قادراً على الوصول إلى الباب. لم يخرج من شقته مؤخراً».
أخبرها أن الأفضل أن نتصل بالشرطة.
- «تقصدين أتصل أنا؟»
- «أنتِ جارته، وتعرفين عنه أكثر مما أعرف أنا».
تطلب مني أن أظل معها. فأنا رغم كل شيء طبيبة ووالدة تلك الفتاة الصغيرة المحبوبة.
أجلسِ هنا في شقة غريبة فيما تتصل الجارة بالشرطة. أعلم أنه سيكون من الخطأ أن أنهض وأغادر الآن. تعدّ لي المرأة قهوة وحين أستئذنها لأدخن تجلب لي منفضة سجائر. ليس بيننا شيء لنتحدث عنه فتتحدث عن زوجي السابق، كيف كان يعتني بالحشائش أمام البيت، كيف ساعدها مرة في تغيير إطار سيارتها، وحين كان بصحته كان يساعدها دوماً في حمل أكياس التسوق وصعود السلم بها. لم يساعدني قط في حمل أكياس التسوق. لم يكن يريد زوجة مدللة.
لم تصلِ الشرطة بعد. تتصل الجارة مرة أخرى ويخبرونها أن لا أحد متاح لديهم حالياً لأنهم خرجوا جميعاً للتعامل مع حالة سطو. علينا أن نصبر.
حتى الشرطة تطلب مني الصبر الآن.
نشرب قهوة أخرى. تقدم لي مخبوزات، لكنني لست جائعة. تستئذنني لفتح التلفزيون.
ليس لدي مانع من صور متحركة، مع أنني لا أشاهد التلفزيون في منزلي. أنا نصف طبيبة فقط، كما أقول دائماً، لكنني، حتى ولو لم أكن أعلم شيئاً

عـن الطب، أعلم أن الرجل الذي يقطن الشـقة المجاورة لـن يفتح الباب مرة أخرى أبداً.

يظهـر رجلا شـرطة أخيراً، ومعهم صانع أقفال. يريـدان أن يعرفا من نحن وإن كنا متأكدتين من وجود أحد بالداخل.

لسنا متأكدتين، لكن الأسلم أن نفترض هذا.

إنه قفل سلامة، لذلك سيكون عليه أن يثقب الباب. يريد صانع الأقفال أن يعرف من سيدفع له أجره.

تنظر الجارة نحوي - أنا زوجته السابقة رغم كل شيء - فأومئ برأسي.

يحاول الأكبر سـناً من رجلي الشـرطة دق الجرس مرة أخرى، ويدعه يرن بمثابرة بيروقراطية. ثم يترك الأمر لصانع الأقفال.

يسـتغرق ثقب الباب دقائق قليلة ثم ينفتح وأرى الشهادات الشهيرة معلقة على جدار صالة الاستقبال. لا أحد يرغب في الدخول.

يقترح أكبر رجلَي الشرطة سناً: «ربما عليكِ أنتِ دكتورة».

أفتـح بـاب غرفـة المعيشـة وأراه على الفور. في وضع وسـط بيـن الرقود والجلـوس مسـتنداً إلى إحـدى وسـادات الكنبة. يبـدو كظلٍ لـه صنعه ضوء شمعة. زوجي الأول والوحيد والسابق، والآن، الراحل. عيناه الميتتان كأنهما تنظران إليّ. لم أفكر أبداً أنني أنا من سأغمض له جفنيه.

7

لحُسـن الحـظ لـم يحلقوا لي شـعري، حلقوا شـعر مونيكا فقـط لأنها من شـجّعني. كان عليّ أن أقطّع حمولة عربة من الأخشـاب، وأن أنسـى أمر بطاقة الإذن بالخروج. ومع كلٍ ذلك يتصرف الجميع كما لو كانوا أنقذونا برحمتهم وسمحوا لنا أن نستمر في التعفن هنا. تبكي مونيكا على شعرها الأسود الطويل

كل ليلة حين تخلع إيشاربها وترى كيف حوّلوها إلى فوضوية حليقة الرأس.

تظل تردد مراراً وتكراراً:

- «كنا بقرتين غبيتين حين توقفنا في ذلك البار الغبي. لو كنا فقط توجهنا مباشرة لبيت عمتي لكنا هناك الآن».

- «أو في السجن، لو كانت الشرطة قبضت علينا. الرب وحده يعلم إلى أين كانوا سيذهبون بنا».

بالرغم من تقطيع الأخشاب، المكان هنا أحياناً يكون لطيفاً حقاً.

على كل حال، لم يتركني الأولاد أقطع الخشب كله وحدي، خصوصاً بافيل. حين كان يمر حدّق فيّ للحظة ثم قال: «هاتِ عنكِ». وأخذ مني الفأس. لديه يدان كيديّ الدببة، إن كان للدببة يدان، وفي دقيقة واحد كان قد قطّع قدر أكبر مما كنت سأظل أقطعه لمدة أسبوعين. ظني أنه مغرم بي قليلاً، لأنه لطيف جداً معي وحين نقوم بالتقييم المتبادل في المجموعة يظل يردد كم أنا رائعة لأنني ظريفة وأعدّ حساء بطاطس مذهلاً ولأنني حُقنة. حين كنت أطعم كلاب السجق في الزريبة ذاك النهار جاء ووقف خلفي ولف ذراعه حولي وأراد أن يقبلني. لكنني ذعرت لأن الجنس ممنوع منعاً باتاً هنا، تماماً مثل أي نوع من أنواع المخدرات. لولا هذا لكنت أحببته جداً، إنه مختلف تماماً، ليس كهؤلاء الطنانين الثرثارين. وحين ينهمك في إحدى حيله السحرية ترتسم على وجهه ابتسامة ديفيد كوبرفيلد. جعلني أسحب ورقة وخمّن أنها ملك القلوب. قالت مونيكا: «لقد قصد وضعها لكِ بالذات أيتها البقرة الحمقاء، لأن ملك القلوب يعني الحب».

ذات نهار جاء هذا القزم الذي أراد منه رادِك أن يحدثنا قليلاً - «من باب التغيير». لم يتحدث معنا عن المخدرات، بل عن الأسمدة وكل الأشياء التي تغسلها الأمطار وتلقي بها في الأنهار ثم نشرب نحن السموم أو نعد بها الحساء. تحدث باستفاضة أيضاً عن المراحيض الأرضية معتقداً إنها مستقبل البشرية. سألته كيف ستعمل المراحيض الأرضية في ناطحة سحاب من ثمانية

عشر طابقاً، لكنه من دون أن يرمش له جفن قال إن ناطحات السحاب ستنهار قريباً وإنه في جميع الأحوال يمكن بناء المراحيض الأرضية في أي مكان، فكل ما نحتاجه هو ترتيب نقل خرائنا في عربة: كان يسمّي الخراء «برازاً». حين غادر ظللنا جميعاً في حالة من الذهول طوال الأمسية. لم نضحك هكذا منذ أزمنة. انزعج رادِك لأننا لم نأخذ الرجل بجدية كافية، وقال إننا سنبكي لو عرفنا كل ما يجري في مياهنا وأن علينا أن نفكر إلى أين نحن متجهون.

أرسلت لي ماما خطاباً قالت فيه إنها وجدتي تفتقدانني وأنها تأمل أن أبقى في مكاني ولا أهرب مرة أخرى. قالت أيضاً إنها اكتشفت شيئاً ما ليست متأكدة من أنها يجب أن تخبرني به، لكنها أخبرتني على كل حال. يبدو أنها اكتشفت أن لديها أخاً غير شقيق مما يجعله خالي غير الشقيق، على ما أظن - وأنه يجلس على كرسي متحرك لأنه قفز في النهر وارتطم رأسه بصخرة أو شيء كهذا. كان ذلك صدمة حقيقية لي. عرفت ماما بأمره من خطابات قديمة تخص جدي، ولم يكن لديها أدنى فكرة عنه قبل ذلك، وجدتي مازالت لا تعرف وماما تقول إنني يجب أن لا أذكر الأمر أمامها. تقول إن سبب إخبارها لي بهذا الأمر هو أن أقدِّر كم هو رائع أنني بصحة جيدة وأن بإمكاني أن أركض هنا وهناك، وأن الأمر يعود إليّ في ما أقرر أن أصنع بنفسي وكل هذا الهراء عن أنني يجب أن لا أدمر نفسي. أجد هذا القول غريباً، منها هي التي تدمر نفسها بمنهجية بحسب قول بابا.

أزعجني خطابها هذا نسبياً. جعلني أدرك أن الناس خبثاء بالفطرة، كما تقول مونيكا. تذكرت كيف هرب بابا ليعيش مع خيال مآتة وسخة تركته في ما بعد، ثم تكتشف ماما أن لها أخاً غير شقيق ومقعد. ربما سأكتشف أنا الأخرى يوما ما أخاً غير شقيق معوق لم يخبروني به، غير أنني لن اكتشف هذا قبل مائة سنة أخرى. وأنا أيضاً خبيثة: لم أخبر ماما أنني سرقت سلسلتها وذاك الخاتم، أو أنني ضاجعت فتياناً.

أدركت أيضاً أنني لا أعرف ماذا سأفعل حين سأخرج من هنا في النهاية،

لأنني رسبت في المدرسة، وسأرسب الآن حتى في المواد التي جاهدت لأنجح فيها بالحد الأدنى، لأن كل ما كان قد علق بالصدفة في ذاكرتي قد امّحى منها تماماً منذ جئت إلى هنا. الحياة مذهلة ببساطة.

وجدت نفسي في مأزق فجأة وشعرت بتلك الرغبة الملحة في أي مخدر أو في أن أَسكَرَ على الأقل، مع أنني لم أكن أحب السكر حقاً. أخبرت رادِك بالأمر وقال إن مأزقي هذا طبيعي وإنه دليل واضح على أنني لم أشفَ تماماً بعد. قال إن الأمر سيدعو للدهشة إن لم تراودني مثل تلك الرغبة من حين لآخر. وأشاد بشجاعتي في التحدث عن الأمر مع أنه لا يشيد بأحد في العادة، بل يبتسم ابتسامةً خفيفة كحدٍ أقصى. طلب مني أيضاً أن أتحلى بالصبر؛ الصبر هو المهم، وأن أنظر حولي واكتشف الأشياء اللطيفة في الحياة. لم يُجدِ ذلك كثيراً في إبهاجي، لإنني حين نظرت حولي لم أجد أي شيء لطيف على نحو خاص.

لكن حدث ذات مساء، على حين غرة، أن جاءني رادِك وطلب مني أن أخرج معه للحظة. فخرجت. صعدنا درباً قصيراً أعلى المزرعة يطل على مشهد رائع لمنظر طبيعي كامل، على أحد الجانبين بلدة بلاتنا تعلوها تلك التلال التي تعتبر جبالاً تقريباً، وعلى الجانب الآخر محطة تيميلين للطاقة النووية. كان القمر متألقاً وتخيلت أبراج محطة الطاقة النووية كصواريخ فضائية على أهبة الاستعداد للانطلاق إلى الفضاء. رادِك لم يكن ينظر إلى المشهد، كان ينظر لأعلى، إلى السماء. ثم قال:

- «نجوم كثيرة أليس كذلك؟»

- «نعم، النظر إليها من هنا رائع».

قال إن ثمة بلايين البلايين منها لكن أكثرها بلا حياة. إن الحياة معجزة ولا يهم هل نؤمن بأن الرب هو من خلقها أم أنها نشأت فقط، فلم تزل مع هذا وذاك أكبر ما وقع من معجزات، وإن لم نحترم تلك المعجزة بداخلنا فلن نحترم الحياة المحيطة بنا، والمأساة، بحسب ما قال، إن الناس لا يحترمون

أنفسـهم ويدمّرون أنفسـهم وكل ما يحيط بهم. إن مهمتنـا أن نمضي بمعجزة الحياة تلك إلى الأمام.

تذكرت في تلك اللحظة بابا وهو يُريني كوكب زحل وحلقاته ويخبرني عن الانفجـار العظيم. لكن بابا كان يتحدث معي عن النجوم ليُعلّمني، وكان ينظر لـي بصرامة بحيث خشـيت أن يطلـب مني أن أردد وراءه كيـف هي الحلقات ضيقة. أدركت أن رادِك لم يكن يتحدث عن النجوم من الأساس، بل عني أنا. خطر لي أنه من العار أن لا يكون والدي، لكنه قال حينها:

- «اتصلـت والدتـك منذ وقت قصيـر لتقول إن والدَكِ قـد توفّي». وربت على شعري دعاني إلى أن أتحلّى بالشجاعة.

وقفنـا هناك لوقت أطول قليلاً. لم أسـتطع قول أي شـيء. ثم هبطت التلة ركضـاً لكنني عند نقطـة ما تعثرت وسـقطت في العشـب. لم أدر مـاذا أفعل فأخذت أنتزع العشب من جذوره وأحشو به فمي حتى اختنقت تقريباً.

الفصل السابع

1

أقـود جانا إلى البيت لتحضـر جنازة أبيها. لقد تجاوزت موته وأخشـى أنها فرحت به بشـدة كذريعة لتسـتريح من النظام العسكري لمركز العلاج ولو لفترة قصيرة على الأقل. إنها شـغوفة تماماً بالتفكير في نفسـها إلى حد أن ليس لديها وقت للتفكير في أي شخص آخر. تعلمت في جلسات العلاج النفسي أن تفكر فـي نفسـها وتتحـدث عنها بلا خجـل. تخبرني كـم كانت بشـعة. وأنها دخنت السجائر لأول مرة حين كانت في الثانية عشرة، والحشيش حين كانت في الثالثة عشـرة، وخلال العام الماضي كله تقريباً كانت تحقن نفسـها أو تشم كل ما يتاح لها. نامت أيضاً مع فتيان لا تستطيع تذكرهم كلهم لأنهم لم يعنوا لها أي شيء.

- «هل نمت معهم حقاً؟».
- «بالطبع ماما».
- «منذ متى؟».
- «لا أتذكر الآن».

أشـعر بوخزة ألم في رأسـي ثم تنتشـر في جسـدي كله. يهتز كل شيء من حولـي ويتغبّـش الطريـق أمامـي. ها هي ابنتـي؛ تكـذب وتراوغ. مجـرد فتاة صغيرة، لم تتم الرابعة عشرة بعد.

أوقف السيارة أمام بار ريفي لئلا أسحق ابنتي الصغيرة.

نترجّل من السيارة.

- «ماذا بكِ ماما؟ أنتِ شاحبة كورقة بيضاء».

- «سيمر الأمر»، أشعر برغبة قوية في أن أصرخ فيها لتعطيني أسماء هؤلاء الأوغاد، ثم أمسك بمسدس وأطلق النار عليهم جميعاً! وسأدّخر آخر رصاصة لنفسي لأنني أم حقيرة إلى هذه الدرجة.

نجلس في البار المعبأ بالفعل بدخان السجائر في هذه الساعة من النهار ونشرب قهوة رخيصة. أريدها أن تمنحني دقيقة لأسترد أنفاسي، لكنها لا تتوقف. تتابع عن إدمانها المخدرات:

- «في النهاية لم يكن شيء يهمني. حتى إنني كنت مستعدة للسرقة. كنا دائماً نسرق كل ما يمكننا سرقته: من المحلات، من السوق. سرقت أشياء منكِ أنتِ أيضاً، لكنك تعرفين هذا. ثم لم يعد يهمني شيء بالمرة، سواء ذهبت إلى المدرسة أم أمسكوا بي أم حبسوني. لم أكن أفكر في ما سيحدث في يوم محدد، لم أكن أفكر في شيء سوى الحصول على جرعتي».

أعرف هذه الأمور مما أسمعه ومن الأفلام ومما قرأته، لكن فكرة أن ابنتي الصغيرة مرت بكل هذا في حين كنت أعيش معها جنباً إلى جنب من دون أن أشك في شيء ومن دون أن أفكر في احتمال حدوثه؛ فكرة أنني، حتى أنا، تركتها وحدها لأكون مع حبيبي، هذه الفكرة تؤلمني كأن أحدهم يدق مسامير في لحمي. ما زلت كما كنت دائماً. أظل جامدة بلا حراك وغير مهيأة إلى أن يضع أحدهم مسمارا على صدري ويرفع يده بالمطرقة ويضرب. تماماً مثلما رفضت الاعتراف بأن زوجي السابق - والراحل الآن - كان يخونني. حاولت أن اقنع نفسي أن شيئاً كهذا لن يحدث لي، أن مثل هذه المصائب تحدث للآخرين فقط.

تواصل ابنتي الصغيرة وتخبرني كم أن الامتناع عن ممارسة الجنس شيء فظيع، وكيف كانت طوال الوقت على استعداد للهرب.

- «لكنني بوسعي الآن تقدير قيمة هذا»، تقول مستخدمة كلمة غريبة عليها، «كل ما أردته هو أن أهرب من الحياة ومن كل ما يزعجني. من البيت ومن المدرسة. من كل شيء. وبدأت أيضاً أفهم بابا وأفهمك. سأخبركما أنتما الاثنين في وقت ما».

- «لن تستطيعي إخبار بابا بشيء بعد الآن».

- «لكن يمكنني أن أخبرك. سوف أحلّل شخصيتك. أنت أهم شخص لديّ. حين ستدركين ما تفعلينه من خطأ وتفهمين نقاط ضعفك، ستعيشين بشكل مختلف وستكونين سعيدة». تقول مكررة المحاضرة التي سمعتها من قبل.

حين نصل إلى البيت تركض نحو غرفتها، تقفز فوق فراشها وتصيح:

- «فراشي القديم، بيمبا القديمة، طبولي القديمة - اشتقت لكم حقاً!».

- «حين كان بإمكانك البقاء هنا، كنت لا تطيقينها».

- «لأنني كنت تعيسة هنا».

أحضنها بقوة. فتاتي الصغيرة، ما الذي جعلك تفعلين كل هذا، أحبتك كثيراً جداً رغم كل شيء، لم يكن لديّ سواكِ، ليس لي أحد سواك.

فيمَ نستعد للخروج تخبرني أنها الآن فقط تستطيع تقدير قيمتي لما أنا عليه وتقدير قيمة البقاء في البيت. تتحدّث سريعاً، كعادتها، وبالجدية نفسها التي سألت بها منذ لحظة هل يمكنها وضع شريطة حمراء بدلاً من السوداء.

نمر بماما في طريقنا. تلاحظ احمرار عينيّ من البكاء فتعلق أن الرجل لا يستحق دموعي بعد أن دمّر حياتي.

لا أقول لها إننا ندمر حياتنا بأنفسنا.

في المحرقة يُجلسنا المسؤول عن إقامة الطقوس في الصف الأول. يوجد بجانب النعش الذي اخترته، ثلاث باقات زهور. واحدة من جانا، وواحدة أرسلتها مَدرسته القديمة، والبطاقة على الثالثة انطوت ولم يسعني قراءة اسم مرسلها. ربما كان أحدهم أحبه حتى النهاية رغم كل شيء وأرسل له باقة زهور.

يصعد ناظر المدرسة التي كان زوجي، الراقد الآن في النعش، يعمل فيها حتى وقت قريب، على المنصة، ينحني للنعش، ثم يبدأ خطابه بحماسة عن رجل أحب مهنته وضحى بوقت فراغه من أجل تلاميذه، رجل كان دائماً أهلاً للثقة ولم يؤذِ أحداً قط.

يعود ذهني لآخر محادثة مع الرجل الذي أحببته وأُعجبت به ذات مرة والذي يرقد الآن، على نحو غريب، في النعش الذي اخترته؛ لا يدري شيئاً عنا نحن الذين تُركنا لقضاء طرفة عين أخرى للرب - تعطّفاً علينا من الزمان.

هل اكتشف شيئاً مهماً في نهاية حياته أراد أن يشاركني إياه، شيئاً ما يمكنني أن ألقّنه لابنتنا حتى؟ الزمن بدلاً من الرب، الزمن أزلي، سرمدي وعصيّ على الفهم. هل يعني هذا أن نصلّي للزمن؟

بيد أن الزمن لا يبالي بأقدارنا. الزمن مريع لكنه مع ذلك الشيء العادل الوحيد في الحياة. يصل بنا إلى أماكن كهذه حيث نرقد أخيراً. لكننا بوسعنا قبل الوصول لهنا أن نخبَر شيئاً ما، ونفعل شيئاً ما بحيواتنا. ولنا نحن أن نقرر ماذا نفعل. يتركنا ندمّر ما نحب. الزمن أو الرب، أيّاً ما ندعوه، لا يوجد فارق.

يعزف عازف الأرغن الآن افتتاحية قداس الكريسماس لروبا -كان عليّ إحضار نسخة منها لأنها ليست من موسيقى الجنازات المعتادة. أغمض عيني وأنا أستند بظهري إلى الجدار الأبيض لمقبرة روزميتال. يقف بجواري زوجي الأول والوحيد، حياً ويبتسم لي: «لماذا أنت حزينة هكذا كريستيانا؟»

لست حزينة، بل مرهقة بشكل مريع.

2

كنت في الفراش بالفعل حين رن جرس الهاتف.

تسأل ماما بصوت واهن ما إن كانت أيقظتني من نومي.

- «هل أنتِ بخير ماما؟»

- «لا أعرف. ظل أنفي ينزف بشدة مجدداً من دون انقطاع».

أجزع وأخبرها أنني سأكون عندها على الفور، فتعتذر لإزعاجي بصوتها الواهن نفسه.

الدم في انتظاري ما إن أفتح الباب، على أرضية صالة الاستقبال وعلى سجادة غرفة النوم حيث تجلس ماما على فراشها، شاحبة كجثة.

على المرء أن لا يعالج أقاربه. أضع بعض الثلج على مؤخرة عنقها وأخبرها أنني سآخذها إلى المستشفى. تقول لي إنها لن تذهب إلى مستشفيات، إن كانت ستموت، فهي تفضّل الموت سريعاً في البيت.

- «ماذا تقولين ماما؟ لا أحد يموت من نزيف أنف».

- «قد يموت المرء من أي شيء».

- «إن أراد ذلك».

تخبرني أنها لا تريد ذلك وتقول إنها تشعر بأنها أفضل بالفعل. بدأ نزيف الأنف حين كانت نائمة وجزعت قليلاً حين رأت كَمّ الدماء من حولها. وأنها آسفة لإزعاجي.

أعرف أنه ما من سبيل لإقناعها، وعلى كل حال فقد بدا أن النزيف يتوقف بالفعل. في النهاية أذهب وأعد لها كوب شاي، وأحلّيه بقليل من العسل. ثم أمسح الدم من على الأرضية وأغيّر ملاءات فراشها، وأساعدها في ارتداء جلباب نوم نظيف.

تقول حزينة:

- «أنا لا أشغلك أليس كذلك؟».

- «لا. لا تقلقي. لم يكن لديّ خطط أخرى». أجلس بجانبها وآخذ يدها.

- «ولا موعد حتى؟».

- «ولا موعد حتى».

- «لكنني توقعت أن لديك عملاً ما».

- «لقد عملت بما يكفي خلال النهار. الآن سأبقى معكِ هنا».

- «ليس عليك هذا. أنا بحال أفضل الآن».

- «سأكون وحدي في البيت على أية حال».

- «أعرف». تقول ثم تسأل: «لكن ماذا أنا كصحبة لكِ؟».

- «أنت الصحبة الأفضل ماما».

- «ليس عليكِ التظاهر لي بأي شيء. لكن يجب أن لا تبقي وحدك طوال الوقت. ليس الآن وقد مات كارِل».

- «ماما لقد نسيتِ أننا منفصلان منذ سنوات بالفعل».

- «لم أنس. لكنك كنت تنتظرينه رغم ذلك».

لا أشعر برغبة في التحدث عن هذا. لا أشعر برغبة في التحدث عن أي شيء.

- «لقد مضى وقت طويل منذ كنت أنتظره».

- «بالضبط. لقد بقيت وحدك لوقت طويل جداً. كل شيء على كاهليك وهذا يُهلكك».

- «أفضل أن أكون وحدي على أن يكون معي شخص يخنقني».

- «هل تقصدين هذا الشاب الذي أخبرتني عنه؟»

- «لم أقصد أحداً على وجه التحديد».

- «وماذا عنه؟ هل يحبك؟»

- «لا أعرف».

- «ماذا تظنين؟».

- «أظن أنه ما زال يحبني، أو على الأقل يعتقد هذا، لكنه لا يتصرف على هذا الأساس دائماً». أقول ثم أضيف: «لكن عليكِ أن ترتاحي قليلاً وتكفّي عن القلق بشأني».

- «يجب أن أقلق الآن. فلا أعرف إلى متى سأظل موجودة، أليس كذلك؟»

- «ستظلين موجودة إلى وقت طويل آت». أنهض وأُحكم لفّ غطاءها.

«نامي الآن ولا تفكّري في شيء. ارتاحي، لقد فقدتِ الكثير من الدم».

- «لا، انتظري لحظة. لكنك لا ترغبين في الزواج مرة أخرى، بلى؟»
- «ماما. إن الزواج آخر ما يشغل ذهني. يكفيني أن تركني رجل واحد».
- «ليس بوسعك طرد هذا الرجل من فكرك. لكن آخر لن يتركك، وإن فعل، فسيعود لكِ مرة أخرى. كأبيكِ».
- «ماذا تقصدين؟».
- «طلب مني أبوك قبل أن يموت أن أغفر له كل عشيقاته».
- «أخبركِ أنه كانت له عشيقات؟».
- «كنت أعرف على أية حال. كنت أعرف حتى عن ابنه ذاك. لقد جاء أناس وأخبروني بالأمر».
أظل صامتة. لا أعرف ماذا أقول. ثم أسألها:
- «لماذا لم تخبرينا؟»
- «كان هذا شأنه هو ليخبركما به. ربما كان من الأفضل أنه لم يخبركما، لذلك ظل معنا ولم يترك البيت».
- «ربما كان عليكِ أنتِ ترك البيت».
- «فكرت في هذا، لكنني خِفت. كان أبوك رجلاً قوياً وفكرت أنه سيحميني».
- «يحميكِ مِمَّن؟»
- «في حال إذا ما عاد الألمان مرة أخرى».
- «ماما، لم يعد الألمان مصدر خطر بعد الآن. كان الروس هم مَنْ جاؤوا».
- «لم أكن خائفة من الروس».
- «ولهذا لم تتركي البيت».
- «من أجلكما أنتما الاثنتين. ثم إنني كنت أحبه. كان بوسعه أن يكون رقيقاً في بعض الأحيان».
يخطر لي أنها لم تعرف رجلاً رقيقاً أبداً. هل عرفت أنا رجلاً رقيقاً؟ ربما كان الرجال الرقيقون شيئاً من نسج خيالنا.

- «ثم إنني لم أرد الطلاق بعدما حدث لأمي».

- «لكن الزمن اختلف».

- «أعرف. لكن على الجميع أن يبقوا معاً. على كل حال، كانت جدتك هي من طلبت الطلاق. أو على الأقل هذا ما يقوله أبي. كانت تعلم ماذا يعني له متجره. تظاهرت أنها تركت البيت فقط، لكنها بقيت معنا». تبدأ ماما ذكرياتها: «أتذكر كيف كنا نصنع زهوراً جميلة بالجلد والقماش والأسلاك. كنت أجلس هناك معها فتحكي لي قصصاً من الكتاب المقدس مثلاً. خمّنت أننا لن نبقى معاً إلى وقت طويل، فرغم كل شيء كانت قد درست القانون لذلك لابد أنها كانت تعرف عن قوانين نيريمبرج[1] تلك».

ألاحظ أن ماما لم تتحدث عن أمها من قبل قط، كانت تتحدث عن ميتتها الفظيعة فقط.

- «وكانت تحدثني أيضاً عن أعياد اليهود، مثل يوم الغفران الذي على الجميع فيه أن يغفروا حتى لمن أساء إليهم. أترين. بوسعي أن أتذكر بعد كل هذا العمر. لكنني لم أستطع أن أغفر لأبي. ثم شعرت بتأنيب الضمير لهذا. يجب أن تأخذي الناس كما هم، بكل عيوبهم وأنانيتهم. إن لم تفعلي هذا فستبقين في الخارج».

- «خارج ماذا؟»، أسألها مع أنني أعرف ماذا تقصد.

ربما لا تسمعني حتى؛ إنها مرهقة. كلتانا مرهقتان. تغمض عينيها ولا تقول شيئاً لوقت. ما زلت أمسك بيدها. تضيف:

- «لهذا غفرت لأبيكِ، وعليكِ أنت أيضاً أن تغفري له. ستشعرين أنك أفضل كثيراً، سترين».

---

(1) قوانين نيرنبرغ نسبة لمدينة نيرنبرغ الألمانية حيث اجتمع الحزب النازي وأصدر قوانين عنصرية حرمت اليهود الألمان من حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والأم تلفظها بالميم على نحو خاطئ.

3

في طريق عودتي إلى بيتي من عند ماما، أجدني أمام فيللا شاباك، لم ألحظ سيري في هذا الاتجاه. الفيللا هادئة وموصدة كالمعتاد، ثمة عدة سيارات في الساحة الصغيرة تنزلق على أسطحها قطرات مطر.

أتذكر أن الذكرى الستين لوفاة كاتبي المفضل ستحل بعد أسابيع قليلة. كان رجلاً شجاعاً وعليل البدن. حين كان في مثل عمري لم يكن قد تبقى له سوى أربع سنوات في الحياة. حين كان في مثل عمري كتب: «بداخل الناس قطعة كريستال، شيء ما ناعم، نقي وصلب، لا يختلط بأي شيء ويسمح لكل شيء بالإنزلاق عليه».

بودّي لو كان بداخلي قطعة كريستال صلب لأدع كل ألمي وخيباتي ويأسي ووحدتي تنزلق فوقها.

حين أصل إلى البيت لا أجد أحداً في انتظاري. ولن يكون ثمة أحد أبداً ليأخذني بين ذراعيه ويربت عليّ. وإن عادت جانا للبيت، إلى متى ستبقى؟ وماذا عن زوجي الأول والوحيد. ظللت بشكل لا واعٍ طوال تلك السنوات انتظر أن يدق جرس الباب ويقول لي آسف كريستِيانا، لقد أسأت إليكِ، لكنني وجدت صعوبة في العيش من دونك! لكنه الآن لن يدق جرس الباب ثانيةً أبداً. وماذا عن جان الذي يقول إنه يحبني لكنه خانني عند أول فرصة واتته؟ هل أصالحه وأتقبل ببساطة أن الحياة هكذا: خيانة وهجر وغفران، وهؤلاء الذين يتقبلونها أيعانون؟

أصب لنفسي بعض النبيذ وأُشغِّل الشغف[1] لتشايكوفسكي. لتبكِ الموسيقى بدلاً مني. حتى وإن كنت وحدي فلست الوحيدة التي تجد العيش صعباً.

---

(1) السيمفونية السادسة لتشايكوفسكي.

يجب أن لا أشرب نبيذاً. لم يعد يرفع معنوياتي أو يُحسن مزاجي منذ أزمنة. بل صار يضيف إلى ضجري معظم الأحيان. عليّ أن آخذ نورتربتيلين أو أي مضاد للاكتئاب غيره. الأمر فقط أنني لا أحب نشوة البروزاك.

أجلس في المقعد ذي الذراعين ويغلبني النوم: أرقد الآن في مرج بين العشب الطويل الجاف، تعلوني السحب ومن أسفلها خيوط دخان، ألمح بعد وقت طويل جداً هيئةً متوهجة تشقُ طريقها نحوي، من تحتها نيران، لن أهرب منها. النهاية أخيراً. لست خائفة. أنا مشلولة، وحدي تماماً، تلك اللحظة حين تشعر بالنار تأكلك وليس بك قوة لتهرب.

يُدقُ جرسُ الباب.

عاد شبح تلك العمّة المجنونة المحروقة لتأخذني معها.

أخشى أن أجيب «من الطارق؟».

لكنه جان، يقف في الخارج وتتساقط من شعره المبلل قطرات الماء. يحمل حقيبة سفر.

- «ماذا تفعل هنا؟».

يتوسلني قائلاً:

- «لا تطرديني، يجب أن أخبرك بشيء».

أسأله بغباء:

- «هل ما زالت تمطر؟».

- «أظن هذا، لم ألاحظ».

- «بم تريد أن تخبرني إذاً؟»

- «لقد تركت بيت ماما».

انتقل من بيت أمه. لاحظت أمه أنه غارق في حزنه ونجحت في أن تعرف منه أنه يحبني وأن الأمور بيننا ليست كما ينبغي. أخبرها أيضاً عن جانا، وصنعت أمه من الأمر مشهداً وأخذت تصيح فيه أنه مجنون، فحزم بعض أشيائه وخرج. أراد فقط أن يُعلمني.

لا أعرف بم أجيبه. لقد خاض شجاراً وغداً سيندم عليه، لكنني لن أطرده في المطر في منتصف الليل. أذهب لأعد له شاياً وأقول له أن يخلع ملابسه المبللة. أعرض عليه سترتي حتى، لكن معه ثيابه الخاصة في حقيبته. أنا آسفة له. لقد تأثرت كثيراً بهذا. لعله يحبني حقاً ولن يكرر ما فعله. وأنا متيقنة تقريباً أنني ما زلت أحبه.

أعد له فراشه في غرفة جانا. يبدو مُحبَطاً لكنه يقبله طائعاً.

لا أستطيع النوم. أفكر أن حبيبي السابق معي في الشقة، وما إذا كان نعت «السابق» ما زال يلحق به أم لا. ليس عليّ سوى أن أحضنه. أن أنهض وأنضم إليه في فراشه - كما فعلت صاحبته «السابقة». أفكر في سبب مجيئه إليّ، وما إذا كانت تلك لعبة أخرى من ألعابه التي يبرع في تصميم رقصاتها - وسيلة لتلمّس طريقه إلى هنا. أفكر في ما سأفعله حين نستيقظ في الصباح. لكنني الآن أشعر فقط بالضجر وقلة الحيلة والخوف من الخيانة.

أغفو عند الصباح. حلمت أنني في مزرعة جدتي ماري في ليبوفا. أعطتني بعض اللبن والخبز والزبد لآخذها لعمتي فيندا. أخذتها إليها، وحين كنت على وشك الخروج من غرفتها أجد بدلاً من الباب فتحة ضيقة في الجدار أدرك أنني لن أستطيع المرور منها. سأبقى في هذه الغرفة مع عمتي المجنونة إلى الأبد، وستُشعلُ النارَ في نفسها وفيّ، أحاولُ يائسةً أن أمرّ من الفتحة.

يُفسّر هذا الحلم، بصفة عامة، كذكرى لميلاد المرء، لكنه أقرب لرؤية عن موقفي الحالي. أنا سجينة وحدتي التي أريد أن أخرج منها، لكنني ضيّقت المخرج فلم يعد بإمكاني الخروج. وربما كان تصوري عن نفسي، لم أعد نحيلة ورشيقة كما كنت. لقد سمنت؛ لم يعد بوسعي الدخول في ملابس كنت أرتديها من عامين. كيف لأحد أن يستمتع بالنظر إليّ، فما بالك بممارسة الحب معي؟

في الصباح نتناول الإفطار معاً. عليه أن يغادر للعمل قبلي. يسألني:

- «أنتِ لا تريدينني هنا أليس كذلك؟»

لا أعرف هل أريده هنا أم لا. أخشى أخذ أي قرار. أخشى الخيبة التي قد تنجم عن هذا. لم استطع الاحتفاظ برجل أكبر مني سناً بطرفة عين للرب وانجبت منه طفلة. كيف سأحتفظ الآن بهذا الشاب الذي لم أنجب منه - ولن أنجب منه؟

ينتظر ردي، فأخبره أن عليه أن يعود إلى بيته. لا أريد لنا أن نندم بعد أيام قليلة على تصرفنا بتهور.

يقول إنه لم يتهوَّر. إنه يعرف أنه يحبني وإنه ما زال يؤمن أن بإمكانه إقناعي بهذا، إن سامحته.

لا أقول شيئاً، فيقول إنه سيمكث عند أحد أصدقائه لفترة.

يرفع الحقيبة ولدى خروجه من الباب أقبِّله رغم كل شيء.

ربما لن يعود ثانيةً. في جميع الأحوال سيأتي يوم يخرج فيه ولا يعود ثانيةً، حتى ولو أخبرته أنني سامحته. كل شيء سينتهي يوماً ما، بما في ذلك الحياة نفسها.

أحط في المقعد ذي الذراعين إلى وقت، لا أستطيع رؤية الشارع من حيث أجلس، لا أرى سوى أسطح البيوت المواجهة والسماء التي بدأت تتلبد بالغيوم مجدداً. السحب بديعة كدلافين تتسارع خارجة من مياه رمادية. المطر في طريقه.

إن أمطرت سيبتل هذا الشاب وتبتل ملابسه مرة أخرى.

4

في الليل تنتابني كوابيس أراني فيها أبحث عن جانا التي هربت أثناء عاصفة ثلجية. أنتظرها بمزلاجتين، وتغمرني ندف الثلج رغماً عني. أعلم أنني سأتجمد حتى الموت، لكن هذا لا يهمني، الأمر الوحيد الذي يُفزعني هو أن لا أعثر على ابنتي. أحلم بزوجي الراحل. أراه حياً ويحبني ويأخذني بين ذراعيه ويطمئنني أنه سيموت إن تركته وأنه يحبني بشدة. أجدني في

الحلم سعيدةً لسماعي هذا منه، رغم ذلك أستيقظ وأنا أشعر بخِسّة. حتى الجدة التي لا أعرفها سوى من صورها، تلك التي قتلوها بالغاز، تزورني في أحلامي: إنها مندهشة لأنني لم أتعرف عليها. تقول:

- «هل تصدّقي هذا؟ لقد أشفقوا بي وتركوني أعود مرةً أخرى».

تعود للحياة تقصد. بوسعي فهم هذا.

لكن الرسولة الصغيرة لم تترك أحداً يعود للحياة من قبل أبداً.

وأين أنا في الحقيقة؟

لقد هرِمت خمس سنوات في الستة أشهر الأخيرة.

أنا عصبية ولا أحب نفسي. بدأت أضايق إيفا لملاحظتي أنها تتباطأ كلما أحتجت لها.

أحس بشعور زوجي السابق وهو يصارع مرضه المميت. ربما يأكل روحي ورم خبيث.

ربما كنت أنا مرضي الخاص.

أعددت لجانا بسكويتاً على شكل قلوب، استعرت القوالب من ماما وكتبت لها رسالة طويلة أخبرتها فيها أنني واثقة أن كل شيء بيننا سيكون بخير حين تعود إلى البيت. علينا أن نكتشف معاً الأشياء الطيبة في الحياة.

اتصلت بي بعد ذلك بيومين.

- «هاي ماما هذه أنا».

- «لا أعرفك».

- «كيف حالك؟»

- «ليس سيئاً. وماذا عنكِ؟»

- «شكرا على البسكويت ماما. لقد احتفلوا بي، قالوا إنه أفضل لي من القلوب البنفسجية[1]. لكنه كان رائعاً ولم يكن محروقاً قليلاً حتى. لقد أتينا عليه كله».

---

(1) الاسم الشائع لحبوب الديكساميل المضادة للاكتئاب.

- «أنا سعيدة لأنه أعجبك».

- «لقد تقاسمناه. قال سلافيك إنك لا بد أن تكوني رائعة. معظم من هنا أباؤهم لا يهتمون بهم بالمرة».

- «شكراً على تقديرك قيمتي. ما الأخبار لديك في ما عدا هذا؟».

- «اعتدت على الأمر هنا إلى حد ما الآن. ماما. أحياناً نمرح حقاً. حقاً. ثمة شيء ما خاص في العناية بماعز، مثلاً، وشرب لبنها، مع أن مذاقه مريع. ورادِك يقول إنه مسرور مني أيضاً، وأن بإمكانك الآن المجيء لزيارتي».

تتحدث قليلاً عن مزايا العيش في الجانب المشمس، ثم يأتيها إنذار بأن مكالمتها قد تكلفت الكثير من المال بالفعل، فتتمنى لي بسرعة كل الخير وتطلب مني مرة أخرى أن آتي لزيارتها، ولدهشتي تقترح أن آتي معي بصاحبي ذاك صاحب الشعر الزنجبيلي.

أعدها بأني سأفعل وأتجاهل الإشارة لصاحبي الزنجبيلي.

هاتفني أيضاً ذلك الرجل الذي اكتشفت أنه أخي. يسألني هل يمكنه المجيء لزيارتي؛ لديه شيء لي. قلت له أن نعم، وسألته هل آتي لأقله بالسيارة.

لا سيأتي لي بمجهوده الخاص. يريد فقط أن يعرف في أي طابق أقطن وهل ثمة مصعد في البناية.

- «أقطن في الطابق الثالث وثمة مصعد يعمل معظم الأحيان».

يأتي يوم السبت بعد الظهر. أحضرَتهُ سيدةٌ عجوز. دعوتها لتدخل لكنها قالت إن لديها عملاً عليها أن تقوم به.

يتجوّل أخي في الشقة كما لو أنه اعتاد فعل ذلك لسنوات.

- «لديكِ شقة لطيفة. وواسعة. تروقني نبتة الصبار. يبدو أنكِ تعتنين بها جيداً، ظني أن جهاز الطبول يخص ابنتك. أليس كذلك؟».

يختلس النظر لغرفة جانا ويسأل:

- «أين تخبئينها؟».

- «إنها خارج براغ».

- «للأسف. كنت أود مقابلتها. إنها ابنة أختي رغم كل شيء. أليس كذلك؟ ليس لديّ أقارب من جانب أمي. ولم أقابل شقيقتك حتى الآن أيضاً. حين أفكر في هذا أدرك أنني لم أعرف أبداً احساس أن يكون لديك عائلة. كانت ماما تقضي الوقت كله تقريباً في الخارج وكانت بالكاد تتحدث حين تكون في البيت».

عرضت عليه نبيذاً لكنه قال إنه يفضل الشاي بالرم أو الأفضل كوكتيلاً ساخناً.

ذهبت للمطبخ لأعد له الكوكتيل فجاء في عقبي معلناً:

- «لقد جلبت لك شيئاً ما». يعبث في كرسيه ويسحب شيئاً ما ضخماً ملفوفاً في ورق. ثم يوضح «رسمت لكِ صورة. لقد قلت أشياء غبية حين جئتِ لرؤيتي؛ أحياناً أكون غريب الأطوار قليلاً. ولم أرِد أن تظنيني هكذا طوال الوقت. ألن تفضّيها؟»

اللوحة بورتريه لي؛ ليس بوسعي تحديد وجه الشبه، لست معتادة على قراءة صورتي بلغة الألوان. أكثر ما يلفت نظري أنني في الصورة محاطة بالنيران.

- «لقد أحطتني بالنيران كساحرة».

- «لا. إطلاقاً. هذه النيران تنم عن الشغف. تبدين لي شغوفة - تملؤك طاقةٌ قد تحرق كل ما يحيط بكِ».

أقول في نفسي، يا رحيم، هذه العجوز المُنهكة؟

شكرته على اللوحة وقلت له إنها مثيرة. أصبُ الماءَ الساخن على الرم وأخبره عن العمة التي أحرَقت نفسَها. إنها عمته أيضاً رغم كل شيء.

يحدثني عن شبابه وكيف كانت أمه قاسية وكيف ظلت تحب والدي ولم تعش مع أحد غيره. أخي غير الشقيق أحبّ أيضاً. كانت طالبة تمريض. ثم وقعت قفزته القدرية في النهر. ظلت تزوره في المستشفى، وبعد ذلك حين

عـاد للبيـت وقفت بجانبه عدة سـنوات إلى أن قال لها فـي النهاية أن لا تضيّع حياتها معه.

يحكـي لي أخي غير الشـقيق بصوت متلعثـم عن الحادث الـذي وقع له، حكايـةً يكررُهـا للمـرة المائة بلا شـك، يقـص كل تفصيلـة عن تلـك القفزة الوحيدة التي غيرت حياته للأبد. ثم يسألني إن كان لديّ صور لأبيه، كان لدى أمه صورة واحدة فقط، أُخذت منذ أربعين سنة.

أُخـرجُ صندوقَ الصـور وأختارُ بعـضَ الصور التي يظهر فيهـا بابا، وحده ومعنـا. بابـا كشـاب وكرجل عجـوز، بابا بقميـص أزرق ووشـاح أحمر عليه معول في مسيرة اشـتراكية عمالية، بابا على المنصّة، بابا في احتفال ما حيث الرفيق الرئيس يشـبك بصدره وسـام عرفان بخدماته في خيانات الشـيوعيين، بابا قبل موته مباشرة.

أحـدقُ فيـه وهو ينظر إلـى تلك الصـور الجامدة. ابـن بابا غير الشـرعي، وانتظرُ حركةً من شـفتيه النحيلتين الحادتين. لكنه لم يقل شـيئاً، أقولُ له وهو يعيدُ لي آخرَ صورة:

- «هكذا كان يبدو، لا تأسف لأنك لم تعرفه. لم يكن العيش معه سهلاً».

- «أتخيل هذا جيداً».

- «ترك أثره علينا جميعاً. وعلى آخرين كثيرين أيضاً. لسـتَ الوحيد الذي طالك أذاه».

- «لقد أذى أمي قبل كل شيء».

أنهى كوكتيله وأومأ برأسه وقال مشاركاً إياي فلسفته الخاصة في الحياة:

- «لكـن هكـذا تجري الأمور: البشـر يـؤذون بعضهم البعض، هذا شـيءٌ اكتشـفته. نوع ما من تسلسـل ردود الأفعال. أنت تؤذينـي، فأؤذيك أنا أيضاً. من لا يؤذون هم من يتلقون الأذى أكثرَ من الجميع».

تذكـرتُ كيف حـاول إيذائـي، لكنه منذ أن زرتـه لم يُرسـل أي خطابات. الأسـهل أن تؤذي مـن لم ترهم أبداً، مـع أننا في أكثر الأحيـان نؤذي الأقرب

إلينا. لكنها ليست سلسلة ردود أفعال، واحدة بواحدة، بل هي ببساطة نتاج أنانيتنا، تعبير عن حيرتنا في مواجهة الحياة.

تدق السيدة التي أحضرته جرس مدخل البناية، ترفض الصعود وتطلب مني أن أدفع أخي للمصعد، وستكون في انتظاره في الأسفل.

أشكره مجدداً على اللوحة وعلى زيارته. حين أفتح له باب المصعد أميل عليه وأقبّله في شفتيه. رائحة نَفَسِه رَم، لكنها مع ذلك تذكرني ببابا، مع أنني لا أتذكر متى كانت آخر مرة قبّلني فيها بابا.

5

عدت إلى بيت ماما الأسبوعَ الماضي. تصرفت ماما بانتصار لا داعي له. لم أعد للبيت لتناول فطيرةَ الذل، فقط ليس لديّ مكان آخر لأذهب إليه. نقلت أشياء قليلة من أغراضي عند جِركا وبِتُّ هناك لشهر تقريباً، لكنني أدركت أن ذلك ليس حلاً. كانت قد راودتني آمالٌ مستحيلة بأن كريستيانا ستغفر لي وسأنتقل للعيش معها، لكنني عرفت حين رأيت ترددَها أن هذا أيضاً ليس حلاً. وما أكسَبهُ لا يكفي لاستئجارِ مكانٍ خاص بي.

قابلت كريستيانا وتناولنا العشاء عدة مرات: مرة عشاء بارداً في بيتها، وفي ثلاث مناسبات أخرى تقريباً دعوتها للعشاء في الخارج. لم نمارس الحب منذ الليلة التي أخبرتها فيها بمجيء فيرا إلى خيمتي. لا أظن أن ذلك بسبب زلّتي الغبية الوحيدة. يبدو أنها تغيّرت، كأنها فقدت شغفها الذي كان لديها قبلاً تجاه كل شيء، والذي جذبني إليها في المقام الأول. تظل تردد أنها مرهقة. أخبرتها أن عليها أن تهوّن على نفسها وتأخذ عطلة، لكنها قالت إنه الضجر العالمي وما من عطلة يمكنها أن تخلّصها منه.

عليها أن تدرك أن سبب الضجر هو أسلوب حياتها الذي تتبعه.

منذ وقت قصير صعدنا سلالم قليلة في سيرنا ولاحظت لهاثها. قالت لي:

- «لا تندهش. رئتاي مليئتان بالقطران».
تشرب أكثر مما ينبغي أيضاً. حين كنت أقضي الليل عندها من حين لآخر، كان أول شـيء تفعله في الصباح أن تصب لنفسـها كأس نبيذ. فلا عجب إذناً أنها مرهقة.

ما زلت أشتاق إليها، لكن يبدو أن لقاءاتنا المتباعدة لن تصل بنا إلى شيء؛ لقـاءات تفتقر للـذروة: لا نتعانق. نتحـدث، لكننا لم نعـد نتلامس، ولا حتى بالـكلام. صرنـا بارديـن أحدنا تجاه الآخـر، أو على الأقل صـرت أنا كذلك، رغم حزني لذلك.

اليوم الجمعة، الثالث عشـر من الشـهر، ذهبت إلى العمـل متوقعاً مصيبة. تحققـت مخاوفـي. دعانـي المديـر الجديد أول شـيء في الصبـاح وأخبرني أنهم مضطرون للاسـتغناء عن خدماتي. إذ تلقى الأوامر بخفض العمالة، وأنا الأصغر سناً. لست الوحيد على كل حال، لذلك فسيكون من الأفضل الاتفاق كرجال محترمين قبل أن يكتب إخطار الفصل.

كأن صغر السـن سبباً للفصل من العمل، على أية حال، كلانا يعلم السبب الحقيقـي بالطبع. لقد بذلت قصارى جهدي لأعمل على نحو لائق وأكشـف ما يمكن كشفه.

قلـت له إن علـيّ أن أفكر فـي الأمر لكنني لا أظن أنني سـأقدّم اسـتقالتي طوعـاً وأذهـب بهـدوء. عرفت وأنـا أقول له هـذا أنني لن أستسـلم من حيث المبدأ، رغم عدم رغبتي في قضاء بقية حياتي هنا.

اتصلت بجيركا في الإذاعة ما إن خرجت من مكتب المدير.

وعد بأن يرسل إحدى زميلاته في الإذاعة لرؤيتي، إنها في الغالب أمهر مَنْ عندهم في القسم السياسي.

هاتفتني بعد الغداء مباشرة.

اتفقنا أن نلتقي في الخامسة مساءً في مطعم قريب من مبنى الإذاعة.

كانـت أصغـر مما بدت عليه فـي الهاتف، وبدا وجهها مألوفـا قليلاً. قلت

لها هذا ما إن جلسنا وسألتها ما إذا كانت تعمل في التلفزيون أيضاً. قالت:
- «لا، أنت تعرفني من مكان آخر. إن كنت تتذكر، في نوفمبر، منذ تسع سنوات، أُرسلنا معاً لأوستراليا لحشد عمال المناجم».

بالطبع أتذكر، لكننا كنا مجموعة، فلم نلاحظ بعضنا البعض حقاً، ورحت أعتذر عن عدم تذكرها. فقالت:

- «كان ذلك منذ زمن طويل. وقد غيّرت أيضاً لون شعري وتسريحته، وزاد وزني وصرت أكبر سناً».

أخبرتها أن لون شعرها يناسبها وأنها ليست سمينة على الإطلاق ولا يبدو عليها أنها تزيد على عشرين سنة ولو بيوم واحد.

- «أنت لطيف حقاً». قالت وهي تبتسم لي كأنني صديق قديم.

كنت سعيداً لأننا التقينا من قبل في مثل تلك الظروف، شعرت أنني سأكون مرتاحاً معها أكثر مما لو كانوا قد أرسلوا لي أحد أفراد طاقمهم من كبار السن.

حاولت أن أمدّها بمعلومات عن العمل الذي أقوم به، وأن ثمة الكثير ممن يفضلون أن أتركه لئلا أخوض في ماضيهم وأكشف جرائمهم السابقة.

سجلت ملاحظات وأخبرتني أنهم بالتأكيد سيدعونني للاستديو الأسبوع القادم للمشاركة في لقاء بهذا الشأن، مع أنها تشك في أن هذا سيساعدني في الاحتفاظ بعملي. بل العكس في الغالب.

- «لست قلقاً على عملي، أنا دائماً أستمتع بالتغيير».

- «وأنا أيضاً. فالحياة مملّة من دون تغيير».

ثم أخذنا نثرثر عن حياة كل منا. اندهشَتْ لأنني ما زلت عازباً، فقد نجحت في أن تتزوج وتُطلق.

أخذت محادثتنا تتجاوز حدود الحكمة في الإفصاح. اشتكت من خبرتها السيئة مع الرجال، الذين تجدهم أنانيين ومثيرين للملل، فيما رحت أتحدث عن قلقي من الفراغ الذي يعوقني عن الاقتراب حقاً من البشر. لم أذكر شيئاً عن كريستيانا.

لأول مرة منذ سنوات يمكنني سماع قرع الطبول الأفريقية من على بعد، مما يجعل دمي يتسارع. لمست يديّ يدها عدة مرات أثناء محادثتنا، ولم تُبعد هي يدها.

خطر لي أن أسألها ما إذا كان ثمة عمل لي في الإذاعة، في حال تم فصلي حقاً، أخبرتها أنني لست مبتدئاً تماماً وأن لديّ دخلٌ آخر جانبي من كتابة المقالات.

كانت واثقة أن بإمكاني إيجاد عمل هناك: أخبرتني أن الإذاعة بمثابة قُمع ضخم لجمع الناس. لن يكون من الصعب دخوله لكن الصعب إيجاد فتحة للخروج منه. ثم أضافت أنه سيكون لطيفاً أن نصير زميليّ عمل. نهضت، للأسف لديها موعد عليها أن تذهب إليه.

أثار ذكر هذا غيرة فضولية تقريباً بداخلي، لكن كل ما قلته إننا بالتأكيد سنلتقي مرة أخرى المقبل.

طلبت رقم هاتفي وأعطتني رقمي هاتفها في العمل وفي البيت أيضاً، في حال لم أجدها في الإذاعة. قالت إنها تتطلع لرؤيتي مرة أخرى، وإننا بالتأكيد سنلتقي الأسبوع المقبل.

في الغالب هذا ما تقوله لكل من تعدّ معه برنامجاً، لكنني كنت واثقاً من أنها هي الأخرى تتوقع من لقائنا المقبل شيئاً أكثر من مجرد مقابلة إذاعية، فأثار قولها حماستي كأننا اتفقنا على موعد غرامي.

أهاتف كريستيانا ليلاً.

توقعت أنها تخشى من أن أعرض عليها أن أزورها، إذ بدأت تشكو من إرهاقها.

سألتها عمّا تنوي فعله في الغد.

قالت إنها ستزور جانا.

- «أمر جيد أنك ستخرجين».

أجابت:

- «يمكنك أن تأتي معي إن أردت». وقد أدهشني ذلك.

لـم أكن واثقاً من رغبتي في الذهاب معها، لكننا لم نذهب معاً لأي مكان من قبل، وستكون فرصة لأخبرها عما حدث معـي في العمل. ظننت أيضاً أنها ربما ستخبرني بأننا سنظل معاً رغم كل شيء، مع أنني بدأت أفكر أننا لن نظل معاً أبداً.

6

أقـود بسـرعة كعادتي. يجلس جـان بجانبي ويبدو مسـروراً. لا أدري ماذا حلَّ بي لأدعوه للمجيء معي. أخشـى أن يُفسِّر دعوتي هذه على نحو خاطئ. لكن أنا نفسـي لسـت واثقةً تماماً مما تعنيه دعوتي له. أهي مصالحة أم مجرد رحلة مشتركة لأننا نحن الاثنان من أخذناها معاً لمركز التخلص من السموم؟

ليس بوسعي تحديد ما أردته من دعوته حقاً. لا أريد أن أقسو عليه؛ لا أريد أن أؤذيه؛ لا أريد بدءَ تلك السلسـلة من ردود الأفعال: أنت آذيتني، فسأؤذيك أنا الآن. لا أريد أن أؤذيه، لكنني لست واثقةً من أنه لن يؤذيني. لا أدري كيف يشـعر نحوي في هـذه اللحظـة بالتحديد. بل أشـعر بالأحرى أنـه يتجول في مكان آخر من أفكاره بعيداً عني.

نصل إلى الجانب المشمس قبل منتصف النهار.

يخبرونني أن جانا بالخارج في الغابة مع الآخرين وسـتعودُ خلال ساعتين تقريباً.

يمكننا أن نذهـب للغابة لإيجادها، لكننا ننطلق في الاتجاه المعاكس بدلاً من هذا. بعد ذلك بنصف سـاعة نقابل في سـيرنا مجموعـة من البيوت تحيط ببركة سـمك رائعة، ثم نصعد إلى تلة تنتصب على ممشـى في حقل. انقشعت السـحب قليـلًا وتحاول شـمس الخريف جاهـدة أن تدفئ الجـو قليلاً. على يميـن الممشـى غابة: اصفـرّت أشـجار الأرز بالفعل وتبدو كأنهـا تتوهج في ضوء الشمس. إلى يسارِنا ثمة حقلٌ حُرِث مؤخراً، تُربتة المقلوبة عابقة.

صعود التل مرهق وأجد صعوبة متزايدة في ملاحقة أنفاسي، لكنني أحاول أن لا أُظهر ذلك. لحسن الحظ أن جان ليس مستعجلاً. يخبرني أنه قد يتلقى إخطاراً بفصله من العمل قريباً. يسألني ما إذا كان عليه أن يقاتل من أجل البقاء فيه أم يستقيل الآن بعد أن بدأ يشعر بأنه مضيعة للوقت. أحد اختياراته أن ينهي دراسته الجامعية، لكنه يرغب أيضاً في أن يراجع ما مر به خلال السنوات الماضية بالكتابة عنه ونشره في كتاب. ليس على حسابه الخاص، أو ليس هكذا تماماً. يعتقد أن نسيان الماضي، كعادة معظم الناس الآن، ظاهرة خطيرة. لكنه إن ترك عمله فعلى الأرجح لن يجد عملاً آخر بالراتب الجيد نفسه. يمكنه تجربة العمل الحر في الصحافة أو الإذاعة؛ لديه بعض أصدقاء هناك، ويروقه هذا النوع من العمل.

أفكر في أنه يخبرني بهذا جزئياً لأنه ما زال يفكر في احتمال العيش معي ولذلك يشعر بمسؤولية معينة تجاهي. أقول له إنه إذا واتت المرء نصف فرصة للاختيار فعليه أن يختار ما يحب أن يفعله حقاً وما يراه مفيداً.

ربما يناسبه أنني أكبر منه سناً، إذ أعرف عن الحياة أكثر مما يعرفه هو الآن؛ ربما كان بحاجة لشخص ما ليحسّن قراراته في الحياة. الأرجح أن أمه من ظلت تفعل هذا حتى الآن، لكن الرجال الذين لا يستطيعون التحرر من أمهاتهم يميلون للشعور بالذل.

لن تعرف أبداً مكانتك عند الآخرين، هم فقط من يعرفون، لكنهم، حتى هم أنفسُهم، لا يستطيعون الجزمَ بالقول.

نصل إلى قمة التلة أخيراً. ثمة كنيسة صغيرة على مقربة من الممشى. تبدو مهجورة ونمت على الدرب المؤدي إليها أعشابٌ لم تطأها قدم.

نطأ العشب بخفة. الكنيسةُ خالية، ليس فيها أيقونة أو لوحة أو تمثال، ثمة فقط بقعة متعفنة على الجدار، وعلى طاولة صغيرة رثة آنيتا زهور زرقاوان.

آنيتا زهور زرقاوان أقف أحدّق فيهما بذهول، كأن أحدهم وضعهما هنا عمداً من أجلي. ما الجدوى من آنيتي زهور خاليتين في كنيسة خالية ليس على جدارها أيقونة حتى؟

واحدة للدم والأخرى للدموع: أسمع أنيني القديم.

نقف هناك بلا حراك للحظة. لا نصلّي، لا نتكلم، فقط نصغي. لا أعرف ماذا يقول له هذا المكان، لكنه بلا شك شيء مختلف عما يقوله لي. أسمع فجأة صوت أبي، واضح وقاس، كما عرفته حين كنت صغيرة وأخافه، وأتوق لحبه. أسمعه لكنني لا أميز كلماته. في الغالب جاء ليسألني لماذا كسرت تلك الآنية حينذاك. أم إنه جاء لينقذ هاتين الآنيتين المهجورتين؟ لكن ماذا لو جاء لنصفّي خصوماتنا؟

عليك أن تتحدث بوضوح بابا.

لكنه سكت ولن يعود ولن يتحدث مرة أخرى.

بودي لو أسمع على الأقل صوت زوجي الأول والوحيد الذي تقت لحبه أيضاً، لكنه لن يأتي أو يقول أي شيء هو الآخر بعد الآن.

كل ما تتوق إليه في الحقيقة هو أن تسمع أن أحداً ما يحبك، لكنك في العادة لا تسمعها، لأنها غالباً ما تكون مجرد كلمات يُقصد بها خداعك. حين تدرك هذا، إما أن تكتئب أو تبحث عن شيء ما يريحك.

لا شيء يريحك، على أية حال.

فتصل الحياة لخاتمتها ويطوي الزمان الجميع وكل شيء.

فهم زوجي السابق هذا وحاول الهروب منه. كنت أذكّره بالزمان، إذ كنت أصغر منه، فهرب مني أنا أيضاً. في نهاية المطاف انحنى للزمان باعتباره خالقه. ولم يستطع الهرب مني حتى، إذ كنت أنا من أغمض له جفنيه في النهاية. أتذكر كم كان موته حزيناً ووحيداً وأشعر برغبة في البكاء عليه في هذه البقعة القاحلة.

وأشعر برغبة في البكاء على بابا. أفكر في أن كلاً منهما لم يكن سعيداً، لم يعرفا كيف يعيشا بما لديهما، أرادا شيئاً ما آخر، غير الذي قدمته لهما الحياة. كانا يفتقرا للتواضع. وأنا أيضاً كذلك، لم أستطع التصالح معهما، ولا مع حياتي بالتالي. على المرء أن يكون قادراً على التصالح مع الناس، حتى وإن لم يستطع التصالح مع أفعالهم.

أَلتفت للشاب الذي يقف بجانبي. جاءني في اللحظة التي لم أعد أتوقع فيها، لا شيء ولا أحد جديداً في حياتي، وقال لي مراراً وتكراراً إنه يحبني. لم يكن فعله كقوله، أو على الأقل كان كذلك في لحظة، لم يحاول حتى إنكارها، لكنني لم أستطع التصالح مع ما فعله.

لا أعرف لكم طرفة عين للرب سيظل معي، لا يهم. لا أعرف إلى متى سأصمد أنا، إلى متى سأظل قادرةً على الحب؛ ربما ستَغْلُبني علّتي؛ ربما لم أعد قادرة على الاقتراب من أحد إلى حدّ أن أعيش معه. لكنني لن أعذب نفسي بهذا الآن؛ أنا ممتنة لهذه اللحظة، إلى الوقت الذي ربما سيظل فيه معي.

أعانقه فجأة، أقبله في كنيسة خالية من أي شيء ما عدا آنيتي زهور فارغتين. لا أفعل شيئاً ولا أقول شيئاً. ثم نخرج مسرعين.

– «سنُحضر جانا اليوم». يبدو مسروراً ويتطلع لدعوة جانا إلى العشاء معنا الليلة.

نعود في اليوم نفسه للمدينة وتخبرنا جانا، بحماسة أخشى أنها غير متحفظة، كيف بدأت تفهم أنها كانت في المسار الخاطئ تماماً وكيف حدث وسارت فيه. شاركوا الأسبوع الماضي في جلسة نقاش في إحدى المدارس وأخبروا التلاميذ بما عانوه وكم كان ذلك مريعاً.

– «وماذا كان رأي التلاميذ؟».

– «كانوا مبهورين تماماً». تقول ابنتي بفخر. تشعر بإثارة لأنها بدأت تفهم نفسها وجميع من يحيطون بها. وتفهمني أنا أيضاً.

– «هل تحسبين أنكِ تفهمينني؟».

– «نعم. لقد بدأت أفهمك حقاً».

– «أشك في هذا».

– «الفهم ليس الاتفاق».

– «لم أظنه كذلك أبداً».

– «سوف أحلل شخصيتك وأعلّمك كيف تكوّنين رأياً عن نفسك.

وستندهشين». ثم تتحدث عن كيف بدأ أصدقاءها، الذين يحبونها، يفهمون أنفسهم:

- «وحين يبدأون في تحليل أنفسهم ينتهي بهم الأمر فجأة ضئيلين بهذا الحجم». وتعبر عن مدى ضآلتهم بفتحة بين أطراف أصبعيها السبابة والإبهام لا تستطيع دعسوقة[1] المرور منها.

يضحك جان عليها، لكنني أتذكر عقوقها وعِنادها، فأشعر بأنها اتخذت مساراً ما حقاً. أعدها أن أدعها تعلّمني كيف أكوّن رأياً عن نفسي.

نذهب إلى العشاء في بار يبدو محترماً. تطلب جانا بعد تفكير طويل طبقاً شرقياً بالأرز وذاك السائل الأسود المقزز الذي يأتي في زجاجة رفيعة. نطلب نحن أيضاً عشاءنا، ولأظهر للاثنين الآخرين تضامني معهما، أطلب ماءً فواراً بدلاً من النبيذ، لأول مرة منذ زمن. لكنهما لا يلاحظان ذلك على أية حال، إنهما يستمتعان معاً. يتحدثان اللغة نفسها تقريباً. يحبان سبايس جيرلز ويعرفان فاروسا أو ماروسيا ماي الذي يلعب جيتار إلكتريك، ويتفقان معاً على أن السيد أو السيدة بيورك يغني أو تغني كما لو أن فمه أو فمها مليء بمخاط جاف. حتى إنهما شاهدا الأفلام نفسها وكلاهما يحتقر التليفزيون. يسأل جان ما إذا كانوا يلعبون أيضاً فتجيبه جانا إنهم يلعبون الشطرنج، مع أنها لا تحبه، ويلعبون أيضاً الداما والليدو. يعد جان أن يأتي ويعلّمهم ألعاباً جديدة.

أنظر لكليهما واسمع ثرثرتهما. إنهما مسترخيان في حوار مختلف تماماً عن أي حوار جرى بيني وبين جان من قبل.

حين يترك جان الطاولة للحظة. تقول جانا بسرعة:

- «ماما إنه يناسبك حقاً».

- «لماذا تظنين هذا؟».

---

(1) خنفساء صغيرة.

- «حسناً، كأنكما تكملان أحدكما الآخر. أنتِ حزينة وهو مبتهج. وأنتِ عيناك زرقاوان وهو عيناه بنيتان.

- «أنا أيضاً عجوز بينما هو شاب».

- «وأنتما الاثنان مجنونان».

مديح غير متوقَّع.

7

يوم الأحد تأتي ماما كالطير المبكر قبل طلوع الشمس تقريباً ولم نكن قد تناولنا الإفطار حتى.

فوجئت بمجيئها وحدها، لكنها أوضحت أنه كان على «جان» أن يغادر الليلة الماضية لإجراء مقابلة في الإذاعة عَمَّ حدث له. تقول ماما إنها سعيدة لأننا قضينا وقتا معاً. وتذهب لترى رادِك - لتمنحني الوقت لأتناول فطوري بسلام، كما قالت. كنت أحب أن أسمع الخزعبلات التي سيقولها رادِك عني.

تصيح مونيكا من الخارج أن خنزيرنا قد أكل دجاجتي السوداء. فأصيح فيها: «حسناً، أولاً الدجاجة ليست دجاجتي فقط بل دجاجتنا، وثانياً لماذا لا يأكلها وهو قارت؟[1]». لكن العرسة هي من أكل الدجاجة على أية حال. لم يتبق من الدجاجة سوى ريشات سود قليلة كان عليّ أن أزيلها من الباحة. شيء مذهل. ثم ظهرت ماما فجأة وبدت راضية ففكرت أنه لا بد أن رادك قد تغنّى بمحاسني.

حين خرجنا أنا وماما من جانبنا المظلم المشمس اقترحت عليها أن نذهب للكنيسة.

---

(1) آكل الأطعمة الحيوانية والنباتية.

- «هل تذهبون للكنيسة هنا؟»

لـم نذهب للكنيسـة كثيـراً، لكن الفكرة خطـرت لي فقط، فاليـوم الأحد، وماما جاءت لزيارتي، فتقول: «ولم لا؟ لم أذهب إلى كنيسة منذ أزمنة».

ذهبنـا إلـى كنيسـة البلدة، التـي كانت مثيـرة للشـفقة تمامـاً - لا أيقونات ولا لوحـات تقريبـاً، فقط بعض ملائكـة يحلّقون في السـقف يطردون بعض الشـياطين المسـكينة مـن النعيـم. إلا أن النعيـم كان مليئـاً ببقـع صدئة حيث يتساقط الماء من السقف الراشح.

كانت مزدحمة، على الأقل سـبع نسـاء عجائز وأسرة غجرية مع طفل. في الكنيسـة التي كانت إيفا تأخذني إليها من وقت لآخر كنت أحب الغناء ورنين الأجـراس والبخـور والخـدّام، خاصة واحـد منهم كانـت له أذنـان كبيرتان. الخدام هنا عاديون تماماً، لكن القس شاب وشاحب وضئيل جداً حقاً، أراهن أنهم كانوا في المدرسـة يهـزأون منه طوال الوقت. كان متأثـراً جداً لأننا جئنا إلى كنيسته لحد أنه لم يستطع تجاوز الصدمة وظل يتلعثم في كلامه. حين بدأ الغناء غنّى بنشـاز حقاً، لكن في النهاية لا يمكنك التأكد من أن النشـاز صادر منـه لأن سـتة مـن العجائز السـبعة الآخرين غنوا بنشـاز أيضـاً. أحببت القس حقاً، شـعرت بالأسـف له لأنه عالق هنا وحده في هذه الكنيسة الخالية وليس مسموحاً له بالزواج وإنجاب أطفال. وتخيلت ماذا سيفعل لو أنني ذهبت إليه وقلت له إنني معجبة به، هل سيعرض عليّ أن أبقى معه هنا.

ثـم أخـذ يعظ عن شـخص يدعـى القديـس فرانسـيس، كان مسـكينا حقاً ومتواضعاً وصبوراً وكان يشـعر بسعادة غامرة حين يأبى الناس أن يضيفوه في حانة أو دير وهو يشـعر بالبرد والبلل والجوع. لن أشـعر بسـعادة غامرة لهذا. شـعرت بسـعادة غامرة في المخدرات، وأشـعر بفضول حقاً لأعرف ما الذي سيشـعرني بسـعادة غامرة مماثلة بعد أن أخرج من هنا، وإن كنت سأنجح حقاً في الاستمرار.

أكره الوعظ لأنه مجرد شـطارة وجرّ رِجل. رحت أفكر في ما سـأفعله بعد

أن أغـادر من هنا. تخيلت الذهاب للمدرسـة صباح كل يـوم مع أنه لا يُجدي في شيء، ولم أستطع التفكير في من سأتحدث معه إن لم يسعني التحدث مع رودا والآخرين بعد الآن، فقط لأنهم ما زالوا مدمنين.

ثم تلونا جميعاً أبانا الذي في السماوات، وحينها فكرت في بابا وتساءلت إن كان فـي السـماوات. لكنه لم يكن يؤمن بهـا، كان يؤمن بالانفجار العظيم، حيث لا سـماء ولا أرض، لا شيء سـوى تلك الكريّة الزجاجية الصغيرة التي خـرج منهـا كل شـيء. وكيـف للرجل المسـكين أن يكـون في السـماء، وقد وضعوه في فرن وأحرقوه؟

فقط في تلك الليلة حين أعادتني ماما بعد جنازة أبي خطر لي أنني تصرّفت معه على نحو سيئ، لأنني ظننت دائماً أنه كان وضيعاً إذ هجرنا أنا وماما على هـذا النحـو، لكن ربما لـم يكن يريد هذا حقـاً. كانت ماما تتعسـه أحياناً حين تأتيها نوبات اكتئابها ولا ترغب في التحدث مع أحد؛ لم يكن بوسـعها تصنّع ابتسـامة حتى، وكانت حين تعود من العيادة تجلـس في المقعد ذي الذراعين تدخّـن وتشـرب نبيذها. حـاول أن يتحدث معها مراراً، وكان يفعل كل شـيء يمكـن فعله في البيت. كان يقول امنحينا ابتسـامة صغيرة كريسـتيانا، لكن بلا جـدوى، وفي النهاية هرب. تخيلت أيضاً ألسـنة اللهب تأكله بعد أن أسـدلوا ستائر المحرقة لئلا نرى، وفجأة شعرت بالأسف عليه إلى حد أن بدأت أبكي. اسـتيقظت مونيكا وحين رأتنـي أبكي قالت لي: «على مـاذا تبكين هكذا أيتها البقرة الغبية؟».

أخبرتهـا أن بابـا مـات وأحرقوه. فهدأت فـوراً وقالـت: «أوه، أبوك مات، للأسـف ليس لدينا مخدر ما». لم يكن لدينا شـيء، وعلى أية حال فقد قررت أن لا أعود للمخدرات.

فـي جلسـة النقـاش الجماعي في اليوم التالـي قال رادِك إنه أمـر جيد أنني حزينـة وأبكي لأنهـا طريقة لتصفية الأمر مع بابا، ومن ثم فلن تراودني نفسـي على فعل شيء سخيف لأغيظه، ولأن هذا يعني أنني تصالحت مع ماما، لأنني

كنت أكره تفكيرها الدائم في بابا ولومها نفسها بدلاً من تقبّل أن الحياة هي هكذا.

بدت ماما متأثرة إلى حد ما في هذه الكنيسة، مع أنها لم تغنّي ولم ترسم شارة الصليب على صدرها، لكنها ركعت حين ركع الآخرون وأحنت رأسها. رأس ماما وعنقها جميلان. لست مندهشة لأن هذا الشاب ذا الشعر الزنجبيلي، الذي ظل يخرج معها منذ الربيع، معجب بها. كنت لأعجب بها أنا أيضاً، وقد أُعجب بي أنا أيضاً حين كنا نثرثر معاً ليلة أمس، كان لطيفاً، وكان يلقي إليّ بنظرات من وقت لآخر، لكنه كان يتأكد دوماً أن ماما لا تلاحظ.

غادرنا ما إن انتهى القداس، لكن ماما قالت إنها سعيدة لأني أخذتها للكنيسة وإنها ستأخذني هي أيضاً لتريني شيئاً ما. قادت السيارة حتى بركة السمك: إنها في الحقيقة أقرب إلى مستنقع قذر كبير ندعوه فجوة النَّتَن. ثمة درب يبدأ من هنا صعوداً حتى يصل إلى جرف منحدر بشدة. لابد أنها في مزاج رائع وإلا لم تكن لتصعد تلة كهذه أبداً. بدت طوال الوقت كأنها على وشك أن تخبرني بشيء مهم، مثل أنها ستتزوج جان، لكنها لم تقل شيئاً. وكنت أسليها بثرثرة عن الأمور هنا. مثل أننا الأسبوع الماضي شهدنا أول سقوط للثلج وأنني حينها كنت في الفراش وأخذ أصحابي يصيحون أن بوسعهم رؤية الشفق القطبي[1]. وأخبرتها كيف أعتني بالدجاجات والبط وكيف سأكون سعيدة لو عملت في مزرعة بعد أن يقول رادِك أنني تعافيت، أو الأفضل من هذا حتى لو عملت في مساعدة المحتاجين - من هم مثلي، على سبيل المثال، حيث كدت أدمِّر حياتي كلها بالمخدرات. أخبرتها أيضاً أنني أدرك الآن كم آلمتها، لكنني كنت أكره المدرسة حقاً ولم يكن فيها شيء يسعدني. حتى في البيت كان الأمر فظيعاً أحياناً.

---

(1) Aurora borealis ظاهرة طبيعية للضوء في السماء تحدث في المرتفعات على نحو خاص.

تسألني ماما هل كنت وقتها أفتقد بابا، قلت لها إنني كنت أفتقده في البداية لكنها كانت تفتقده أكثر وظلت تفتقده إلى وقت أطول، وقد أغاظني هذا حقاً.

ظللنا نصعد والغابة إلى يميننا. يبزغ منها فطر السيدة العجوز. ثمة تلال من الفطر السحري هنا، لم أكن أعرف من قبل أن الفطر السحري يعلو بالمرء في رحلات، لكن مونيكا كانت تتعاطاه وكانت مغرمة به بحيث ظنت مرّة أنها ستموت.

تقول ماما:

- «نعم، أعترف أنني كنت أنهار من وقت لآخر، لكن يجب أن تعرفي أنه شيء كالمرض، أحياناً لا يسعني فعل شيء حين يصيبني. وأحياناً يكون له أسباب جيدة حتى».

فأوضحت لها أنها دائماً ما ترى الجانب السيئ في الأشياء قبل غيره. تحدثنا أنا ورادِك في هذا الأمر. قلت له إنها من المحتمل أنها لم يكن لديها تفكير إيجابي، وقبل أن أتسبب أنا في الضغط على أعصابها، كان ثمة بابا وجَدّي. وقال إن هذا يوضّح له الكثير من الأمور، وأنها هي نفسُها أخبرته أنها تدمّرُ نفسَها، وكيف كانت علاقتها بأبيها وعلاقتي أنا بأبي. الأمر مذهل حقاً كيف يكرر كلُ شيء نفسَه، حتى الأشياء الغبية.

تقول ماما:

- «أنتِ ورادِك تقولان أشياء لطيفة حقاً عني، لكن ما عدا هذا فتحليلكما جيد جداً». ما زالت تبدو كأنها تريد أن تخبرني بسر، لكنها في النهاية تشير إلى حطام قديم أمامنا وتقول: «أترين تلك الكنيسة؟ أريدك أن تري ما بداخلها».

حين نصل إلى الحطام، تبدو الكنيسة مثيرة للشفقة، خالية تماماً من الداخل، أكثر خلواً من الكنيسة التي جئنا منها حتى، لم يكن فيها شيء سوى طاولة صغيرة بسيقان مكسورة عليها آنيتا زهور مكسوَّتان بمخلّفات الطيور أو شيء من هذا القبيل، لم يكن فيهما زهور حتى. لم أعرف ما الذي تريدني ماما أن أراه هناك. تقول:

- «انظري. لا قديسون ولا ملائكة. فقط آنيتا زهور ولا شيء آخر».

بوسعي أن أرى هذا، لكنني لم أفهم لماذا تريدني أن أراهما. ربما لأنهما بدتا لها حزينتين، مهجورتين ومسلوبتين.

لكنها قالت إنها جاءت إلى هنا بالأمس مع جان، وأدركت حينها أنه ليس المهم ما يبنيه البشر حول أنفسهم. يمكنك هنا أن تشعري بأكثر مما تشعرين به في كنيسة مليئة بلوحات ومنحوتات. وإنها أدركت الآن أن الأمر يعود للناس في أن يتعلموا كيف يسمعون لكل ما يتحدث إليهم وقبل كل شيء لأنفسهم. هذا هو. وقالت أيضاً إنها تعرف أنها كانت شنيعة وأنها صاحت فيّ، لكنها في الحقيقة لم تكن تصيح فيّ أنا، بل في شيء ما بداخلها، لأنها لم تستطع التصالح مع حقيقة أن الحياة كما هي، وأنها هي نفسها كما هي.

أدهشني هذا حقاً. وقد بدت جميلة للغاية. لم أتعود على كل هذا حتى الآن، أتساءل فقط إلى متى سيستمر.

وقفنا هناك لدقائق أخرى قليلة وتذكرنا بابا. كيف سيكون الأمر لو كان هو أيضاً معنا هنا؟ ربما كان هو الآخر سيبدو جميلاً وسعيداً بكونه معنا وليس وحده بعيداً عنّا، كما انتهى به الأمر، ليس لديه شيء، ولا حتى الكريَّة الزجاجية التي خرج منها كل ما نبصره وما لا نبصره. غريب حقاً عجز البشر عن التفاهم وخبثهم مع بعضهم البعض. أردت أن أخبر ماما أنني أحبها لكنني حين التفتُّ إليها وجدتها متأثرة حقاً وكانت تهمس بشيء ما لنفسها، كأنها تصلي، لكنها لا تصلي. ربما كانت تدندن أغنيةً ما لنفسِها، كأغنية الذبابة الصغيرة تلك، لكن هذه لم تكن عن ذبابةٍ صغيرة البتة، بل عن روعة أن تكون حياً. لم أشأ أن أزعجها فلم أقل شيئاً.

إيفان كليما

لا قدّيسون ولا ملائكة

يأخذنا إيفان كليما إلى "براغ" في السنوات الأولى التي تلت التمرّد على آثار العصر الستاليني.. فيقدّم لنا رواية رائعة مليئة بالمشاعر والأحلام والقلق والخوف والتمرّد. كيف نتخلّص من الحقد والألم والخوف من دون أن يكون تمرّدنا حفرة جديدة.. ذلك هو ما يبحث عنه كليما في هذه الرواية.

"شخصيات السيد كليما صادقة ومقنعة للغاية- مصابة، هشة، مرتبكة، مفعمة بالحياة. مثله مثل أنطون تشيكوف، يستطيع إيفان كليما أن يبرز لنا ما هو غير عادي في الحياة العادية."

ميريل روبين، الواشنطن تايمز

يؤرخ إيفان كليما لأربعين سنة من البحث عن السعادة بين الحصى والرمال المتحركة.. تومض هشّة آلام هؤلاء البشر".

جانيت بورواي، النيويورك تايمز

" شخصيات ذات رنين شكسبيري... لا قديسون ولا ملائكة عمل فني مميز حقاً."

توم ديفيلين، بروفيدنس جورنال

"مرة أخرى يقدم كليما شخصيات تجسد التجانس الأزلي بين العيش تحت أنظمة قمعية قديمة وصعوبات وإحباطات عهد الحرية الجديد.... يظل كليما ممسكاً الحاضر بقبضته حتى وهو يستكشف الماضي بالأخرى."

آندرو ناجوريسكي، نيوزويك

"قصة مؤثرة، مسرودة بتأثر: يؤمن كليما بالمثاليين، وهو روائي بارع للغاية.

بابارا هوفرت. ليبراري جورنال

" أديب تشيكي في ذروة لعبته.. جوهرة أدبية لم تُقدَّر بما يكفي..."

سكوت بيرنارد نيلسون. البوسطن جلوب

لا قديسون ولا ملائكة قوة إنسانية."

عالم كتب الواشنطن بوست

"بواقعية وحساسية، يقدم كليما المشاكل التي تواجه براغ المعاصرة والحضارة بشكل عام."

جيني يابروف، سان فرانسيسكو كرونيكل

لوحة الغلاف: تومبلي


ISBN 978-9938-886-07-8

